إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي
مع تحيات : MICO MARK
Mico_maher@hotmail.com

كلمة التحرير

هذا هو الجزء الثـــانى من رواية « ذو القناع الحديدى » للروائى الأشهر اســكندر دوماس الكبير • وقد وضعنا فى مقدمة هذا الجزء خلاصة وافية للجزء الاول الذى صدر فى شهر مارس الماضى ، حتى لا تنقطع سلسلة الحوادث التى احتوتها هـذه الرواية الشـــائقة ، وليستطيع القراء ــ فى يسر ــ متابعة فصولها وما قام به أبطالها من أعمال ووقائع

وهذه الرواية فى جزءيها تصور عصر لويس الرابع عشر بما فيه من أحـــداث عجيبة ، وشجاعة نادرة ، ومكايد ودسائس ، وطموح ومغامرات • ولو أنها سميت باسمه ، لما كان فى ذلك تجـــاوز ولا مغالاة ، لأنها تصور حياته وطبيعته وأخلاقه وبخاصة فى هذا الجزء الثانى • فان القارىء سيرى فيه شخصية لويس الرابع عشر فى قوته وعظمته وسلطانه • وكيف تغلب على أخيـه التوأم فيليب الذى حل محله ليلة واحـــدة على سرير الملك ، وكيف قضى على خصومه ووحد السلطة فى يده

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تصور حياة ملك عظيم ، فان المؤلف استطاع بفنه الرائع أن يضمنها غراما قويا عنيفا لا يقل عنفا وتضحية عن غرام قيس وليلى ، أو روميو وجوليت •• بل لعله أكثر روعة ، وأشـــد عنفا وأسى ، فان غرام الشاب الفارس راءول (الفيكونت دى براجلون) بالفتـــاة لويز دى لافاليـير ، قد بلغ الذروة فى اللوعة والتضحية والحرمان ، وقد كان غراما يائسا دفع راءول المسكين الى أن يلتمس الموت فى الحرب فرارا من بلائه وعذابه

▭

أما الرواية التالية فهى « ابنة البخيل » للروائى العـــالمى الكبير أونوريه دى بلزاك ، تصـــدر فى ١٥ مايو القادم • وهى تصـــور فى أروع صورة جناية البخل على الانســـان وعلى ذريته من بعده ، كما تصور « البخل » فى أعنف مظاهره ، وأبشع أحواله • ثم هى ترينا كيف تنشأ ابنة البخيل موضـــع ملاحقة ماكرة من المعجبين بمالها ، لا بجمالها • وهى بالاجمال رواية انســـانية تحارب قوى الشر فى نفوس الاشرار

شخصيات الرواية

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحيانا

الامير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولا من الناس ، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر .. ملكة متكبرة ، تعاني مرضاً جسمانياً وألماً نفسانياً وتحتفظ بسر مولد فيليب

الدوقة مدام دى شيفريز : كانت صديقة للملكة آن ثم أخفى عليها الدهر ، واطلعت على سر لفوكيه فباعته لكولبير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجيه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولبير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

ارامبس (الكونت دربلاى) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال فى عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفا وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دى فالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دى لافير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راءول (دى براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدام ، أحب الآنسة لويز دى لاقاليير احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، وتعاهدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دى لاقاليير : احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، أحبها راءول ، وعاهدها على الزواج ولكنها وقعت فى غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطايب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير أرامبس الذي أقرضه أموالا ثم تركها له ، وهو عضو فى جماعة الجزويت

ملخص الجزء الاول

كان الضابط الشاب « راءول » أو « الفيكونت دى براجلون » قد تبادل الحب والتعاهد على الزواج مع الفتاة « لويز » أو « الآنسة دى لاقاليير » كما كانت تعرف فى بلاط « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا حيث تعمل وصيفة للأميرة « هنريتا » قرينة شقيقه الأصغر ، وخليلة « الفيكونت دى جيش » زميل راءول وصديقه الحميم !

وكان الملك قد شرع فى مغازلة الأميرة واجتذاب قلبها ، لكنه ما لبث قليلا حتى كف عن ذلك اذ جن غراما بوصيفتها دى لاقاليير ، وبادلته هذه غرامه وكثر تلاقيهما بعد أن أبعد الملك خطيبها فى مهمة أرسله فيها الى انجلترا ، فأثار ذلك حنق الأميرة المهجورة ودفعتها الغيرة الى الانتقام لنفسها ، فسعت حتى رجع خطيب الوصيفة فجأة الى باريس ، وكشفت له خيانة خطيبته ، ثم انتهزت فرصة خروج الملك والحاشية فى نزهة قصيرة ، وأطلعت الفتى على آثار تلك الخيانة بالغرفة السرية التى تجتمع فيها مع الملك فى المسكن المخصص بالقصر الملكي للنبيل الشاعر « سان اينيان »

وسارع الشاب ـ بعد أن تحقق خيانة خطيبته ـ الى مقابلة المسيو « دارتانيان » قائد فرسان الملك ليشاوره فى الأمر بوصفه أحد الفرسان الاربعة المشهورين منذ عهد « لويس الثالث عشر » والذين يعد أبوه وهو « آتوس » أو « الكونت دى لافير » أكبرهم سنا ومقاما وثروة . فلما نصح له « دارتانيان » بالتريث ، لجأ الى المسيو « بورتوس » أو « الكونت دى فالون » أقوى أولئك الفرسان الاربعة جسما وأبسطهم عقلا ، واستطاع أن يقنعه بأن يكون رسوله الى « سان اينيان » لكي يدعوه الى مبارزته . وكادت هذه المبارزة أن تتم لولا أن علم بها الملك فى آخر لحظة فحال دون وقوعها

وما كاد الكونت دى لافير يعلم بالأمر من صديقه القديم « دارتانيان » حتى اشتد به الغضب من سوء تصرف الملك واعتدائه على كرامة ابنه ، وسرعان ما توجه الى القصر الملكي حيث جابه الملك بسخطه واستنكاره تصرفه ، ثم لم يسعه حين لج الملك فى كبريائه وعناده وأخذته العزة بالاثم الا أن جرد سيفه التاريخي المقدس وحطمه أمامه ثم ألقى به بين يديه وانصرف لا يلوى على شيء !

ولم يشأ لويس الرابع عشر أن يسكت على هذه الاهانة ، فأمر قائد فرسانه بأن يلحق بالكونت دى لافير ليقبض عليه ويزج به فى سجن

الباستيل ، وفشلت محاولات دارتانيان لاقناع الملك بالعدول عن هـذا الأمر ، كما فشلت محاولاته لحمل الكونت على الفرار الى خارج الحدود. فلم يسعه الا أن نفذ الأمر ، ثم رجع الى الملك وطالبه ملحا بأن يأمر باعتقاله أيضا ، كي يلحق بزميله المجاهد الوطني الكبير ويشاركه مصيره الأليم . وازاء هذا لم يسع الملك الا أن يأمر بالافراج عن الكونت المعتقل فى اليوم نفسه !

وفيما كانت هذه الأحداث تجرى داخل القصر وخارجه ، كانت هناك مؤامرتان خطيرتان تدبران في الخفاء : احداهما لاسقاط المسيو فوكيه وزير المالية ، والاخرى لاسقاط الملك نفسه

وقد تزعم المؤامرة الاولى المسيو « كولبير » وكيل وزارة المالية ، واستطاع أن يحصل على مستندات خطيرة تثبت خيانة الوزير للدولة والملك ، ومن بينها خطاب بخط « مازارين » ــ رئيس الوزارة الراحل يثبت أن فوكيه استحل لنفسه جانبا كبيرا من مال الدولة ، وخطاب آخر بخط فوكيه نفسه يثبت محاولته غزو قلب الآنسة « دى لافاليير » خليلة الملك !. وعرف كولبير كيف يهيىء الفرصة المناسبة لتنفيذ هذه المؤامرة ، فحصل على المستند الرسمي الذى كان الوزير يحتفظ به دليلا على أنه سدد كل المال الذى أشار اليه مازارين في ذلك الخطاب ، وأعان المسيو « فانيل » زوج خليلته على شراء منصب النائب العام للبرلمان من فوكيه لكي يرفع عنه الحصانة البرلمانية . ثم سعى لدى الملك حتى أعرب للوزير عن رغبته في أن يزوره وحاشيته في قصره الريفى تحقيقا لوعد قديم كان قد وعده اياه . وبذلك يضطر الوزير الى تبديد جانب آخر من مال الدولة في اقامة المهرجان اللائق بنزول الملك وحاشيته ضيوفا عليه ، لأن ثروته الخاصة كانت قد نفدت وتراكمت عليه الديون الى حد جعل خليلته الحسناء النبيلة « دى بليير » ترهن جواهرها لتقرضه بعض المال ، وجعل خاصته من الشعراء والفنانين وغيرهم يكتتبون له بمبلغ آخر من المال ليحولوا دون بيعه منصب النائب العام ، لكنه كان قد باع المنصب واسترد بثمنه جواهر خليلته وحليها وأهداها اليها من جديد !

وأخيرا ، ضرب كولبير ضربته القاضية ، حينما لمح على وجه الملك آثار الغيرة من فخامة قصر الوزير وفداحة ما أنفقه فى تنسيق المهرجان ، فاطلعه على الخطابين السالفى الذكر . وسرعان ما اشتد الغضب بالملك ، فلم يستطع الاستمرار فى مشاهدة بقية برنامج المهرجان ، ثم أوى الى الغرفة التى خصصت لمبيته فى قصر الوزير قبل الموعد المحدد لذلك ، بينما عهد الى دارتانيان قائد فرسانه فى ملازمة الوزير المغضوب عليه حتى الصباح تمهيدا لاعتقاله ومحاكمته على التهم المنسوبة اليه !

وفيما كان دارتانيان مرابطا لذلك الغرض فى غرفة نوم الوزير ، كانت المؤامرة الأخرى قد أوشكت أن تتم فصولها من حيث لا يشعران . وقد

تولى أمرها الاسقف « دربلاى » الذى هو رابع الفرسان الاربعة وكان يعرف باسم أراميس . وتفصيل ذلك أن هذا الاسقف الفارس القديم كان رئيسا لجماعة « الجزويت » السرية ، التى ينتمى اليها كثيرون من كبار الموظفين وأعداء الملك فى الداخل والخارج ، وكان يطمع في منصب « البابا » ورياسة الوزارة فى الوقت نفسه . وكان يعلم أن الملكة الوالدة « آن » قد أنجبت مع ابنها « لويس الرابع عشر » توأما سمى بفيليب ، ثم اتفق معها زوجها « لويس الثالث عشر » على اخفاء أمر هذا التوأم تفاديا لما قد يقوم من نزاع على العرش بين التوأمين . وهكذا شب منفيا فى جهة نائية لا يعرف غير مربيته ومعلمه ، ولايدرى شيئا من أمر نسبه . وكانت أمه تزوره متنكرة أحيانا دون أن يعرف شخصها . وبقى الأمر كذلك حتى تولى العرش لويس الرابع عشر ، فزج بالأمير المسكين فى سجن الباستيل باسم «مارشيالى» ، بعد أن اغتال أستاذه ومربيته ليدفن سره معهما الى الأبد . وعلى هذا سعى «أراميس» حتى زار الأمير فى سجنه ، وكشف له حقيقة أمره ، ثم احتال حتى أخرجه من السجن حيث ألبسه ملابس كملابس الملك، ودربه على القيام بدور الملك مستغلا ما بينهما من تشابه تام . واذ كان هو الذى تولى الاشراف على اعداد مهرجان الزيارة الملكية فى قصر صديقه فوكيه فقد استطاع بسهولة أن يمضى فى تنفيذ مؤامرته الخطيرة ، فاختطف الملك من سريره فى غرفة نومه بقصر فوكيه وقاده بمعرفة صديقه « بورتوس » الى سجن الباستيل حيث حل محل السجين «مارشيالى» أو أخيه فيليب، بينما حل هذا محله فى السرير !

ولم يستطع المسيو بيزمو محافظ الباستيل أن يعارض الاسقف الداهية في شيء ، لانه كان عضوا فى جماعة الجزويت التى يرأسها الاسقف ، ولان هذا كان يدينه بدين كبير متعذر الأداء !

ليلة فى الباستيل

ما كاد الملك لويس الرابع عشر يجد نفسه وحده فى الزنزانة التى اغلقت عليه فى سجن الباستيل حتى تضعضعت حواسه وتملكه اليأس والقنوط ، ثم خيل اليه انه انما انتقل الى عالم الأموات ، وأن السرير الذى هبط به فى غرفة نومه بقصر المسيو فوكيه وزير المالية لم يكن الا وسيلة ذلك الانتقال !

وكأنما استراح الملك الى ذلك الخيال ، اذ وجد الموت أكرم له وأهون عليه من أن يكون حيا فقد عرشه وسلطانه الذى لا يحد ، وزج به فى سجن حقيقى يلقى فيه ما لا عهد له به من المذلة والهوان

وبقى هنيهة معلقا بين الوهم والحقيقة ، ثم اخذ يحدث نفسه قائلا : « أهذا ما يسمونه بالعالم الآخر ؟ أهذه جهنم ؟ ! » . ثم أسند ظهره الى الحائط وأغمض عينيه ليوهم نفسه انه مات حقا ، لكنه ما لبث قليلا حتى تساءل فى فزع : « لو أننى مت بسقوط أرض الغرفة بى لكنت الآن اشعر برضوض مؤلمة على الأقل . واذن لعل الخونة المجرمين قد دسوا لى السم فى بعض الوان الطعام او مزجوه بالشمع لأستنشقه ! »

ثم اعترته رجفة من برودة الجو فى الزنزانة ، فقال لنفسه : « لقد رأيت ابى مسجى الجسم على فراش الموت مرتديا ثيابه الملكية ، وكان وجهه الشاحب ينم عن هدوء وسكينة ، كما كانت يداه ممدودتين الى جنبيه بلا حس ولا حركة ، وقد جمدت أعضاؤه جمود الموت . ومع هذا كان يبدو كأنما أكسبه جلال الموت مزيدا من جلال الملك ، وكان يخيل الى انه لا يزال على عرشه ، ولم يفقد مثقال ذرة من مكانته !.. »

وفى هذه اللحظة شعر الملك السجين بحركة غريبة بالقرب منه ، ففتح عينيه واخذ يتطلع حوله مرتاعا . فاذا به يرى فى أحد أركان الحجرة فارا كبيرالحجم وقف يقضم قطعة خبز مقدد ، ويبادله نظرات الدهشة والارتياع !

ولم يسعه الا أن يتراجع نحو الباب وهو يصرخ على غير وعى منه ، وكأنما كان يحتاج الى هذه الصيحة ليستوثق من أنه لا يزال على قيد الحياة وانه سجين حقا ، فعاد يصيح قائلا : « أنا سجين ؟ !.. أجل انا سجين ! »

ثم نظر حوله باحثا عن جرس يدقه ليدعو أحدا اليه ، وما لبث ان قال : « كلا لاتوجد أجراس فى الباستيل !. ولكن كيف سجنت ؟ لا شك ان ذلك نتيجة مؤامرة من المسيو فوكيه . لقد استدرجنى الى قصره فى (فو) لهذا الغرض . ولكن لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك وحده . وانى لأذكر الآن

صوت ذلك الرجل المتنكر الذى جاء بى الى هنا .. انه صوت المسيو دربلاى !. واذن كان كولبير على صواب . لكن ما هو غرض المسيو فوكيه ؟ أيريد أن يجلس على العرش ؟. كلا !. هذا محال !. ومع ذلك من يدرى ؟ »

وسكت هنيهة مفكرا فى الأمر ثم قال لنفسه : « ربما قام أخى دوق اورليان بالدور الذى حاول عمى أن يقوم به فى حياة أبى . ولكن هل أمى ايضا تآمرت ضدى ؟. وما هو موقف دى لافاليير الآن . لا شك أن هنريتا انتقمت منها شر انتقام . يا لتلك الفتاة المسكينة !. أجل لا شك انهم سجنوها كما سجنونى ، وهكذا افترقنا الى الأبد ! »

واخذ يبكى منتحبا بصوت مرتفع ، ولكنه ما لبث قليلا حتى كفكف دمعه وقال منفعلا : « ان لهذا السجن محافظا ، فلماذا لا أدعوه الى وأخاطبه فى الأمر ؟ »

وسرعان ما أخذ يصفق رافعا صوته بالنداء ، فلما لم يجبه أحد تملكه الغيظ وأخذ يدق باب الزنزانة بيديه ثم بالكرسى الذى كان يجلس عليه . وكان الصدى يردد الضجة الشديدة التى أحدثها ، دون أن يجيبه أحد أيضا ، فاستدل بذلك على قلة المكانة التى له فى الباستيل . ولما خفت صورة غضبه التفت الى النافذة ذات القضبان المتشابكة وقد اخذ ضوء الفجر يتسلل منها الى الزنزانة ، فعاوده الأمل فى اجابة ندائه ومضى يصيح بكل قوته ولكن بلا جدوى ، فغلا الدم فى عروقه وصار يرتجف من فرط الغيظ والغضب لاهماله الى هذا الحد الشنيع ، وهو الذى تعود أن يأمر فيطاع !. واخيرا عاد الى الباب السميك المغلق يضربه بالمقعد الثقيل فى عنف ودون هوادة ، الى أن تصبب العرق من جبينه وتحطم المقعد . وهنا سمع أصواتا شتى فجعل ينصت اليها ، لكنها كانت أصوات السجناء الذين كانوا من قبل ضحاياه ، فأصبحوا الآن رفاقه فى السجن ، وكانت تلك الأصوات ترتفع اليه من خلال السقف والجدران السميكة ، وكلها اعتراض على ما أحدث من الضجة . فاستأنف ضرب الباب بقطع الكرسى المحطم ، ولم يكف عن ذلك برغم تعبه الشديد . وبعد حوالى ساعة سمع وقع أقدام فى الردهة ، ثم صوتا وحشيا يصيح به من خلف الباب قائلا :

ـ هل جننت ؟. ماذا دهاك لتصيح هذا الصياح ؟

فصاح الملك من داخل الزنزانة سائلا : « أأنت المحافظ ؟ »

ورد عليه صاحب الصوت قائلا : « لا شك انك فقدت عقلك ، ولكن هذا لا يدعو الى كل هذه الضجة ! »

فكرر الملك سؤاله : « أأنت المحافظ ؟ » . ولكنه لم يسمع جوابا ، وما لبث هنيهة حتى سمع باب الردهة يغلق ، فأدرك أن السجان عاد من حيث أتى من دون أن يعبأ بالرد عليه !

وهنا بلغ غضب الملك اشده ، فأخذ يقفز كالنمر من المنضدة الى النافذة ، ويضرب القضبان الحديدية بأقصى قوته ، وكسر لوح زجاج فسقطت شظاياه

فى فناء السجن ، ثم جعل يصيح بأعلى صوته قائلا : « المحافظ ! المحافظ ! »
وظل على هذه الحال زهاء ساعة حتى نال منه الجهد والغيظ والحنق ، وتدلى شعره فوق جبهته وتمزقت ثيابه ، وخارت قواه ، وعندئذ فقط أدرك مدى سمك جدران السجن وأبوابه ، وأيقن ألا مندوحة عن الاستسلام . فأسند جبينه الى الباب وترك أعصابه تهدأ تدريجا وخفقان قلبه يخف رويدا . ثم قال يحدث نفسه : « عما قريب يأتون الى بالطعام كأى سجين ، وعندئذ سأرى انسانا ما وأحدثه »

وجعل يسائل نفسه عن الموعد الذى يقدم فيه الطعام الى السجناء ولكنه كان يجهل ذلك ، فشعر بتأنيب الضمير اذ مضى فى الملك خمسا وعشرين سنة من دون ان يفكر لحظة فى شقاء أولئك الذين خسروا حريتهم ظلما وعدوانا ، وأحس وجهه يحمر من الخجل ، وأدرك أن الله انما كتب عليه السجن ليذوق عذابه الذى فرضه على الكثيرين . وغمره شعور دينى لكنه لم يجسر على الركوع والصلاة وحدث نفسه قائلا : « ان الله عادل حكيم ، ومن النذالة أن أسأله لنفسى ما أبيت على كثيرين من عباده ! »

وفيما هو فى هذا التفكير سمع صوتا يقترب من الباب ثم صرير مفتاح يوضع فى قفله ، فمال الى الأمام ليرى الشخص القادم ، ولكنه عاد فرأى ذلك غير جدير بمقام الملك فوقف مكانه فى كبرياء وسكون ، وتطلع الى النافذة لكى يخفى أثر انفعاله على القادم . ولم يكن هذا سوى سجان جاء بسلة بها مؤونة ، فنظر اليه الملك بقلق وانتظر حتى بدأ السجان الكلام قائلا : « ما هذا ؟. لقد حطمت كرسيك ! لا بد أنك قد أصابك دخل فى عقلك ! »

فقال له الملك : « كن على حذر فيما تقوله فقد تكون عواقبه وخيمة عليك ! »

فوضع السجان السلة على المنضدة ونظر الى السجين مليا ، ثم قال : « ماذا تقول ؟ »

فقال له الملك بلهجة الأمر : « قل للمحافظ أن يأتى الى فورا ! »

فنظر اليه السجان مشفقا وقال : « مسكين أنت يا ولدى . لقد كنت دائما هادئا عاقلا ، ولكن يبدو أنك بدأت تعمد الى الشر ، ولهذا أحذرك عسى أن ينفع الحذر . لقد حطمت كرسيك وأحدثت شغبا شديدا ، وهذه جريمة يعاقب عليها بالسجن فى زنزانة بالطابق الأرضى . فعدنى ألا تعود الى مثل ذلك ولك على ألا أبلغ المحافظ شيئا من هذا الذى فعلت ! »

فقال الملك وهو لا يزال متمالكا أعصابه : « أريد أن أرى المحافظ ! »

فقال السجان : « ان المحافظ سيأمر بنقلك الى الطابق الأسفل ! »

فحدجه الملك بنظرة قاسية وقال : « انى أصر على رؤية المحافظ ، أسامع أنت ؟ »

فهز الرجل رأسه أسفا وقال : « نعم سمعت ، وها أنذا أرى بريق الهياج فى عينيك مرة أخرى ، ولهذا سأبعد عنك السكين ! »

ثم أخذ السجان السكين وترك الغرفة وأغلق الباب خلفه وأوصده بالمفتاح ، وخلف الملك وقد زادت دهشته وتعاسته ، ورأى أن من العبث أن يحدث ضجة من جديد ، فاكتفى بأن قذف بآنية الطعام من النافذة !

وبعد ساعتين كان من الصعب على أى انسان يراه أن يحسبه ملكا أو سيدا مهذبا أو أى آدمى ، فقد أخذ فى فورة غضبه يحاول أن يمزق الباب بأظافره وأن يحفر أرض زنزانته ، وارتفع صوته فى صيحات أقرب الى أصوات الوحوش منها الى أصوات الآدميين !

ولم يجد السجان داعيا الى ازعاج المحافظ بابلاغه أمر هياج السجين ، ولكن الأمر بلغ اليه من آخرين ، على أنه لم يعره كبير اهتمام ، لأن جنون أحد السجناء كان أمرا مألوفا فى السجن ، ولأن جدران السجن وأبوابه ونوافذه أقوى وأمنع من أن يؤثر فيها أى هياج . هذا الى أن المحافظ لم ينس كلمة قالها له أراميس بشأن هذا السجين المجنون ، فبقى فى جناحه يواصل الراحة من الافراط فى الطعام والشراب ، وكل ما يتمناه أن ينتهى أمر (مرشيالى) أو السجين المجنون ، بأن يقتل نفسه بقوائم سريره أو بأحد قضبان النافذة ، وبذلك يريح ويستريح ، ولاسيما أنه لم يكن مصدر دخل له ، وكان وجوده يضايقه من جميع الوجوه منذ وقوع ذلك الخلط فى أمر الافراج عنه باسم سلدون ثم أعادته الى السجن واطلاق سراح الأخير . وهذا عدا أن الشبه الشديد بين مارشيالى هذا وبين الملك كان وحده يدعو المسيو بيزمو محافظ السجن الى أن يتمنى له الموت !

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي
مع تحيات : MICO MARK
Mico_maher@hotmail.com

زيارة غير منتظرة

كان دارتانيان لا يزال مضطرب الفكر على أثر حديثه مع الملك ، حتى لقد جعل يسائل نفسه : « أفي حلم أنا أم في يقظة ؟٠ وهل صحيح انى فى قصر (فو) ٠ وأن المسيو فوكيه هو صاحب هذا القصر ؟! »

غير أن قائد الفرسان الجاسكونى كان كالعهد به رابط الجأش ، يؤمن بأن سيفه كفيل بابلاغه ما يشاء ، وعلى هذا راح يحدث نفسه وهو يغادر الجناح الملكى فى طريقه الى غرفة المسيو فوكيه قائلا لنفسه: «يبدو أنى سأغدو ذا شأن كبير فى المستقبل ٠ وسيذكر التاريخ أنى قبضت على المسيو نيكولا فوكيه وزير مالية فرنسا فى قصره والملك ينزل فيه ضيفا مع كل حاشيته٠ ولسوف يفخر أحفادى بذلك ٠٠ لكن : كيف أستطيع تنفيذ هـذا الأمر العجيب ؟٠٠ان من السهل أن أذهب الى المسيو فوكيه وأقول له : (سلمنى سيفك يا سيدى !) ٠ ولكن كيف يستطيع انسان أن يضع المسيو فوكيه تحت الحراسة دون أن يدع أحدا يلحظ ذلك ؟ هذه هى المشكلة »

وزاد فى حيرة قائد الفرسان أن ضميره بقى غير مستريح الى قيامه بتنفيذ ذلك الأمر ، فالقبض على المسيو فوكيه انما يعنى هلاكه ، فى حين أنه كان حتى هذه الساعة مضيفا كريما !٠ ولاح له أن يصارح المسيو فوكيه بما يضمره له الملك ، لكنه عدل عن ذلك لانه لا يتفق وواجبه العسكرى

وكان القصر فى تلك الساعة قد هجع كل من فيه ، وأخذ المسيو فوكيه فى خلع ملابسه الخارجية بمساعدة خادمه استعدادا للنوم ، وشد ما كانت دهشته حين فوجىء بظهور المسيو دارتانيان بباب الغرفة فى تلك الساعة المتأخرة ، فهتف به قائلا :

ـ ماذا ؟ المسيو دارتانيان هنا ؟٠ لعلك جئت لكى تنتقد المهرجان ؟ انى أعرف أنك بارع فى النقد !

فدخل المسيو دارتانيان بعد أن انحنى شـاكرا وقال : « ليس لى أى ملاحظة على المهرجان ! »

فقال له الوزير : « هل وجد رجالك العناية الكافية ؟ »

فانحنى مرة أخرى وقال : «لقد كانت العناية بهم تامة من جميع الوجوه»

فابتسم الوزير وسأله متلطفا : «لعلك غير مرتاح الى الغرفة المعدة لك ؟»

فأجاب بقوله : « بل هى غرفة جد مريحة ! »

وهنا ازدادت دهشة الوزير ، لكنه تمالك نفسه وقال : « شـكرا لك يا عزيزى على حسن ميولك وجميل عطفك ! »

ولم يخف على دارتانيان ما وراء عبارة الوزير من دهشة لزيارته له فى هذا الوقت لغير سبب ظاهر ، فى حين أنه فى أشد الحاجة الى الراحة ٠ لكنه تجاهل وقال للوزير : « أتريد أن تنام الآن ؟٠ حسنا يا سيدى !٠٠ انك ولا شك قد أقمت للملك مهرجانا رائعا »

فقال له : « يسرنى أن أسمع هـذه الشهادة منك يا عزيزى المسيو دارتانيان ٠ هل عهد الملك اليك فى أن تقول لى ذلك ؟ »

فقال دارتانيان فى تواضع : « انه ما كان يختار رسـولا قليل المقدرة مثلى ، يا صاحب الفخامة ! »

فرد عليه الوزير قائلا : « انك لا تقدر نفسك التقدير الذى تسـتحقه يا مسيو دارتانيان » ٠ وبدا عليه القلق والتبرم باستمرار الحديث فى غير طائل ، وهنا سأله قائد الفرسان وهو يشير الى السرير الذى بالغـرفة : « أهذا سريرك الذى تنام فيه ٠٠ يبدو أنه مريح ! »

فقال : « أجـل يا عزيزى انه مريح ، وأكبر ظنى أنك غير راض عن سريرك ؟ ولهذا يسرنى أن تأخذ غرفتى هذه »

فقال دارتانيان : « أنا آخذ غرفتك ؟٠ هذا محال يا صاحب الفخامة ! »

وهنا وقف الوزير يتأمل قائد الفرسان بنظراته الفاحصة ثم قال له : « ماذا أستطيع اذن أن أصنعه لأجل راحتك ؟ »

فتردد قليلا ثم قال : « هل لى أن أطمع فى أن تسمح لى بمشاركتك هذه الغرفة ؟ »

فبدا الانزعاج فى وجه الوزير وقال : « انك قادم من عند الملك ٠ أليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا صاحب الفخامة »

فسأله : « وهل كلفك الملك أن تقضى الليلة معى فى غرفتى ؟٠ حسنا يا مسيو دارتانيان ٠ اننى رهن اشارتك ! »

ثم التفت الى خادمه وأمره بالخروج من الغرفة، فلما خرج قال لدارتانيان : « هل لديك شىء تقوله لى ؟٠ ان هذا واضح يا عزيزى ٠٠ أليس كذلك ؟٠ ها أنذا كلى آذان لسماع ما تقول ! »

فقال دارتانيان : « ليس عندى ما أقوله لك يا صـاحب الفخامة ، وكل ما هناك أنى أريد التمتع برفقتك ! »

ففكر الوزير هنيهة ثم قال : « اذن هيا بنا الى الحديقة يا عزيزى ، فالجو هناك أصلح للسهر والسمر ! »

فقال قائد الفرسان : « ان الهواء هنا على ما يرام ! »
فقال المسيو فوكيه : « اذن .. لقد جئت لتقبض على ؟! »
فغمغم دارتانيان قائلا : « ماذا ؟.. هـذا محال يا صاحب الفخامة !. وأقسم بشرفي ما جئت الا لكى أعنى بأمرك ! »
فقال : « تقسم بشرفك ؟! هذا شيء آخر . اذن سيقبض على تحت سقف بيتى ! »
وهنا اقترب منه دارتانيان وهمس اليه قائلا : « أرجـو ألا تقول شيئا من هذا »
فقال الوزير محتدا : « بل سأقوله بأعلى صوتى ! »
فقال دارتانيان فى هدوء : « اذن أضطر فى هذه الحالة الى أن أرجو منك السكوت ! »
فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « حسنا !. أتعنى أنه سيستخدم العنف معى هنا فى بيتى ؟! »
فقال دارتانيان : « يبدو أننا لم يفهم أحدنا الآخر تمام الفهم. انى أرى هناك لوحة شطرنج فهيا بنا نلعب الشطرنج اذا لم يكن لك غرض آخر ! »
فنظر اليه الوزير معاتبا وقال : « لا تحاول أن تقنعنى بغير الحقيقة يا مسيو دارتانيان ، ان مسلكك يكاد يسبب لى الجنون ، لقد كدت أقع من شدة حاجتى الى النوم ، ولكنك أطرت النوم من عينى ! »
فقال دارتانيان : « اذن .. لن أغفر لنفسى ذلك . واذا أردت الراحة لك ولى فهيا اذهب الى سريرك »
فسأله : « أنت تعنى طبعا انى تحت الحراسة ؟ »
وتظاهر دارتانيان بأنه يهم بالخروج وقال : « طابت ليلتك يا صـاحب الفخامة . ها أنذا أغادر غرفتك ما دمت لا تريد أن تصدقنى ! »
وسارع فوكيه الى اللحاق به ثم أمسـكه قائلا : « ما دمت تأبى الا أن تعاملنى كما يعامل الصياد فريسته فانى سأضعك فى مأزق ! »
فابتسم دارتانيان وقال : « ماذا تريد أن تصنع يا صاحب الفخامة ؟ »
فقال : « سآمر باعداد جيادى ، لأعود الآن الى بلريس ! »
وقد أراد فوكيه بذلك أن يسبر غور دارتانيان، فلما قال له هذا : « اذن أذهب معك » . رد عليه قائلا : « فى هذا الكفاية !. انك قد استأهلت عن جدارة ما اشتهرت به من الحذق والذكاء ، ولكن لا حاجة لك باستخدامهما معى ، ولنتكلم فى الموضوع : لماذا تقبض على ؟! »
فقال دارتانيان : « انى لا أفهم شيئا مما تقول يا صـاحب الفخامة ، ولكنى أعود فأؤكد أنى لن أقبض عليك ، ليس فى هذه الليلة على الأقل !»
فامتقع وجه فوكيه وقال : « ليس فى هذه الليلة ؟. اذن ستقبض على غدا ؟! »

فقال : « ان الغد لم يأت بعد يا صـاحب الفخامة . ومن الذى يدرى ما يأتى به الغد ؟ »
فسأله : « ألا أستطيع أن أتحدث مع المسيو دربلاى الآن ؟ »
فأجاب بقوله : « واأسفاه يا صاحب الفخامة . ان هذا محال . ان لدى أوامر مشددة بألا أدعك تتصل بأحد »
فسأله مستنكرا : « حتى ولا بالمسيو دربلاى ، صديقك ؟ »
فأجاب : « ليس المسيو دربلاى وحده هو الذى تمنع من الاتصال به ! »
فاحمر وجه فوكيه من الغيظ وقال : « انك على صواب يا سيدى . لقد لقنتنى درسا كان ينبغى لى ألا أنساه .. ان الرجل اذا سقط لم يبـق له حق حتى عند من كان سبب سعادتهم ، فما بالك بمن ليس له أى فضـل عليهم ! وأيا ما كان الأمر فأنا أعترف بأن مسـلكك كان دائما جـديرا بالاعجاب،وهو المسلك الذى يليق برجل قدر له أن يقبض على . انك أنت على الأقل لم تطلب الى أى يد أسديها اليك ! »
فتأثر دارتانيان بهـذه العبارة التى تنم عن الحزن والنبل وقال له : « يا صاحب الفخامة : انى أطلب اليك جميلا تسديه الى وهو أن تعدنى وعد رجل شريف بألا تغادر هذه الغرفة ! »
فهز الوزير كتفيه وقال : « وما فائدة ذلك يا عزيزى المسيو دارتانيان؟ أتحسبنى سأقاوم أبرع سيف فى المملكة ؟ »
فقال : « انى لا أقصد ذلك يا سيدى ، ولكنى أريد أن أذهب الى المسيو دربلاى ، وأن أتركك وحدك . أين هى غرفته ؟ أليست هى الغرفة الزرقاء؟ أحسب أن الذهاب اليها والعودة منها لن يستغرقا أكثر من عشر دقائق ؟. تضاف اليها خمس دقائق لايقاظ المسيو دربلاى من نومه العميق العادة . وعلى هذا لن أغيب عنك سـوى خمس عشرة دقيقة . والآن عدنى وعدا شريفا بأنى سأجدك هنا حين أعود اليك »
وهنا تنهد الوزير ثم قال : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم لبث واقفا ينظر الى قائد الفرسان حتى غادر الغرفة وأغلق بابهـا وراءه ، ثم سرعان ما أخرج من جيبه بضعة مفاتيح وفتح بها خزائن صغيرة سرية فى بعض قطع الأثاث ، وأخذ يبحث عن أوراق معينة وما لبث قليـلا حتى قال لنفسه : « لعلى تركتها فى (سان ـ مانديه) ، وهـذا من سوء الحظ » . ثم أخرج بضعة خطابات وعقود كانت فى احدى تلك الخزائن . وقذف بها كلها فى النار المشعلة بالمدفأة . وبقى ينظر اليها حتى اطمأن الى احتراقها تماما ثم ارتمى على احدى الارائك بالغرفة وراح يفكر الى أن عاد اليـه دارتانيان فالتفت اليه وسأله : « هل قابلت المسيو دربلاى ؟ »
فقـال وهو ينظر الى المدفأة ويستنشق رائحة الورق المحترق : « حقا يا صاحب الفخامة ، لابد أن يكون المسيو دربلاى شغوفا بالرياضة ليلا ،

فأنا لم أجده فى غرفته • ولعله ينظم الأشعار الآن فى ضوء القمر بالحديقة مع بعض شعرائك الأعزاء ! »

فصاح فوكيه مندهشا : « ماذا تقول ؟ أليس أراميس فى غرفته ؟ »

فقال دارتانيان : « اذا كان فيها فلا شك أن عنده من الاسباب ما جعله لا يجيب ندائى ! »

فقال له الوزير : « لعلك لم تناده بصوت مرتفع »

فابتسم وقال : « أكنت تتوقع يا صاحب الفخامة أنى سأناديه بصوت يوقظ جميع من فى القصر ، فأعطى بذلك فرصة للمسيو كولبير لكى يقول انى تركت لك وقتا تحرق فيه أوراقك ؟! »

وغمغم فوكيه وهو يحملق فيه بدهشة : « ماذا ؟•• أية أوراق تعنى يا سيدى ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « هذا على الأقل ما كنت أفعله لو أننى كنت فى مكانك ! »

فأيقن الوزير أن قائد الفرسان تركه عامدا ليتيح له تلك الفرصة ، ونظر اليه شاكرا وقال : « حسنا يا مسيو دارتانيان • أتظن أن أراميس لم يسمع نداءك ؟ »

فقال : « الواقع أن أراميس اما أن يكون قد غادر غرفته ، واما أنه تعمد ألا يجيب ندائى لسبب أجهله ، ولعلك تجهله أنت أيضا برغم كون أسقف فان من أتباعك ! »

فتنهد فوكيه وقام من مقعده ومشى بالغرفة بضع خطوات، ثم عاد فجلس مكتئبا ، وهنا قال له دارتانيان وهو يرقبه فى أسف وعطف : « لقد رأيت فى حياتى كثيرين يقبض عليهم ، وأرى ألا تكتئب هكذا• تصور أن أصدقاءك يرونك على هذه الحال فماذا يقولون ؟ »

فأجاب فوكيه وهو يبتسم ابتسامة حزينة : « يا مسيو دارتانيان •• انك لا تفهمنى • انى أبدو حزينا لان أصدقائى لا يرونني• انني لا أستطيع أن أعيش بمنأى عن أصدقائى ، وقد مضيت حياتى فى اصطناع الاصدقاء ومساعدتهم ورفعهم • وفى وقت الرخاء كانت أصواتهم بمثابة موسيقى تمتدحنى أنغامها • وكلما مسنى ضر كانت تلك الاصوات تنسجم مع خفقات قلبى ، بل طالما سخروا من شبح الفقر الذى يتهددنى وداعبوه فى أشعارهم • وهذا ما جذبنى اليهم• انى أرضى الفقر وأقبله لأنه غير العزلة وغير النفى أو السجن • وهل ترانى أعد فقيرا ولى من الاصدقاء أمثال الشعراء : بليسون ، ولافونتين ، وموليير ؟• ولى صديقة وفية مثل ••• آه لو علمت ما أشعر به من الوحدة والعزلة فى هذه الساعة ! »

فتأثر دارتانيان وقال له : « لقد قلت لك من قبل : انك تغالى فى تقدير

الأمر ، وصدقنى أن الملك لا يزال يحبك ، برغم أن المسيو كولبير يبغضك ويتمنى لك الخراب ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « الخراب ؟• لقد أصابنى الخراب قبل أن يأتينى به يا سيدى ! »

وبدت الدهشة فى وجه دارتانيان ، وأخذ يتأمل فيما حواليه فى الغرفة، فأدرك فوكيه ما يدور بخاطره وقال له : « لعلك تقول فى نفسك : « ان قصر (فو) هذا يساوى وحده ثروة كبيرة » • والواقع أنه كذلك ، ولكنى لن أستطيع بيعه يا عزيزى ، لأنه لا يوجد فى فرنسا من يشتريه حتى بعشر ما كلفنى تشييده وتأثيثه • كما أننى لا يمكن أن أبيعه ، ولكنى أهبك اياه اذا شئت ! »

فقال دارتانيان : «تهبه لى أنا ؟•• بل قدمه هدية للملك ، فذلك خيرلك»

فابتسم الوزير وقال : « ان الملك لن يحتاج الى أن أهديه اليه ، لأنه يستطيع أن يستولى عليه متى راقه ذلك ، ولهذا أوثر أن أرى القصر يتهدم• أتدرى يا مسيو دارتانيان انه لو لم يكن الملك فى بيتى الآن لكنت آخذ هذا الشمعدان وأشعل به صندوقين مملوءين بالألعاب النارية محفوظين بالمخزن هناك لكى أحيل هذا القصر الى رماد ؟! »

فقال دارتانيان فى هدوء : « على أى حال ، ما كنت تستطيع أن تحرق الحدائق وهى أجمل ما فى القصر ! »

ثم عاد فوكيه يقول : « ومع هذا ما أظن أنى كنت أستطيع حرق قصر فو هذا أو تدميره !•انه ليس ملكا لى الا من حيث الاستمتاع به لقاء ما أنفقت فى تشييده • أما من حيث الخلود فهو ملك لمن صنعته أيديهم من كبار المهندسين والفنانين أمثال : لبرون ولنوتر وبليسون وليفان ولافونتين وموليير • ان فو ملك للاجيال القادمة يا مسيو دارتانيان وليس ملكا لى ! »

فقال له دارتانيان : « هذه فكرة جميلة جديرة بالمسيو فوكيه ، ولا شك أنك أنت أيضا ملك للأجيال القادمة ، وعلى هذا لا حق لك فى أن تقلل من قيمتك ، وعليك أن تتلقى كل ما تجىء به الظروف بما هو جدير بك ، هناك مثل لاتينى يقول : (ان الخاتمة تتوج العمل) • وأنا كجندى يسرنى أن أعمل بهذا المثل ، وأن أحرص حين أسقط على أن أسقط واقفا ! »

وهنا قام فوكيه من مقعده وعانق دارتانيان باحدى ذراعيه وضغط يده باليد الاخرى ثم قال له : « هذه موعظة حسنة يا مسيو دارتانيان ، ولابد أن لى مكانة عندك »

فقال دارتانيان : « انها موعظة جندى ، أما مكانتك عندى فهى فوق كل ما تظن ! »

ففكر فوكيه هنيهة ثم قال له : « أين يمكن أن يوجد المسيو دربلاى ؟• هل لى أن أرجو منك أن تبعث فى طلبه ؟ »

فقال : « انك لن ترجو منى ذلك لأنى لن أفعله حتى لا يعلم به أحد ،

وقد يكون فى ذلك احـــراج لأراميس ، ان لم يدخله فى نكبتك مع أنه لا شأن له بها ! »

فقال فوكيه : « اذن أنتظر حتى يطلع النهار ؟ »

فأومأ موافقا وقال : « هذا هو الأفضل ، وانى على استعداد لتنفيذ كل ما تأمر به »

فقال الوزير : « شكرا لك يامسيو دارتانيان ، اننى لا أريد الا أن تكون صريحا معى ، فتخبرنى بما أمر به الملك فى شأنى »

فتردد قائد الفرسان قليلا ثم قال : « ان موقفك صعب يا سيدى ، من حيث انك تحت سقف بيتك . وثق على كل حال بأنى لا أكن لك الا كل الاحترام والتقدير . ولولا هذا ما كان أسهل على من أن آتى الى غرفتك هذه بعد انصراف أصدقائك ، أو بعد القبض عليهم حين يخرجون واحـــدا اثر واحـــد ، ثم أفاجئك وأضع يدى عليك وأحجزك حتى يتناول الملك طعام فطوره فى الصباح ، وفى هذه الحالة أكون أيضا قد تفاديت كل ضجة ممكنة . ولكن فى هذه الحالة لا يكون هناك تحذير للمسيو فوكيه ولا مراعاة لشعوره . وما أحسب أنك ترضى عن مثل هذه الخطة »

فقال له الوزير : « حقا .. انها تجعلنى أرتجف ! . ولو أن ذلك حدث لكان فيه الموت المحقق لى تأثرا بالحزى والعار ، ولهذا أكرر لك شكرى »

فقال دارتانيان : « انك نبيل حتى فى عرفانك بالجميـــل ، على أنى فى الواقع لم أفعل ما يستحق ... »

فقطع كلامه قائلا : « بل الشكر كله لا يفى بحقك يا مسيو دارتانيان ! »

فقال : « حسنا يا صاحب الفخامة .. وما دمت راضيا عن موقفى ، وقد استعدت رباطة جاشك بعد الصدمة التى هيأتك لها قدر امكانى ، فلنمض الساعات القليلة الباقية فى هدوء . انك متعب وتحتاج الى ترتيب أفكارك ، ولهذا أرجو منك أن تأوى الى سريرك لكى تنام أو تتظاهر بالنوم . أما أنا فسأنام على هـــذا الكرسى ذى الذراعين ، ومتى نمت فلن يوقظنى قصف المدافع ! »

فابتسم فوكيه ، بينما استطرد دارتانيان قائلا : « عـلى أننى يوقظنى مثلا فتح باب سرى ، أو خروج أحد من الغرفة أو دخول أحد فيها .. واذن تستطيع يا سيدى أن تتحرك فى الغرفة كما تشـــاء ، وأن تكتب أو تمحو ما هو مكتوب »

فقال الوزير : « انك ولا ريب أكثر الناس ذكاء ومجاملة . ولست آسفا على شىء الا على أنى لم أعرفك على حقيقتك الا بعد فوات الوقت ! »

فتنهد دارتانيان أسفا ثم جلس على كرسيه بينما تمدد فوكيه على سريره وأخذ يفكر فى حالته . وبقيا هكذا حتى طلع الفجر . ولم يكن هنـــاك أى صوت يعكر سكون القصر ، أما فى خارجه فكان حراس الشرف والديدبانات يؤدون واجبهم رائحين غادين !

وفاء وزير

بينما كان الملك لويس الرابع عشر يحاول أن يحطم قضبان النـــافذة فى زنزانته فى سجن الباستيل ، كان فيليب شقيقه التوأم الذى غادر هـــذه الزنزانة نفسها منذ أيام قد استقر على السرير الوثير الذى أعد لنوم الملك فى قصر المسيو فوكيه ، وما لبث قليلا حتى هبط منه ووقف بجانبه يتأمل فى غبطة ما يحيط به من مظاهر البذخ والترف ، وأخذ يفكر فى الدور الذى عليه أن يمثله

وامتقع وجهه حين وقعت عينه فوق السرير على منديل كان أخوه الملك السجين قد تركه فوقه حين هبط به الى القبـــو ، وقال فيليب يحـــدث نفسه : « اننى الآن أواجه المستقبل المقدر لى . وشدما أخشى أن يكون شرا من الأسر الذى كنت فيه ، لأن هذه السلطة التى اغتصبتها بدأت تزعج ضميرى »

وتردد حينا فى أن يعود الى السرير ، أو يمسك بالمنديل الذى عليه شعار أخيه ، لكنه ما لبث أن قال لنفسه : « لماذا لا أقتدى بالمسيو دربلاى الذى لا يفكر الا فى نفسه ولنفسه ويحسب نفسه رجلا شريفا ما دام لا يضر غير أعدائه وحدهم ؟ . ان هذه السلطة التى آلت الى كان ينبغى أن تكون لى منذ سنين لولا أن وقف أخى فى طريقى وساعدته أمى بلا شفقة ولا رحمة ، وهذا المنديل الموشى بشعار فرنسا ما كان لويس يستأثر به لو أننى تركت بالمهد ولم أذهب ضحية تلك المؤامرة الدنيئة ! »

وهكذا عاد فيليب الى السرير فتمدد فيه ، متأملا فى اعجاب تاج فرنسا المعلق فوقه تحمله ملائكة بأجنحة من ذهب . على أن الانسان الذى يتوق الى أن ينام فى عرين الأسد ، لا يكون فى مقدوره غالبا أن ينام فيه نوما هادئا .. وهكذا بقى فيليب يقظان يصغى الى كل صوت ، وقلبه يخفق من توقع أى خطر . غير أنه كان واثقا من قوة ارادته التى تؤيدها عزيمة أقوى ، ولما اقترب الصبح ، لم يدهشه أن ظهر أراميس فجأة أمامه فى الغرفة فقـــد كان يرتقب حضوره ، وسرعان ما هتف قائلا : « عم صـــباحا يا مسيو دربلاى »

فقال أراميس : « عم صباحا يا مولاى ، لقد تم كل شىء كما نريد ! »

فسأله : « الم يبد أية مقاومة ؟ » . فأجاب بقوله : « لم يقاوم الا بالدموع والتوسلات ثم استسلم فى ذهول ! »

فقال الأمير : « ومحافظ الباستيل ؟.. الم يبد اى ارتياب ؟ » . فقال ارامبس : « كلا ! وقد اتخذت الاهبة لكل أمر . وبعد بضعة ايام ، أو ربما اقرب من ذلك ، سنخرج السجين من سجنه ونرسله الى مكان منعزل فى الريف ، لن يعود منه مدى الحياة ! »

وعندئذ نظر كل منهما الى الآخر نظرات ذات معنى ، ثم اراد فيليب أن يغير موضوع الحديث فقال : « والمسيو دى فالون ؟ »

فقال ارامبس : « سيتشرف اليوم بمقابلة جلالتك ليهنئك على نجاتك من الخطر الذى واجهك به ذلك المتآمر !.. وحينئذ تمنحه جلالتك الدوقية التى يحلم بها ، وبذلك لا يلبث قليلا حتى يقتله فرط الفرح ، فافقد بذلك زميلا قديما وصديقا حميما ، وفى الوقت نفسه يدفن معه السر الذى وقف عليه ! »

وكان الفجر قد انبثق فقال ارامبس : « ان جلالتك قبل ان تأوى الى فراشك قررت أن تفعل شيئا عند طلوع الفجر »

فقال فيليب : « نعم يا عزيزى ، لقد أمرت قائد الفرسان أن يوافينى عند طلوع الفجر . وها أنذا أسمع وقع خطاه فى الردهة . انه محافظ على المواعيد حقا ، وسنبدأ العمل الآن »

فقال له ارامبس : « ان دارتانيان لا يعرف شيئا ولم ير شيئا ، ولذلك لا يداخله اى ارتياب فيما حدث . ولكنه اذا كان اول انسان يدخل هذه الغرفة فى هذا الصباح فانه لا بد سيشتبه فى شىء ما فيشغل نفسه به . وقبل ان نسمح لدارتانيان بدخول هذه الغرفة يجب أن نجدد هواءها تماما أو نسمح بدخول عدة اشخاص فيها حتى تختلط الرائحة على أدق أنف فى المملكة ! »

فسأله فيليب : « لكن كيف ابعده مع أنى أمرته بالمجىء عند الفجر ؟ »

فقال ارامبس : « ساتولى هذا الأمر وسأبدأ بضربة تذهله ! »

وكان دارتانيان قد وصل الى الباب ونقر عليه معلنا قدومه ، بعد أن ترك المسيو فوكيه فى غرفته ينتظر عودته اليه بما يأمر الملك فى شأنه ، كما ينتظر أن يبعث اليه بأرامبس اذا وجده فى طريقه الى جناح الملك ، بعد أن تعهد الوزير بألا يحاول الفرار

ولم يدهش دارتانيان حين فتح باب غرفة الملك عقب نقراته الخفيفة ، فقد كان على يقين من أن الملك لن يستطيع النوم نظرا الى حالة الهياج التى تركه فيها أمس . ولكنه ما كاد يهم بالتحية العسكرية للملك عقب فتح الباب ، حتى فوجىء بأن الذى فتحه ليس هو الملك ، ولكنه ارامبس بقامته المديدة وملامحه الهادئة . فصاح قائلا : « أرامبس ؟ !.. اكنت هنا اذن ؟ »

فرد عليه الأسقف قائلا فى برود : « عم صباحا يا عزيزى دارتانيان . ان

صاحب الجلالة يرغب اليك أن تعلن انه لا يزال نائما بعد أن تعب الليلة الماضية »

ولم يستطع قائد الفرسان أن يفهم سر وجود ارامبس فى غرفة الملك ، ولاسيما انه لم يكن من المقربين اليه

واستطرد ارامبس فقال : « أرجو يا كابتن ألا تدع أحدا يدخل عند الملك فى هذا اليوم ، الا من حدد له موعد للمقابلة »

فقال دارتانيان : « يا سيدى الأسقف ، ان جلالة الملك حدد لى موعدا هذا الصباح »

وفى هذه اللحظة نفسها سمع دارتانيان صوتا ينبعث من داخل الغرفة قائلا : « فيما بعد يا مسيو دارتانيان ! » . فلم يشك فى انه صوت الملك لشدة التشابه بين صوت الملك وصوت شقيقه التوام . وهكذا لم يسع دارتانيان الا أن انحنى وهم بالانصراف وهو ما زال فى دهشة . ثم قال له ارامبس وهو يبتسم : « أما جواب ما جئت تسأل الملك عنه فاليك يا عزيزى دارتانيان أمرا من صاحب الجلالة أرجو العناية بتنفيذه لأنه يتعلق بالمسيو فوكيه ! »

فتناول دارتانيان الأمر وقراه وما لبث أن تمتم قائلا : « يفرج عنه ؟ ! »

وحدث دارتانيان نفسه قائلا : « هذا هو سبب وجود ارامبس عند الملك ، ترى كيف اكتسب هذه الحظوة الكبيرة عنده ، حتى أغراه بالافراج عن المسيو فوكيه ، بل حتى صار واسطة لابلاغ أوامر الملك ؟ »

وانحنى دارتانيان تحية لأرامبس ، ثم هم بالانصراف ولكن ارامبس قال له :

ـ انتظر يا عزيزى ، سآتى معك الى المسيو فوكيه ، فانى أريد أن أكون شاهدا على سروره !

وهنا قال له دارتانيان : « آه يا ارامبس ! شدما حيرتنى ! »

فابتسم هذا وقال له : « والآن أحسبك تفهمنى ؟.. »

فقال : « بالطبع افهمك كل الفهم ! » . ثم قال لنفسه : « كلا ! لم افهم شيئا بعد ، ولكن على اى حال ها هو ذا أمر الافراج عن المسيو فوكيه » . ثم سار مع ارامبس الى الغرفة التى حجز بها الوزير . وكان هذا ينتظر فى قلق ، وقد تخلص من خدمه وأصدقائه الذين كانوا يعرفون ساعة الاستقبال عنده فجاءوا لتحيته والاطمئنان على صحته . وقد كتم عنهم المركز الذى هو فيه والخطر الذى يهدده ، وانما صار يسأل كل واحد منهم من خلف الباب : « أين ارامبس ؟ » . ولما رأى دارتانيان يعود اليه ، ومن ورائه ارامبس ، لم يستطع أن يخفى سروره برؤية صديقه الأسقف ، وكأنما وجد فيها عوضا عما قاساه منذ الليلة الماضية . وكان ارامبس ساكتا

جاد الهيئة فقال فوكيه لدارتانيان : « ها قد أحضرت معك المسيو دربلاى ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحضرت معى شيئا ادعى الى السرور يا صاحب الفخامة ! »

فسأله فى لهفة : « ماذا أحضرت ؟ » . فأجاب : « الحرية ، وبأمر من الملك ! »

فاستعاد فوكيه سمت الرزانة ، ونظر الى أراميس نظرة تساؤل فقال له دارتانيان : « أجل يا صاحب الفخامة ، ان الفضل فى ذلك لأسقف فان ، فهو الذى استطاع أن يغير راى الملك ! »

فشعر فوكيه بالمهانة لهذا الفضل أكثر من شعوره بعرفان الجميل ، ولم يقل شيئا

ثم قال دارتانيان لأراميس : « ألا تؤدى لى خدمة يا صديقى القديم ؟ »

فقال أراميس : « أى شىء تريده يا صديقى ؟ »

قال : « أريد شيئا واحدا فقط ، هو أن تخبرنى كيف استطعت أن تكسب الحظوة عند الملك ، أنت الذى لم تحدثه طول حياتك سوى مرتين ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لست أستطيع أن أخفى شيئا على صديق مثلك . انك تظن أنى لم أقابل الملك الا مرتين ، ولكن الحقيقة اننى قابلته أكثر من مائة مرة غير أننا كتمنا نبأ هذه المقابلات عن الجميع ، وهذا كل ما فى الأمر ! »

ثم التفت أراميس الى فوكيه ، وكان لا يقل دهشة عن دارتانيان ، وقال له : « يا صاحب الفخامة . . ان الملك طلب الى ان أخبرك أن مودته لك أشد منها فى أى وقت مضى ، وان المهرجان الجميل الذى أعددته له بهذا السخاء قد اثر فى نفسه تأثيرا عميقا »

وشعر دارتانيان بأن الوزير والأسقف يريدان أن يتحدثا على انفراد ، فهم بالانصراف غير أن فضوله تغلب على أدبه ولطفه فظل فى مكانه ، وعندئذ التفت اليه أراميس وقال له بصوت هادىء : « أرجو يا صديقى ألا تنسى أمر الملك بشأن من يريد استقبالهم صباح اليوم حين يصحو من نومه »

وكانت هذه الكلمات واضحة المعنى فانحنى دارتانيان محييا المسيو فوكيه ثم أراميس وخرج من الغرفة وحينئذ أسرع فوكيه فأوصد الباب ، ثم عاد الى الأسقف وقال له : « يا عزيزى دربلاى ، أحسب أنه قد حان الوقت لكى تشرح لى ما حدث ، لأنى فى الحق لم أفهم شيئا »

فجلس أراميس وقال له : « سأوضح لك كل شىء . لكن ألا تخبرنى أولا : لماذا أمر الملك بالقبض عليك ؟ »

فقال الوزير : « أعتقد أن الغيرة هى السبب ، فان نجاح المهرجان أفقد

كولبير عقله فيما يظهر ، فأمعن فى الدس والوشاية ، ولعله استغل (بيل ــ ايل) ليغضب على الملك »

فابتسم أراميس وقال : « ان (بيل ــ ايل) لا شأن لها بهذا الموضوع ، هل تذكر الأوراق التى فقدتها وكانت خاصة بالملايين الثلاثة عشر التى سددتها لرئيس الوزراء الراحل مازارين ؟. ان كولبير اتهمك باختلاس هذه الملايين من أموال الدولة ! »

فتمتم الوزير قائلا : « رباه ! » . بينما واصل أراميس كلامه قائلا : « ليس هذا كل ما فى الأمر !. هل تذكر أيضا الخطاب الذى كتبته الى الآنسة دى لافاليير ؟ »

فقال الوزير منزعجا : « ماذا ؟. هل وقع هذا الخطاب فى يد كولبير ؟ »

فقال أراميس : « وأعطاه للملك أمس ليثبت له أنك خنته هو نفسه بمحاولة اغواء خليلته ! »

فعض فوكيه على شفتيه من الغيظ وقال : « اذن كيف عفا الملك عنى بعد هذا كله ؟ ! »

قال : « لم نصل بعد الى هذه النقطة . . ان الملك قد علم أنك اختلست أموالا عامة . ولم ير المستندات التى تنفى وقوع هذا الاختلاس . كما أنه قرأ الخطاب الذى كتبته الى دى لافاليير فلم يبق له شك فى صحة كل ما بلغه عنك ، وهكذا ترى الى أى حد بلغ غضبه عليك ! »

فقال فوكيه : « هذا مفهوم ، ولكن ما الذى جعل الملك يحجم عن البطش بى برغم ذلك كله ؟ »

فقال أراميس فى هدوء : « ان الملك لم يحجم عن البطش بك ! »

فسأله متعجبا : « كيف ؟. . أليس قد صفح عنى ؟ وهو الذى كلفك ان تقول لى ما قلته ؟ »

فسكت أراميس قليلا ثم قال : « الواقع يا عزيزى ان الملك لم يكلفنى أن أقول لك أى شىء ! »

فبدا الانزعاج فى وجه الوزير وقال له : « انك تقتلنى بهذه الألغاز يا دربلاى . . وانى أستحلفك بصداقتنا وبالحلف الذى بيننا ، وبكل ما هو عزيز عليك فى العالم ، أن تخبرنى فى صراحة كيف استطعت أن تجعل لويس الرابع عشر يصفح عنى ؟. انى أعرف أن الملك لم يكن يميل اليك ، وصحيح انك رجل ذو ذكاء خارق ، ولكن هناك سرا ولا شك فى هذه المسألة ، فهل لك أن توضح لى هذا السر ؟ »

فسكت أراميس لحظة ليجمع شتات فكره ثم قال : « أتذكر ميلاد لويس الرابع عشر ؟ أعنى ألم تسمع بشىء معين عن ميلاده ؟ »

فقال فوكيه : « أتقصد أنه لم يكن حقا ابن لويس الثالث عشر ؟ »

فقال أراميس : « هذا لا يهمنا ولا يهم المملكة . انه ابن أبيه كما يقول

القانون الفرنسى ، ولكنى أقصد هل سمعت شيئا غريبا بشأن ميلاده ؟ »

فسكت الوزير وبقى ينظر حائرا الى أراميس ، وواصل هذا كلامه فقال : فقال :

ـ من هنا يبدأ السر الذى أكتمه . ان الملكة لم تلد طفلا واحدا بل وضعت توأمين !

فقال فوكيه : « أعرف هذا ، وقد مات التوأم الثانى »

فقال أراميس : « كلا !. كل ما هناك أن لويس الثالث عشر خشى لضعفه وتعلقه بالخرافات أن يقوم نزاع بين الأخوين التوأمين لتساوى حقهما فى وراثة العرش ، ولذا أزاح أحد التوأمين من الطريق وألغى وجوده ، فجلس أخوه على العرش وحده وكتمانت وزيره بينما بقى الآخر ـ وهو صديقى ـ مغمورا فى عزلة عن العالم ، اذ نشأ فى الريف ثم زج به فى قلعة الباستيل ! »

فصاح الوزير قائلا : « أهذا ممكن ؟ » . ومضى أراميس فى كلامه قائلا : « نعم يا عزيزى فوكيه . . ان أحد التوأمين كان أسعد الناس ، وكان الآخر أشقاهم وأتعسهم ، ولكن العناية الالاهية تداركته أخيرا ! »

فاشتد اهتمام فوكيه وسأله : « كيف كان ذلك ؟. ان هذا لأمر عجيب حقا أيها العزيز ! »

فقال أراميس : « أنت توافقنى طبعا على أن وراثة العرش كانت حقا ثابتا للتوأمين معا لأنهما بمثابة شخص واحد فى جسدين ، وقد حرم أحدهما من حقه هذا ظلما وعدوانا ، ثم شاء الله فبعث لهذا المظلوم نصيرا يرد اليه حقه المغتصب . واحسبك تقرنى على أن من الاغتصاب أن يستحوذ انسان على حق كامل فى الميراث مع أن له نصف هذا الحق فقط ؟ »

فقال فوكيه : « أجل انه اغتصاب لا شك فيه ، فامض فى حديثك »

فقال أراميس : « فى هذه الحالة أستمر فى كلامى . لقد شاءت ارادة الله أن يكون لذلك الغاصب وزير أول ذو كفاية عالية وطبيعة سمحة »

فقال فوكيه : « حسنا !. . لقد اعتمدت على اذن لكى أصلح الظلم الذى وقع على ذلك الأمير البائس الشقيق التوأم للملك لويس الرابع عشر ؟ »

فقال له أراميس : « كلا . ليس الأمر كما تظن : ان الملك الغاصب غضب على وزيره الاول فجأة فصار هذا مهددا بالخراب وبفقد حريته وربما بفقد حياته نفسها ، كل ذلك من جراء دسائس ووشايات استمع لها الملك . ولكن شاء الله أن يكون للمسيو فوكيه صديق مطلع على ذلك السر الخطير ، وأن يكون لذلك الصديق من القوة والشجاعة ما جعله يبوح بذلك السر بعد أن كتمه فى مكنون صدره عشرين عاما ! »

فقال فوكيه : « اننى أفهمك الآن . لقد ذهبت الى المليك حين علمت بنبأ القبض على ، فلما رفض الافراج عنى هددته بذلك السر وأنذرته بأن تفشيه، وبذلك قبل تحت تأثير الخوف ما أباه بدافع المروءة . أليس الامر كذلك ؟ ! »

فقال أراميس : « انك لم تفهم شيئا بعد ، لأنك تغفل أهم نقطة ارتكزت عليها فى بدء حديثى !. . ولو أنك كنت منطقيا فى تفكيرك الآن لأدركت أن افشاء هذا السر للملك لا يمكن أن تكون نتيجته أقل من قتل مفشيه أو الزج به فى السجن الى الأبد ! »

وكان الأسقف يتكلم بمثل الحماسة التى كانت له حين كان أحد الفرسان الأربعة المشهورين ، فأحس فوكيه رعدة بالرغم منه . ثم استطرد أراميس فقال : « ما كان لى أن أعرض نفسى لهذه النتيجة ، وهل تظن أن الملك الذى ابغضك وقرر الانتقام منك لأنك فيما يعتقد اختلست أمواله أو كتبت الى المرأة التى يحبها ، لن يكون أقل غضبا وانتقاما ممن يهدد تاجه وشرفه ! »

فقال له فوكيه : « اذن أنت لم تكشف للملك عن ذلك السر ؟. . ماذا فعلت اذن ؟ »

فقال أراميس : « حسنا !. . لقد وصلنا الى بيت القصيد يا صاحب الفخامة » . ثم أدار عينيه فى الغرفة ليستوثق من أنه وحده مع الوزير فلما اطمأن الى ذلك جلس بجانبه واستأنف كلامه قائلا :

ـ نسيت أن أخبرك بشىء عجيب عن لويس الرابع عشر وأخيه التوأم . . ان الخالق جعلهما متشابهين الى حد يعجز معه أى انسان عن تمييز أحدهما من الآخر . ولعل أمهما نفسها لا تستطيع ذلك ! أجل يا عزيزى فوكيه . ان لكل منهما مثل ملامح وجه الآخر وقامته وصوته !

فتمتم فوكيه قائلا : « ولكن أفكارهما وحظ كل منهما من الذكاء ؟ ومعرفتهما بالحياة البشرية ؟ »

فقال أراميس : « أعتقد يا صاحب الفخامة أن سجين الباستيل البائس المظلوم يكون أنبل وأذكى من تولوا ملك فرنسا منذ بدء تاريخها ! »

فأخفى فوكيه وجهه براحتيه ، بينما اقترب منه أراميس وقال له : « هناك شىء آخر لم يتشابها فيه . شىء يخصك أنت يا عزيزى فوكيه !. ان ذلك الآخر السجين لا يعرف المسيو كولبير ! »

فرفع فوكيه رأسه بغتة وقال له : « انى أفهم ما ترمى اليه . انك تعرض احدى تلك المحاولات التى قد تغير مصائر الممالك ؟ ! »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « ومصير وزير المالية كذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال فوكيه : « فلنختصر يا أراميس . . انك تعرض على الموافقة على استبدال ابن لويس الثالث عشر الذى هو الآن سجين الباستيل بابنه الآخر الذى ينام الآن فى غرفة مورفيوس اله النوم والأحلام . فهل فكرت فى أننا للوصول الى هذه الغاية ينبغى لنا أن نجمع النبلاء والقساوسة وممثلى الشعب ، وفى أننا اذ نخلع الملك الحاكم نثير فضيحة تزعج الملك الراقد فى

قبره ونضحى حياة الملكة آن وشرفهـا ، وحيـاة امرأة أخرى هى ماريا تيريزا ؟ »

فقال أراميس بتؤدة : « لست أجد فى كل ما قلته كلمة واحدة ذات فائدة »

فدهش الوزير وقال : « ماذا تقول ؟ . أرجل مثلك يأبى أن يرى النواحى العملية فى هذا الأمر الجلل ؟. أينحصر تفكيرك فى سرور كسرور الاطفـال ببعثه فى نفسك وهم سياسى ، وتغفـل عن التفكير فى امكان تنفيـذه أو استحالته ؟. اتغفل عن الحقيقة والواقع ؟ »

فقال له أراميس : « يا صديقى العزيز .. ماذا تفعل العناية الالهية لابدال ملك بآخر ؟ »

قال : « انها تبعث أداتها لقبض روح فريستها ثم تجلس الملك الآخر على العرش الذى خلا من صاحبه . اليس الأمر كذلك ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لا مجال لذلك يا صاحب الفخامة . انك تخرج عن الموضوع . من ذا الذى ذكر موت لويس الرابع عشر ؟ أو تحدث عن الاقتداء بالعناية الالهية فى تنفيذ أوامرها ؟. كلا !. انى أريد منك ان تفهم أن الله يحقق مشيئته دون خلل أو اضطراب ، ودون اثارة أى تعليق أو أية ملاحظة ودون مشقة أو اجهاد ، وأن تدرك أيضـا أن النـاس الذين أوتوا الهاما ربانيا ينجحون كما تنجح العناية الالهية فى كل ما يحاولونه وما يباشرونه ! »

فسأله فوكيه : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « أعنى يا صديقى انه اذا كان هناك أى خلل أو اضطراب أو فضيحة بل أى مجهود فى استبدال السجين بالملك فانى اتحداك ان تبرهن عليه ! »

فشحب وجه فوكيه حتى صار كوجوه الأموات وصاح فى دهشة : « ماذا تقول ؟ ! »

فقال له أراميس فى هدوء : « اذهب الى جناح الملك ـ أنت الذى تعرف السر الآن ـ وأتحداك أن تلحظ أن سجين الباستيل هو النائم الآن فى سرير أخيه ! »

فتمتم فوكيه وقد تولاه الفزع الأكبر : « ماذا ؟. وأين الملك ؟ ! »

فأجاب أراميس بأرق لهجة : « أى ملك ؟. الملك الذى يبغضك أم الملك الذى يحبك ؟. ان ملك الأمس قد ذهب ليحتل مكان أخيه بالباستيل ! »

فصاح فوكيه فى جزع : « رباه !. ومن الذى أخذه الى هناك ؟ »

فقال أراميس هادئا : « أنا الذى توليت هذه المهمة ، وقد نقلته بأبسط طريقة الى الباستيل ليلة أمس ، وبينما كان يهبط الى الظلام كان الآخر يرتفع الى النور . وما أحسب أنه حـدث أى اضطراب من جراء هـذه الطريقة . ان وميض البرق الذى لا يصحبه رعد لا يوقظ أحدا ! »

فصاح فوكيه كأنما تلقى ضربة قاتلة وقال : « أنت فعلت هذا ؟ ! »

ـ أجل وببراعة تامة . ما رأيك فى ذلك ؟

ـ أنت أنزلت الملك عن عرشه ؟ وسجنته أيضا ؟!

ـ أجل لقد تم ذلك !

ـ ومثل هذا العمل قد ارتكب هنا فى فو ؟.. فى بيتى ؟!

ـ أجل هنا فى فو .. فى غرفة مورفيوس اله النوم ، لكأنما شـيدت خصيصا توقعا لهذا العمل !

ـ ومتى حدث ذلك ؟

ـ بين الساعة الثانية عشرة والساعة الاولى صباحا !

فأتى فوكيه بحركة كأنه يريد أن ينقض على أراميس ولكنه تمالك نفسه وقال بصوت مخنوق : « هنا فى فو ؟! وتحت سقف بيتى ؟! »

ـ أعتقد ذلك ، لأنه لا يزال بيتك وأحسبه سيظل بيتك أيضا .. لان المسيو كولبير لن يستطيع أن يسلبك اياه الآن !

فصاح فوكيه : « أتحت سقف بيتى ارتكبت هذه الجريمة ؟ »

فقال أراميس بذهول : « الجريمة ؟!.. أتسمى ذلك جريمة ؟ »

فاستمر الوزير فى كلامه قائلا : « أجل هذه الجريمة الشنعاء !. هـذه الجريمة الممقوتة التى تجاوز الاغتيال فى بشاعتها . هذه الجريمة التى تصم اسمى بالعار الى الأبد وتجر على لعنة الاجيال القادمة ! »

فقال له أراميس مترددا : « انك لست فى وعيك يا سيدى . انك تتكلم بصوت مرتفع . احذر ! »

فقال فوكيه : « بل سأصيح بأعلى صوتى حتى يسمعنى العالم كله !. لقد لوثت شرفى اذ ارتكبت هذه الخيانة الدنيئة ، وأتيت هذا الجرم الشائن ، نحو ضيف كان ينام هادئا مطمئنا فى بيتى . آه . الويل لى ! »

ـ بل الويل للرجل الذى أراد لك الخراب وربما الموت نفسه وهو تحت سقف بيتك . هل نسيت ذلك ؟

ـ لقد كان ضيفى . وكان مليكى !

فقام أراميس وقد احمرت عيناه وارتعشت شفتاه وقال له : « هل أنا أحدث رجلا مالكا قواه العقلية ؟ »

فقال له فوكيه : « انك تحدث رجلا شريفا . رجلا لا يمكن الا أن يحول بينك وبين الاستمرار فى هذه الجريمة ! »

وحاول أراميس أن يسـكته قائلا : « انك مجنون اذ ترفع صـوتك هكذا !. » . ولكن الوزير استمر قائلا وقد اشتدت حدته : « نعم انك تحدث رجلا يؤثر أن يموت أو يقتلك على أن يدعك تكمل هـذا العار الذى جلبته عليه ! »

واستل فوكيه سيفه الذى كان دارتانيان قد وضعه عند رأس سريره وأمسكه بيده فى حزم · فقطب أراميس ومد يده الى صدره كأنما يبحث عن سلاح · ولم تفت فوكيه هذه الحركة وهو الذى يفيض نبلا وكبرياء فقذف بسيفه بعيدا واقترب من أراميس حتى لمس كتفه وقال له : « يا سيدى·· انى أفضل الموت على الحياة بعد هذا العار ، واذا كانت لديك بقيـــة من الشفقة على فأرجو أن تنهى حياتى ! »

وبقى أراميس ساكتا بلا حراك ، فعاد فوكيه يقول : « مالك لا تجيب؟· تكلم يا سيدى ·· تكلم يا دربلاى »

فرفع أراميس رأسه برفق وبدا فى عينيه شـــعاع من الأمل وقال : « فكر يا صاحب الفخامة فى كل ما ينتظرنا·· ان الملك لا يزال حيا وزجه فى السجن قد أنقذ حياتك ! »

فقال فوكيه : « أجل·· أنا أعلم أنك فعلت ذلك من أجلى ، ولكنى لا أقبل خدماتك هذه !· على أنى قبل كل شىء لا أريد التلف والدمار لك · فلتغادر هذه الدار الآن ! »

فاختنقت صيحة دهشة فى حنجرة أراميس ، بينما استطرد فوكيه قائلا: « اننى مضياف لكل من يكون تحت سقف بيتى · ولن تكون أضيع ممن جئته بالخراب ! »

فقال له أراميس فى صوت حزين : « سيكون هذا مآلك وصـــدقنى يا فوكيه ! »

فقال : « فليكن !·· انى أقبل هذا النـــذير يا دربلاى ، ولكن لا شىء يمنعنى أو يقف فى طريقى · والآن ·· عليك أن تغادر (فو) بل تغادر فرنسا كلها فورا !·· انى أترك لك أربع ساعات لتكون بعيدا عن قبضـــة الملك ! »

فقال أراميس بازدراء غير مصدق ما يسمع : « أربع ساعات ؟! »

ولكن فوكيه واصل كلامه جادا فقال : « خذها كلمة من فوكيه ·· لن يتبعك أحد قبل انتهاء تلك المهلة·وبذا تسبق بأربع ساعات أى أحد يسيره الملك فى أثرك للقبض عليك · ان أربع ساعات أكثر من الوقت اللازم لكى تركب سفينة تفر عليها الى (بل ــ أيل) التى أهبـــك اياها لتكون مرفأ أمان لك !·· ان (بل ــ أيل) التى أملكها هى بالنسبة لك مثـــل (فو) بالنسبة للملك·اذهب اذن يا دربلاى··اذهب !·· ما دمت حيا فلن يمس أحد شعرة من رأسك ! »

فقال له أراميس فى لهجة ساخرة حزينة : « شـــكرا لك ! » · بينما واصل الوزير كلامه فقال :

ــ اذهب فورا وامدد الى يدك قبل أن يذهب كلانا بعيـــدا ، أنت لانقاذ حياتك وأنا لانقاذ شرفى !

فأخرج أراميس يده التى كان قد أخفاها ، فاذا هى ملوثة بالدم إذ كان قد غرس أظافرها فى لحمه كأنما يعاقب نفسه على أن فكر فى مشروع لا يقل عبثا وزوالا عن حياة الانســـان نفسه ، ففزع فوكيه حين رأى تلك اليـــد وامتلأ قلبه شفقة وفتح ذراعيـــه يريد أن يعانقه ، وعندئذ تمتم أراميس قائلا : «ليس معى سلاح» · ولم يلمس يد فوكيه وانما أدار رأسه وتراجع خطوة أو خطوتين وكانت أخرى كلماته لعنة وجهها الى فوكيه · وسرعان ما صب على وجهه بضع نقط من الدم الذى يسيل من صدره · ثم خـــرج كلاهما من الغرفة من طريق السلم الخفى الذى يقود الى فناء الدار · وأمر فوكيه باعداد أحسن جياده بينما وقف أراميس عند أسفل السلم المؤدى الى غرفة بورتوس · وجعل يفكر تفكيرا عميقا على حين كانت عربة فوكيه تخرج من الدار بأقصى سرعتها !

وقال أراميس يحدث نفسه : « أأذهب وحدى ؟· أم أحـــذر الأمير ؟ يا للجنون ! ·· أحذر الأمير ثم ماذا ؟ آآخذه معى ؟ أأصحب معى هـــذا الشاهد على فى كل مكان ؟ ان الحرب لابد أن تتبع ذلك ، الحرب الداخلية التى لا يخمد لها أوار ؟ ودون أى مورد أنقذ به نفسى ؟ · ان هذا محال ! وماذا يستطيع أن يفعل هو ؟· انه سيهلك ولا ريب · ومع هذا من يدرى؟ ليجر القدر مجراه · لقد حكم عليـــه بالسجن فليبق كذلك · أيها الروح الطيب أو السىء ، أيتهـــا القوة القاتمة المزدراة التى يسمونها العبقرية : انك قوة أكثر قلقا وأقل ثباتا وأعطل نفعا من الريح السائبة فى الجبال ! انك تلهبين كل شىء بأنفاسك ، وتسحقين الجبال بقربك ، ولكنك لا تلبثين قليلا حتى تقضى على نفسك أمام صليب من الخشب الميت ، تقف وراءه قوة غير مرئية مثلك ، وربما تنكرينها ولكن يدها الناقمة مبسوطة فوقك،تطوح بك فى الرغام موصومة بالعار والشنار !·لقد ضعت !··نعم لقد ضعت!·· ما الذى يمكن عمله ؟ أأفر الى (بل ــ أيل) وأترك بورتوس خلفى يتحدث عن المغامرة مع كل انسان ؟!· ان بورتوس أيضا سيقاسى من جراء ما عمله ولن أدع بورتوس المسكين يتألم ، انه يبدو كعضو من أعضاء جسمى · ان بورتوس ســـيذهب معى الى حيث نتبع ما قدر لنا · يجب أن يكون الأمر كذلك ! »

وخاف أراميس أن يصادف أحدا فيرتاب فى سرعة حركاته ، وصـــعد الدرج دون أن يراه أحد · وكان بورتوس فى سبات عميق وقد نسى جسمه الضخم تعبه كما نسى ذهنه أفكاره

ودخل أراميس غرفته خفيف الخطى كالظل ووضع يدا مرتعشة على كتفه وأخذ يوقظه ، ففتح المارد عينيه وقام من سريره تلبية لطلب صاحبه دون أن يفقه شيئا · وقال له أراميس : « قم اننا ذاهبان من هنـــا !· سنركب جوادين بسرعة لم نركب بها قبلا فى حياتنا !·فهيا ارتد ثيابك يا صديقى!»

ثم ساعده فى ارتداء ملابسه ، ووضع ذهبه وجواهره فى جيبه · وفيما

كان مشغولا بذلك استرعى التفاته صوت فنظر واذا بدارتانيان يرقبه من خلال الباب نصف المفتوح فانزعج أراميس . وقال له قائد الفرسان : « بالله ما معنى هذا الاضطراب ؟ »

فصاح به بورتوس قائلا : « صه يا دارتانيان ! » . بينما قال له أراميس : « اننا ذاهبان فى مهمة خطيرة »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ما أسعدك ! »

وقال بورتوس : « انى لا أزال متعبا ، وكنت أوثر أن أظل فى نومى ولكن خدمة الملك ... »

وقطع أراميس كلامه سائلا دارتانيان : « هل رأيت المسيو فوكيه ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل !. رأيته منذ لحظة وكان راكبا عربته ! »

فسأله : « ماذا قال لك ؟.. ألم يقل لك شيئا ؟ »

فقال دارتانيان : « قال لى : (وداعا) ، ولم يزد على ذلك.وماذاكان يمكنه أن يقول لى ؟ هل أنا الآن شىء يذكر بعد أن صرتم جميعا ذوى حظوة ؟! »

فقال له أراميس وهو يعانقه : « استمع الى .. ان أيامك الجميلة الماضية قد بدأت تعود . ولن تجد سببا للغيرة من أحد ! »

فغمغم قائلا : « هذا لا يهمنى ! »

فقال له أراميس : « انى أتنبأ بأن شيئا ما سيقع لك اليوم فيزيد كثيرا فى أهميتك .. انك تعرف صدق أنبائى ! » . ثم التفت الى بورتوس وقال له :

ـ تعال يا بورتوس . هل أنت مستعد الآن للذهاب ؟.. اذن فلنعانق دارتانيان أولا

وقال لهما دارتانيان وهما يعانقانه : « ولكن الجياد ؟. أين هى ؟.. هل تأخذ جوادى يا أراميس ؟ »

فقال له هذا : « لدينا جوادان .. فوداعا ! وداعا يا دارتانيان ! »

وركب الهاربان جواديهما تحت بصر قائد الفرسان الذىأمسك الركاب لبورتوس ثم نظر وراءهما حتى غابا عن بصره ، وقال دارتانيان يحدث نفسه : « فى أى ظرف آخر كنت أظن أن هذين الرجلين يفران !. أما فى هذه الايام التى تغيرت السياسة فيها ، فان مثل هذا الرحيل يسمى ذهابا فى مهمة خطيرة ! » . ثم دخل غرفته مطمئنا الى هذه الفلسفة !

ارادة القدر

مصت العربة بفوكيه بأسرع ما استطاعت الجياد ، وكان طول الطريق يرتجف فرقا من التفكير فيما حدث ويسائل نفسه : « كيف كان هؤلاء الفرسان فى شبابهم اذا كانت هذه جرأتهم وقد هرموا وشاخوا ..؟! » . وكان أحيانا يخيل اليه أن ما قصه عليهأراميس لم يكن الا حلما منالاحلام، أو لعله شُراك نصب له حتى اذا وصل الى الباستيل ألفى أمرا بالقبض عليه ليشارك الملك المخلوع فى سجنه . وقد مال الى تصديق هذه الفكرة حتى انه فى أثناء الطريق أصدر أوامر مختومة معينة بينما كانت جياد العربة تستبدل . وكانت تلك الأوامر موجهة الى المسيو دارتانيان ولآخرين يعتقد أن اخلاصهم للملك فوق كل شك . وقال يحدث نفسه : « بهذه الطريقة سواء أكنت سجينا أم لا ، أكون قد أديت واجبى نحو الشرف . ان هذه الأوامر لن تصل اليهم الا بعد عودتى ، اذا عدت طليق السراح ، وعندئذ أستردها . أما اذا لم أعد فان ذلك يكون لسوء وقع بى وحينئذ سأتلقى المعاونة كما يتلقاها الملك ! »

ووصل الوزير الى الباستيل بعد أن اتخذ تلك الأهبة ، وقد سافر بسرعة خمسة فراسخ فى الساعة . وهناك فى الباستيل صادفته كل الصعاب التى ذللت أمام أراميس حين زار السجن من قبل . ولم يجده شيئا ذكر اسمه ولا معرفة الحراس لشخصه،فلم يسمح له بالدخول فورا. وبعد الحاح فى الرجاء قبل أحد الحراس أن ينبىء بمجيئه أحد رؤسائه ، وهذا ذهب بدوره الى ضابط فأخبره . أما المحافظ فان أحدا لم يجرؤ أن يزعجه .. وهكذا جلس فوكيه فى عربته عند الباب الخارجى للقلعة ، وهو يتميز من الغيظ منتظرا عودة الضابط ، حتى اذا رآه قادما سأله بلهفة : « ماذا وراءك ؟ »

فقال الضابط : « ان رئيس الحراس سخر منى وقال لى : (ان المسيو فوكيه فى فو ولو أنه كان فى باريس ما كان ليستيقظ من نومه فى مثل هذه الساعة المبكرة !) . واذن لا فائدة يا سيدى من الحاحك فى ... »

فصاح فوكيه مقاطعا : « انكم جماعة من الحمقى ! » . ثم نزل من عربته، وقفز الى داخل البوابة قبل أن يتاح للضابط منعه ، فأخذ يصيح طالبا النجدة ، ولكن فوكيه كان قد دخل فأدركه الجندى وجعل يصيح منبها الديدبان الآخر الذى عند الباب الثانى ، فشهر الديدبان رمحه فى وجه

الوزير ، ولكن هـــذا كان قد كسب من الغضب قوة فنزع الرمـح من يد الجندى وضربه به ضربة قوية على كتفه ، ثم ثنى بضربة مثلها على الضابط الذى كان قد لحق به ، فأخذ الاثنان يصيحان صـيحات مزعجة ، وسرعان ما خفت اليهما قوة الحراس كلها ، واتفق أن كان بين رجالها ضابط عرف الوزير حين رآه فصاح برجالها قائلا : « قفوا أيها الرفاق ! » . وحال دون انتقامهم من الوزير . على أنه اعتذر من عدم استطاعته فتح الباب له الا اذا كان معه أمر مكتوب !. فطلب أن ينبأ المحافظ بحضوره ، وكان هـذا قد سمع الضجة التى عند الباب فجاء مهرولا يتبعه وكيله وحوالى عشرين رجلا فقد ظن أن هناك هجوما على الباستيل . فلما رأى المسيو فوكيه عرفه من أول نظرة فأرخى ســـيفه الذى كان قد جرده وأمسك به ، ثم تمتم قائلا : « صاحب الفخامة ؟. كيف أعتذر ؟ ! »

فقال له المسيو فوكيه وهو فى شدة الغضب : « يا سيدى . انى أهنئك على همة حراسك هؤلاء ! »

فشحب وجه المسيو بيزمو اذ ظن أن الوزير يسخر منه . ولكن فوكيه كان قد استعاد هدوءه فأشار الى الديدبان والملازم ، وقال لهما : «ستصرف عشرون بستولا للديدبان وخمسون للضابط . أهنئكما . ولن يفوتنى أن أحدث صاحب الجلالة عنكما . والآن يا مسيو بيزمو : لى كلمة معك ! »

وتبع المحافظ الى مسكنه الرسمى مصحوبا بهمهمة الرضا من الجميع . وكان بيزمو يرتعد خجلا وخوفا. فانه منذ زيارة أراميس الاولى صار يخشى سوء العاقبة . وما لبث المسيو فوكيه أن قال له بحدة : « هل زارك المسيو دربلاى صباح اليوم ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة »

وواصل الوزير كلامه قائلا : «ألم تروعك الجريمة التى اشتركت فيها ؟»

وتساءل المحافظ : «أية جريمة يا صاحب الفخامة ؟». بينما قال فوكيه : « الجريمة التى تستحق من أجلها أن يمثل بك !. ولكن الوقت لا يتسع للغضب . قدنى فورا الى السجين »

فقال بيزمو وهو يرتجف : « أى سجين يا صاحب الفخامة ؟ »

فصرخ فيه فى حدة قائلا : « أتتجاهل ؟!.. حسنا !. قد يكون هـذا خير ما تفعل !. »

وعاد بيزمو يقول : « أتوسل اليك يا صاحب الفخامة أن ... » . فقطع الوزير كلامه قائلا : « كفى !.. قدنى الى السجين ! »

وتساءل بيزمو فى استكانة : « الى مارشيالى يا صاحب الفخامة ؟ »

فنظر اليه متفحصا وسأله : « من هو مارشيالى ؟ »

فقال المحافظ : « السجين الذى أعاده المسيو دربلاى للسجن صـــباح اليوم »

« ونزل فوكيه من عربته وقفز الى داخل البوابة »

فبدأ يقينه يتزعزع قليلا حيال هدوء بيزمو وقال : « أيسمى مارشيالى اذن ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة ٠ انه الاسم المثبت فى سجل السجن »

فنظر فوكيه الى بيزمو نظرة يريد بها أن يسبر غوره ٠ على أنه لما رأى ملامح وجهه أدرك أن أراميس ما كان ليختار مثل هذا الرجل شريكا له فى المؤامرة ٠ وعندئذ قال له : « أليس هو السجين الذى أخذه المسيو دربلاى من هنا أول من أمس ثم أعاده الى السجن صباح اليوم ؟ »

وكان قد أدرك الخطة التى اتبعها أراميس ٠ فأجاب المحافظ : « أجل يا صاحب الفخامة ٠ واذا كنت قد جئت لأخذه فان هذا يسرنى لأنى كنت سأكتب تقريرا فى شأنه ! »

فسأله الوزير : « ماذا فعل اذن ؟ »

فأجاب بقوله : « انه منذ عاد للسجن صباح اليوم قد أزعجنى أيما ازعاج وقد اعترته نوبات من الهياج جعلتنى أحسبه سيدمر الباستيل ! »

فقال فوكيه : « سأريحك توا من وجوده هنا ٠ هيا قدنى الى غرفته »

فتردد بيزمو وسأل متلجلجا : « هل يتفضل صاحب الفخامة باعطائى الأمر الخاص بذلك ؟ »

فسأله : « أى أمر ؟ » ٠ فأجاب : « أمر من الملك ! »

فقال المسيو فوكيه : « حسنا !٠ انتظر حتى أكتب لك أمرا » ٠٠ ولكن المحافظ أردف يقول : « ان هذا لا يكفى يا صاحب الفخامة ٠ بل يجب أن أتلقى أمرا من الملك ! »

فاغتاظ فوكيه وقال له : « هل كنت تتبع مثل هذه الدقة حين سمحت للسجين بالخروج ؟٠ أرنى الأمر الذى أفرج به عن هذا السجين من قبل »

وأطلعه بيزمو على الأمر الخاص بالافراج عن السجين سلدون ٠ فقرأه فوكيه وقال له : « هذا أمر بالافراج عن سجين آخر اسمه سلدون »

فقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن مارشيالى ليس طليقا ياسيدى٠ بل هو هنا ! »

فقال له الوزير : « انك ذكرت الآن أن المسيو دربلاى أخذه معه ثم أعاده ! »

فوجم بيزمو قليلا ثم قال : «أحسب انى لم أقل ذلك يا صاحب الفخامة!»

فقال له محتدا : « بل قلته بالتأكيد حتى لكأنى أسمعه الآن ! »

فقال المحافظ : « هى اذن فلتة من لسانى يا صاحب الفخامة ! »

فنظر اليه المسيو فوكيه شزرا وقال له : «كن على حذر يا مسيو بيزمو!»

فقال هذا : « ليس هناك ما أخشاه يا صاحب الفخامة ٠ انى أعمل طبقا

لأدق الانظمة ٠ وقد أحضر لى المسيو دربلاى أمرا باطلاق سراح سلدون ، وسلدون طليق الآن ! »

فقال له الوزير : « ان مارشيالى قد غادر الباستيل ٠ هذا ما لا شك فيه ! »

فقال : « عليك أن تبرهن على ذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال له : « اذن دعنى أقابله قبل كل شىء » ٠ ثم أشار اليه أن يتقدمه الى غرفة السجين ولكن بيزمو بقى واقفا وقال له : « ان صاحب الفخامة يعلم تمام العلم أنه لا يجوز لأحد أن يرى أى سجين هنا الا بأمر صريح من الملك نفسه ! »

فبدا الغيظ واضحا فى وجه الوزير وقال له : « ولكن دربلاى قد دخل برغم ذلك ! »

فقال بيزمو : « هذا ايضاح يحتاج الى دليل يا صاحب الفخامة ! »

فصاح به الوزير محتدا : « يا مسيو دى بيزمو ٠٠ انى أحذرك مرة أخرى ٠٠ ان المسيو دربلاى قد ضاع ! »

فبدا الفزع فى وجه بيزمو وقال : «ضاع ؟٠٠هذا مستحيل يا سيدى!»٠ بينما واصل الوزير كلامه فقال : « أرى أنك كنت واقعا تحت نفوذه ؟ »

فقال بيزمو : « يا صاحب الفخامة ٠٠ انى هنا لأنفذ أوامر الملك٠وأنا أؤدى واجبى حق أدائه ٠ فأعطنى أمرا من الملك أدخلك عند السجين ! »

فقطب فوكيه متأففا ثم قال : « حسنا !٠ اتركنى أدخل عند السجين ، وسأعطيك فورا أمرا من الملك »

فقال بيزمو : « بل أعطنى الأمر الملكى قبل ذلك يا صاحب الفخامة ! »

وهنا اشتد غضب الوزير وقال له : « انى أنذرك يا مسيو بيزمو ٠٠ اذا أبيت على ذلك فسيقبض عليك وعلى جميع ضباطك فورا ٠٠! »

فقال بيزمو : « قبل أن تأتى عملا من أعمال العنف مثل هذا يا صاحب الفخامة ، تذكر أننا هنا لا نطيع الا أوامر الملك ، وانه يسهل عليك أن تحصل على أمر من الملك بزيارة مارشيالى بقدر ما يسهل عليك أن تحصل على أمر بالاضرار بى برغم براءتى ! »

فقال فوكيه بغيظ : « صدقت يا مسيو دى بيزمو ٠ صدقت ! »

ثم جذبه اليه وقال له بصوت منخفض : « أتدرى لماذا أحرص على التحدث الى السجين ؟ »

فأجاب بيزمو : « لست أدرى !٠ على أنك تخيفنى حتى لقد سرت فى جسمى رعدة وكأنى مهدد بالاغماء ! »

فقال له الوزير : « ستجد فوصة للاغماء بعد عشر دقائق حين أعود الى هنا على رأس عشرة آلاف جندى مزودين بثلاثين مدفعا ! »

فصاح المحافظ فى فزع : « رباه · انك لست فى وعيك يا صاحب الفخامة ! »

وعاد الوزير يقول فى صرامة : « انى أمهلك عشر دقائق تحزم فيها أمرك ، وسأجلس هنا على هذا الكرسى حتى اذا انتهت الدقائق العشر وكنت لا تزال على عنادك فسأغادر هذا المكان وستحسبنى مخبولا كما تشاء ولكنك سترى العاقبة ! »

فضرب بيزمو الارض بقدمه ولكنه لم ينطق ببنت شفة ، وعندئذ أمسك فوكيه بقلم ورقعة ورق وكتب ما يأتى : « أمر الى رئيس البلدية بحشد الحراس ومهاجمة الباستيل » · و « أمر الى قائد الحرس السويسرى والى قائد حرس الملك باقتحام الباستيل خدمة للملك »

وكان بيزمو يقرأ ما يكتبه الوزير دون أن ينبس ببنت شفة ، فلما وجده مستمرا فى الكتابة وقرأ أمره الجديد وفيه (الى كل جندى وكل مواطن وكل سيد ، بالقبض على المسيو دربلاى أسقف فان حيثما يجده ، وكذلك على كل شركائه وفى مقدمتهم المسيو دى بيزمو محافظ الباستيل المتهم بالخيانة العظمى والتمرد) ·· لم يتمالك نفسه وصاح قائلا : « كفى يا صاحب الفخامة !· انى لا أفهم شيئا من الموضوع كله ، ولكنى أخشى أن تقع فى ساعتين اثنتين فواجع مروعة وكان مبعثها الجنون · ولا ريب أن الملك حين يحاكمنى سيرى عذرى اذ أخالف النظم · تعال معى يا صاحب الفخامة الى زنزانة مارشيالى ! »

فنهض فوكيه واندفع خارجا من الغرفة يتبعه بيزمو وهو يمسح العرق الذى يتصبب من جبينه ويقول : « ما أفظعه صباحا ! يا للعار ! » · بينما فوكيه يستعجله وقد لحظ أنه ما زال خائفا منه فقال له : « دع عنك لعب الاطفال هذا وخذ المفاتيح من السجان فانه لا يجوز لأى انسان أن يرى أو يسمع ما سيحدث ! »

ولما وجده مترددا فى تنفيذ ذلك ، هدده قائلا : « حذار يا مسيو دى بيزمو ، والا غادرت الباستيل توا لكى أنفذ أوامرى بنفسى »

فأطرق بيزمو ، ثم تناول المفاتيح من يد السجان وصرفه ، ومضى يصعد الدرج فى صحبة الوزير وحده ، وسمع هذا ضجة فى أعلى السلم يتخللها السخط والسباب فسأل المحافظ : «ما هذا ؟ » · فأجابه وهو يغمز بعينه: « هذا صاحبك مارشيالى · وهكذا يصيح السجناء المجانين ! »

فارتجف الوزير فرقا اذ تبين صوت الملك ووقف لحظة على الدرج ، ثم أخذ المفاتيح من بيزمو اذ كان هذا يخشى أن ينقض عليهما السجين المخبول · وصاح به : « أى مفتاح هو الخاص بهذا الباب ؟ » · وفيما هو يريه المفتاح سمعت صيحة رهيبة يصحبها ضرب شديد على الباب فتردد لهما صدى ملأ السلم · فقال فوكيه لبيزمو بصوت قاصف : « اذهب من هنا ! »

فتمتم بيزمو قائلا : « هذا يسرنى · سيتقابل الآن اثنان من المجانين وانى موقن أن أحدهما سيقتل الآخر ! »

فصاح به الوزير فى حدة قائلا : « اذا وضعت قدمك على هذا السلم قبل أن أناديك فستحتل مكان أحقر سجين فى هذا السجن ! »

فتمتم بيزمو وهو ينسحب بخطى متثاقلة : « ان هذه الوظيفة ستقضى على ! »

وكانت صيحات السجين تزداد شدة ، بينما انتظر فوكيه حتى استوثق من أن بيزمو وصل الى أسفل الدرج ثم وضع المفتاح فى قفل الباب وأداره، وعندئذ سمع صوت الملك الأجش وهو يصيح قائلا : «النجدة ، النجدة!·· أنا الملك ! » · وكان مفتاح الباب الثانى غير مفتاح الباب الاول فاضطر فوكيه أن يبحث عنه فى حزمة المفاتيح ، على حين كان الملك يصيح فى شدة غضبه قائلا : « لقد زج بى فوكيه فى السجن !· النجدة ضد فوكيه ! أنا الملك · ساعدوا الملك على فوكيه ! »

فمزقت هذه الصيحات قلب الوزير ، وتلتها ضربات شديدات على الباب بجزء من الكرسى الذى تسلح به الملك · وأخيرا وجد فوكيه المفتاح ففتحه فى الوقت الذى خارت فيه قوى الملك فكانت كلماته غير واضحة وهو يقول: « الموت لفوكيه !· الموت للخائن فوكيه ! »

▭

كاد فوكيه يرتطم بالملك الذى كان واقفا وراء باب الزنزانة ، ومضت لحظة رهيبة صمت فيها كل منهما وقد عرف صاحبه ، ثم صاح الملك صيحة فزع قائلا : « فوكيه ·· هل جئت لكى تقتلنى ؟ ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « رباه !·· الملك على هذه الهيئة ؟! »

والواقع أن منظر الملك كان يبعث الفزع ، فقد كانت ثيابه ممزقة ، وكان قميصه ملوثا بالتراب والعرق ، والدم يسيل من صدره وذراعيه ، وكان شاحب الوجه أشعث الشعر أغبر السحنة ، يبدو عليه اليأس والجوع والخوف معا · وتأثر فوكيه بمرآه وقال له بصوت مختنق : « مولاى ·· ألا تعرف أخلص أصدقائك ؟ »

فنظر اليه الملك شزرا وقال : « أنت ؟!·· أنت صديق لى ؟! » فركع الوزير بين يدى الملك وقال له فى هدوء حزين : « بل أكثر خدامك اجلالا لك ! » · ثم أعقب ذلك بأن نهض واقترب منه ثم احتضنه فى عطف وحنان قائلا له والدمع ينهمل من عينيه : « يا مليكى ··! يا ولدى ··! ما أشد ما قاسيته ! »

وكان لويس قد استعاد سكينته فشعر بالخجل من مظهره ومن مسلكه

ومن الشفقة التى أبداها وزيره نحوه ، وتراجع الى الوراء ، فلم يفهم فوكيه كنه هذه الحركة ، ولم يدر أن الملك فى كبريائه لن يغفر له رؤيته اياه فى تلك الحالة المزرية . ثم قال له فى خشـــوع : « تعال يا مولاى .. انك حر طليق ! »

فقال الملك متعجبا : « طليق ؟!.. أأنت تطلق سراحى بعد أن تجرأت على رفع يدك ضدى ؟! »

فقال فوكيه فى استياء : « لا تصدق يا مولاى انى يمكن أن أرتكب مثل هذا الوزر ! »

ثم أخذ يقص على الملك تفصيل ما حدث ، وكان لويس الرابع عشر يستمع له وهو يشعر بألم نفسانى شديد ، حتى اذا انتهى فوكيه من كلامه، تغلب عظم الخطر الذى استهدف له الملك على هول السر الذى وقف عليـه بشأن وجود أخ توأم له ، ثم قال لفوكيه بغتة : « ان مسألة التوأم هذه أكذوبة.. انها أمر مستحيل . لا يمكن أن تكون قد خدعت بها !. أجل انه لمستحيل أن ترتاب فى شرف أمى وفضيلتها . ووزيرى الاول لم ينتقم لى بعـد من الجناة ! »

فأجاب فوكيه : « فكر يا مولاى قبل أن يدفعك الغضب . ان ميـــلاد أخيك ... »

فقطع الملك كلامه قائلا : « ليس لى ســوى أخ واحد ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه !.. هناك مؤامرة تبدأ من محافظ الباستيل ! »

فقال له فوكيه : « كن حذرا يا مولاى .. ان ذلك الرجل قد خدع مثل غيره بالتشابه الشديد الذى بينك وبين ذلك السجين .. ولا شك فى أن الذين أعدوا كل شىء ليخدعوا الملكة الوالدة وأعضاء الأسرة المالكة ووزراءك وضباطك ، قد اطمأنوا كل الاطمئنان الى تمام التشابه بين جلالتك وبينه !»

فتمتم الملك قائلا : « ولكن .. ان كـل هؤلاء الآن فى (فو) . فكيف تركتهم هناك ؟ »

فقال فوكيه : « كان واجبى العاجل هو اطلاق سراح جـــلالتك ، وقد أديت هذا الواجب . والآن سأنفذ كل ما تأمر به . وأنا فى انتظـار أمر جلالتك ! »

ففكر لويس هنيهة ثم قال : « اجمع كل الجيوش التى فى باريس »

فقال الوزير : « لقد صدرت الأوامر الخاصة بذلك يا مولاى »

فصاح الملك : « أنت أصدرت هذه الأوامر ؟ »

فقال : « أجل يا مولاى .. أصدرتها لهذا الغرض ، وبعد أقل من ساعة تكون جلالتك على رأس عشرة آلاف جندى ! »

فكان جواب الملك أن تناول يد فوكيه وضغطها بما يدل على أنه قد تبدد من ذهنه أخيرا كل سوء ظن بوزيره . ثم قال له : « ســنذهب توا الى فو

بهذا الجيش لنحاصر أولئك الثوار الذين أحسبهم قد تحصنوا الآن »

فقال فوكيه : « لو أن هذا حـدث لدهشت له ، لأن زعيمهم الذى هو روح تلك المؤامرة قد كشفته فسقط المشروع كله ! »

فقال الملك : « وهل كشفت ذلك الامير الزائف ؟ »

فقال : « انى لم أره بعد يا مولاى ! »

فسأله متعجبا : « من الذى رأيته اذن ؟ »

فأجاب قائلا : « زعيم تلك المغامرة ، وهو غير ذلك الشاب البائس الذى لم يكن الا أداة فى يده ، وقد حكم عليه بالشقاء طول حياته كما يبدو . أما زعيم المؤامرة ومنفذها فهو المسيو دربلاى أسقف فان ! »

فغمغم الملك قائلا : « صديقك ؟ » . فنظر الوزير الى الملك فى نبـــل واخلاص ظاهرين وأجاب : « لقد كان صديقى يا مولاى ! »

فقال الملك بلهجة أقل ودا من قبل : « هذا ظرف سىء بالنسبة لك ! »

فقال فوكيه : « ان الصداقة التى من هذا القبيل يا مولاى لا شىء فيهـا يؤاخذ عليه ما دمت جاهلا بالجريمة ! »

فقال الملك : « كان ينبغى لك أن تتوقعها ! »

فأطرق الوزير وقال : « انى على كل حال أضع نفسى فى يدى جـلالتك حتى تتحقق أنى لست مذنبا ! »

فقال الملك متداركا : « انى ما قصدت ذلك يا مسيو فوكيه . كلا .. لم أقصد ذلك قط ، وأؤكد لك أنه برغم القناع الذى كان على وجه ذلك الشرير فقد خيل الى أنه هو . وقد كان معه رجل ضـــخم الجسم هائل القوة كان يتوعدنى بقوته ولست أدرى من هو »

فقال فوكيه : « لابد أنه صـديقه البارون دى فالون أحد الفرســـان الاربعة »

فقال الملك : « صديق دارتانيان والكونت دى لافير ؟!. يجب ألا ننسى العلاقة التى بين المتآمرين وبين المسيو دى براجلون ! »

فقال فوكيه : « لا يذهبن بك الفكر بعيدا يا مولاى .. ان دى لافير هو أشرف رجل فى فرنسا . فاقنع بأولئك الذين سأسلمهم الى جلالتك ! »

فعض الملك على شفتيه وقال : « حسنا !. اذن أنت ستقدم الى المجرمين الاوغاد عقب وصولنا الى فو على رأس الجيش ، وانى لأرجـو ألا ينجو أى واحد منهم حتى لا يفلت عنقه من الجزاء الذى استحقه ! »

فقال الوزير : « هل جلالتك ستأمر بقتلهم ؟ »

فقال الملك فى كبرياء : « ليفهم كل منا الآخر يا مسيو فوكيه .. اننا لا نعيش الآن فى تلك العصور التى كان الاغتيال فيها وحده وسيلة الملوك

الى الانتقام من أعدائهم !· ان عندى برلمانا يجتمع ويقضى باسمى ، وعندى مشانق تنفذ عليها سلطتى العليا ! »

فامتقع وجه فوكيه وقال : « اسمح لى يا صاحب الجلالة أن أعارضك ، فان أى اجراء يتخذ فى هذا الشأن سيجر الفضيحة على العرش ، ولا يجوز أن يذكر اسم الملكة آن مصحوبا بالابتسام ! »

فعقب الملك على ذلك قائلا : « ومع هذا يجب أن يأخذ العدل مجراه ! »

فقال فوكيه . « حسنا يا مولاى !· ولكن الدم الملكى لا يصح أن يسفك على المشنقة ! »

فصاح الملك غاضبا : « الدم الملكى ؟!·· اذن أنت تصدق تلك القصة؟· ان قصة التوأمين هذه مخترعة ، وانى أرى فى اختراعها نفسه أكبر جرم اقترفه دربلاى · انى أريد أن أعاقب على الجريمة ذاتها قبل عقابهم على اتخاذهم العنف معى أو اهانتهم اياى ! »

فقال الوزير فى حزم : « مولاى ·· ان جلالتك تستطيع أن تقضى على حياة أخيك فيليب اذا شئت فان هذا أمر يعنيك وحدك ، وأحسب أن جلالتك ستستشير الملكة الوالدة ، وفى هذا ما يكفى ·· ولست أحب أن أتدخل فى هذا الأمر ، على أن لى رجاء واحدا أحب أن تحققه جلالتك »

فقال الملك : « أى رجاء لك يا مسيو فوكيه ؟ ثق بأننى لن أتوانى لحظة عن تحقيقه جزاء اخلاصك ! »

فقال : « شكرا لك يا مولاى !·· ان رجائى أن تعفو عن دربلاى ودى فالون ! »

فنظر اليه الملك متعجبا وقال : « أعفو عمن أرادا اغتيالى ؟! »

فقال فوكيه : « أنهما ثائران لا أكثر من ذلك يا مولاى ! »

فقال الملك : « لقد فهمت ·· أنك تطلب العفو عن صديقيك ؟ »

فأحس الوزير أن هذه العبارة جرحت احساسه وغمغم مرددا : « صديقى ؟ » · بينما قال الملك : « نعم أنهما صديقاك·ولكن سلامة الدولة تتطلب عقابا رادعا للمجرمين ! »

فقال فوكيه : « مولاى ·· انى لا أسمح لنفسى بأن أذكر جلالتك بأنى أعدت اليك حريتك وأنقذت حياتك !· بل لست أسمح لنفسى بأن أقول لجلالتك ان المسيو دربلاى لو أراد حقا أن يغتالك لكان من السهل عليه أن يقتلك فى هذا الصباح بغابة سينار فينتهى الأمر ! »

فبدا الفزع فى وجه الملك ، واستطرد فوكيه فقال : « كان دربلاى يستطيع أن يطلق رصاصة على رأس لويس الرابع عشر فتشوه وجهه حتى لا يعرفه أحد حين تكتشف جثته وبذا كان مشروع دربلاى يبلغ نهايته ! »

فامتقع وجه الملك اذ لاح له عظم الخطر الذى كان يواجهه · واستمر

فوكيه يقول : « لو كان المسيو دربلاى قاتلا مغتالا ما كان ليخبرنى بخطته، لقد كان على يقين من أن مؤامرته لن تكشف ، وكان يرى أن ذلك الغاصب فى نظرنا ليس الا ملكا حقا ما دام ابنا للويس الثالث عشر · ولو أن الملكة آن عرفته فانه على أى حال ابنها ! »

وبدل أن يتأثر الملك بهذه الصورة التى رسمها له فوكيه عن سماحة أراميس ، شعر بالمزيد من المهانة ، ولم يطق أن يتصور أن حياته الملكية كانت بيد ذلك الرجل حينا من الزمن · وما لبث أن قال لفوكيه : « انى لا أدرى حقا لماذا تطلب العفو عن هؤلاء المجرمين ؟·· ما جدوى المطالبة بشىء يمكن أن يتم دون رجاء ؟ »

فقال فوكيه : « لست أفهم ما تعنيه يا مولاى ! »

فقال : « ان ما أقوله واضح مفهوم · فأنا الآن فى الباستيل ، والحراس يحسبوننى مخبولا · ولا أحد هنا يعرف أنى لست مارشيالى السجين العادى · وعلى هذا تستطيعون أن تتركوا هذا السجين المجنون حيث هو حتى ينتهى ، فلا يحتاج المسيو دربلاى ولا المسيو دى فالون الى عفو لأن ملكهما الجديد سيعدهما بريئين ، بل سيكافئهما على أنهما جاءا به من السجن الى العرش ! »

فامتقع وجه فوكيه تأثرا وقال : «ان جلالتك تسىء الى بغير حق يا مولاى! انى لست طفلا كما أن المسيو دربلاى ليس أبله · ولو أنى أردت تنصيب ملك جديد على العرش كما تقول لما جئت الى هنا لأقتحم الابواب وأطلق سراحك بل ان ذلك كان ينبىء عن نقص فى الذكاء · ان الغضب وحده هو الذى جعلك تكافىء خدمتى بهذه الاساءة ! »

فأدرك الملك ماكان من شططه وتذكر أن أبواب الباستيل ما زالت مغلقة عليه · ونفذت كلمات فوكيه الخالصة الى قلبه فرق قليلا وقال له : « انى لم أقصد أن أسىء اليك ، والله يعلم ذلك · ولكنك طلبت الى العفو فأجبتك بما أملاه ضميرى · وعلى ذلك ما دمت أحكم ضميرى فان المجرمين اللذين تتحدث عنهما لا يستحقان عندى أدنى شفقة ! »

وبقى فوكيه ساكتا بينما استطرد الملك فقال : « اننى أقول لك هذا وأنا أعلم أنى لا أزال فى قبضة يدك ، وأن حريتى بل حياتى نفسها قد تتوقف على قبول ما تطلبه منى ! »

فقال فوكيه : « لا شك انى أخطأت اذ قدمت ملتمسى هذا الى مولاى فى صورة توحى بأنى أفرض قبوله فرضا !· وأنا آسف على ذلك وأرجو صفح جلالتك ! »

فابتسم الملك وقال : « لقد صفحت عنك يا عزيزى فوكيه »

فسكت فوكيه قليلا ثم قال : « لقد نلت الصفح عن نفسى ولكن المسيو دربلاى والمسيو دى فالون ··· »

فقطع الملك كلامه قائلا : « انهما لن ينالا منى عفوا ما دمت حيا ، وأرجو ألا تحدثنى عنهما مرة أخرى ! »

فقال فوكيه : « سمعا وطاعة يا مولاى ! » . ونظر اليه الملك متفحصا ثم قال له : « وأرجو أيضا ألا يترك هذا أثرا فى نفسك ! »

فقال الوزير : « فليطمئن مولاى !. انى فى الواقع فكرت فى هذا من قبل ، وقد اتخذت اجراءاتى على أساس أن جلالتك قد لا تعفو عنهما ! »

فسأله الملك فى دهشة : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب بقوله : « لقد قدرت للمسيو دربلاى أنه بافشاء سره الخطير لى قد هيأ لى فرصة انقاذ الملك والدولة . وعلى هذا لم أستطع أن أبعث به الى الموت ، ولم أستطع أن أعرضه لمثل غضبك هذا لانه يوازى قتله بيدى ! »

فقال له الملك : « حسنا !. وماذا فعلت اذن ؟ » . فقال : « لقد أعطيت المسيو دربلاى أحسن جيادى ، وتركت له أربع ساعات يسبق بها من يمكن أن تبعثهم جلالتك لادراكه ! »

فتمتم الملك قائلا : « فليكن ذلك !. ان القبض عليه بعد هذه الساعات الاربع ليس من المحال ! »

فقال فوكيه : « الواقع يا مولاى أنى ما سمحت له بذلك السبق الا لكى أنقذ حياته،ومن أجل ذلك وهبته جزيرة (بل – أيل) لتكون مرفأ أمان له!»

فقال له الملك : « ولكنك أهديت الى (بل – أيل) هذه من قبل ؟ »

فقال : « عفوا يا مولاى !.. اننى لم أهدها اليك لكى تقبض فيها على أصدقائى ! »

فبدا الاهتمام فى وجه الملك ، ونظر الى فوكيه بعينين تقدحان شررا،ولكن هذا كان مطمئنا الى أنه أدى واجبه طبقا لما أملاه عليه ضميره فقابل نظرة الملك بابتسامة هادئة ، واضطر الملك الى أن يهدىء من غضبه وقال بعد أن سكت هنيهة : « أعائد أنت الى فو ؟ »

فأجاب فوكيه : « انى أنتظر أمر جلالتك . ولكنى أحسبك محتاجا الى تغيير ملابسك قبل الظهور أمام الحاشية »

فقال الملك : « سنمر على اللوفر . هيا بنا ! »

وخرجا من السجن مارين ببيزمو ، فنظر هذا الى الملك فى دهشة وهو يحسبه مارشيالى يخرج من السجن مرة ثانية ، وفيما كان واقفا يعض على شفتيه من الغيظ لعدم استطاعته شيئا حيال ذلك ، ناداه فوكيه وأعطاه أمرا بالافراج عن السجين موقعا عليه باسم الملك ، فتسلم الأمر وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة حزينة،اذ حسب أن السجين الراحل(مارشيالى) هو الذى كتب ذلك الأمر فى نوبة من نوبات الجنون !

فيليب الملك

استطاع فيليب توأم لويس الرابع عشر ان يقوم بدوره الملكى خير قيام بعد أن حل محل الملك فى غرفة نومه بقصر (فو) بأن أصدر أمره باعداد استقبال حافل عند قيامه من النوم ، وقد اتخذ هذا القرار برغم أن المسيو دربلاى لم يعد اليه فى الموعد المنتظر ، ولعله اعتقد أن غيبته لن تطول فأراد أن يجرب مقدرته وحظه دون أى سند أو ارشاد !. على أن سببا آخر حفزه الى ذلك هو أن أمه الملكة آن النمسوية التى ضحت به فيما يعتقد ستكون بين يديه عما قليل !

وفتح فيليب أبواب الجناح الملكى فدخل كثيرون فى سكون . ولم يتحرك حين أخذ خادمه يلبسه ثيابه ، وكان قد درس فى الليلة السابقة عادات أخيه ليمثل دوره بصورة لا تثير أية شبهة . فلما أتم ارتداء ثياب الصيد الكاملة سمح باستقبال زائريه . وبفضل ذاكرته ومذكرات ارامبس عرف كل واحد منهم ، وأولهم الملكة آن والدته التى كانت مستندة الى ذراع ابنها الأصغر ، ثم قرينة هذا الأمير مع المسيو ذى سان اينيان. وقد اختفت ابتسامته حين رأى أمه وبدا كأنه يرتعد ، وحدث نفسه قائلا : « أهذه الملكة النبيلة المظهر البادية الألم هى التى ضحت ابنا لها فى سبيل سياسة الدولة ؟ » . ولحظ أنها ما زالت تبدو جميلة برغم تقدم السن بها ، وكان يعرف ان لويس الرابع عشر يحبها ، فالى على نفسه أن يحبها كذلك وألا يعاقبها على فعلتها وقد بلغت الكبر . ونظر الى أخيه الأصغر نظرة عطف وحنان ، فان هذا لم يغتصب منه شيئا ولم يسبب له شقاء. وعاهد نفسه على أن يلبى كل مطالبه . ثم انحنى انحناءة ودية لسان اينيان الذى كان يبتسم ويبدى كل ما يستطيع من اجلال . ومد يدا مرتعشة الى الأميرة هنريتا زوجة أخيه الأصغر التى بهره جمالها لأول وهلة ، ولكنه راى فى نظرتها جفاء فقال يحدث نفسه : « انه لأيسر لى أن أكون بمثابة الأخ لزوجة أخى هذه من أن أكون عشيقا لها »

والواقع انه لم يكن يخشى سوى استقبال الملكة زوجة لويس الرابع عشر ، ولكنها لحسن حظه لم تأت الى حفلة الاستقبال . ثم بدأت الملكة الوالدة خطابا سياسيا علقت به على ترحيب المسيو فوكيه بالبيت المالك ومزجت فيه عداوتها لفوكيه بمديحها للملك وسؤالها عن صحته قائلة : « والآن يا بنى لعلك اقتنعت بما هناك عن المسيو فوكيه ؟ »

وهنا التفت فيليب الى سان اينيان وقال له : « ياسان اينيان أرجو أن تذهب وتسأل عن صحة الملكة ! »

وكانت هذه الكلمات أول ما نطق به بصوت مرتفع ، فاسترعى الاختلاف الزهيد الذى بين صوته وصوت لويس انتباه الملكة آن ، فنظرت اليه مليا ، بينما خرج سان اينيان من الغرفة لتنفيذ الأمر الصادر اليه

ثم قال فيليب لوالدته : « سيدتى .. انى لا أحب أن أسمع ذما فى المسيو فوكيه ، وأنت تعلمين ذلك ، ولقد أطريته أنت نفسك ! »

فقالت : « هذا صحيح ولذا اسألك عن شعورك نحوه ! »

وقالت هنريتا : « مولاى ، انى من جانبى أميل دائما الى المسيو فوكيه. انه رجل ذو ذوق رفيع فهو اذن رجل ممتاز ! »

وقال الأمير : « انه وزير مالية غير ضنين ولا شحيح . ويدفع بالذهب كل ما أحيله اليه من المطالب ! »

فقالت الملكة الوالدة : « ان كل انسان فى هذا الأمر يفكر فى صالحه لا فى صالح الدولة !. ان المسيو فوكيه فى الواقع يخرب مالية الدولة ! »

فقال فيليب بصوت أقل ارتفاعا : « حسنا يا أماه !. ألست أيضا تجعلين من نفسك درعا للمسيو كولبير ؟ »

فدهشت الملكة العجوز وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

فأجاب فيليب : « لأنك فى الحقيقة تتكلمين كما لو كانت صديقتك القديمة مدام دى شيفريز تتكلم ! »

فتساءلت الملكة آن متعجبة : « مدام دى شيفريز ؟ » بينما استطرد فيليب فقال :

ــ أليست مدام دى شيفريز دائما فى حلف ضد أى انسان ؟.. وهل لم تزرك أخيرا يا أماه ؟

فقالت : « سيدى .. انك تحدثنى الآن بلهجة تجعلنى أتصور أنى أستمع الى أبيك ! »

فقال لها : « ان أبى لم يكن يميل الى مدام دى شيفريز ، وكان له الحق فى ذلك !.. أما أنا فانى لا أحبها أكثر مما كان يحبها ... واذا كانت تحسب أنها ستعود الينا لتبذر بذور الفرقة والبغضاء تحت ستار استجداء المال ، فانى سأنفيها خارج المملكة وأنفى معها كل من يتدخل فيما لا يعنيه من الأسرار ! »

ولم يكن قد قدر أثر هذه الكلمات الرهيبة ، أو لعله أراد أن يرى أثرها ، والواقع أن الملكة آن أوشكت أن يغشى عليها فمدت يديها صوب ابنها الأصغر فسندها وأحاطها بذراعه . وتمتمت هى قائلة : « مولاى . انك تقسو على والدتك ! »

فأجاب قائلا : « كيف ذلك ؟. انما تكلمت عن مدام دى شيفريز . أفتؤثر والدتى مدام دى شيفريز على سلامة الدولة وسلامة شخصى ؟. حسنا اذن يا سيدتى !. انى أقول لك ان مدام دى شيفريز انما عادت الى فرنسا لكى تقترض مالا ، وانها لجأت الى المسيو فوكيه لكى تبيعه سرا معينا ! »

فصاحت الملكة آن : « سرا معينا ؟ ! »

فقال : « اجل !. لقد زعمت أن هناك اختلاسات اقترفها وزير المالية . وقد ردها المسيو فوكيه ردا غير كريم ، مؤثرا تقدير الملك له على كل صلة بالدساسين . وهنا باعت مدام دى شيفريز ذلك السر المزعوم الى المسيو كولبير . ولما كانت لا تشبع ، ولم تقنع بمائة الف كرون ابتزتها من ذلك الموظف ، فقد صعدت الى أعلى وحاولت أن تجد ينابيع أعمق غورا .. أليس هذا صحيحا يا سيدتى ؟ »

فقالت الملكة الوالدة بقلق : « انك لا يفوتك شىء يا مولاى ! »

فاستمر فيليب قائلا : « والآن لى الحق فى أن أبغض هذه السيدة التى تدبر الفضيحة لانسان والخراب لآخر . واذا كان الله قد شاء أن ترتكب بعض الجرائم وأخفاها فى ظل رحمته ، فانى لا أسمح لمدام دى شيفريز أن تكون لها قوة تعارض بها مشيئة الله ! »

وقد تأثرت الملكة آن بهذا الشطر الأخير من عبارة ابنها ، حتى لقد شعر بالشفقة عليها ، فأمسك بيدها وقبلها بحنو ، ولم تدر أنه بهذه القبلة قد غفر لها ما سببته له من آلام طول السنوات الأخيرة . ثم ترك فيليب فترة من الصمت تمحو الانفعالات الأخيرة ، وعاد يقول وعلى فمه ابتسامة مشرقة :

ــ اننا لن نخرج اليوم فان عندى خطة !

والتفت نحو الباب وقد بدأ يشعر بالقلق لغياب أراميس ، وارادت الملكة الوالدة أن تغادر الغرفة فقال لها : « ابقى هنا يا أماه فانى أريد أن أعقد صلحا بينك وبين المسيو فوكيه ! »

فقالت له : « انى لا أكن ضغنا للمسيو فوكيه وانما يزعجنى اسرافه »

فقال لها : « سنعالج ذلك ، ولن نأخذ من وزير المالية سوى صفاته الحسنة ! »

ولحظت الأميرة هنريتا أنه ينظر كل لحظة الى الباب ، وحسبته ينتظر دى لافاليير فأرادت أن تسدد نحوه سهما صغيرا مسموما وقالت له :« ماذا ينتظر مولاى ؟ »

فأدرك فيليب ما يدور بخلدها وقال لها : « أختاه .. انى أنتظر رجلا ممتازا وناصحا عظيم المقدرة وأريد أن أقدمه اليكم جميعا وأن ينال عطفكم وتقديركم ! »

ورأى دارتانيان بالباب فقال له : « أدخل يا دارتانيان »

فجاء دارتانيان وقال له : « ماذا تريد يا صاحب الجلالة ؟ » . فسأله : « اين أسقف فان صديقك ؟. انى أنتظره ولكنه لم يأت بعد .. دع أحدا يبحث عنه »

فوقف دارتانيان هنيهة ذاهلا ثم حسب ان أراميس غادر (فو) فى مهمة سرية كلمة الملك اياها وان الملك يريد كتمان أمرها عن الجميع ، فانحنى أمامه وقال :

ـ مولاى .. اتريد جلالتك احضار المسيو دربلاى اليك حتما ؟

فقال : « ليس حتما . ولكن اذا وجدتموه ! »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا ما حسبته » . ثم سألت الملكة آن : « هل المسيو دربلاى هذا هو أسقف فان ؟ »

فأجابها فيليب : « أجل يا سيدتى .. انه فارس قديم ! »

فاحمر وجه الملكة واستطرد فيليب فقال : « أحد الفرسان الأربعة المشهورين الذين أتوا من ضروب البسالة ما يدعو الى العجب ! »

وهنا ندمت الملكة آن على ملاحظتها وارادت ان تغير مجرى الحديث فقالت : « على أية حال .. أنا موقنة بأنك تحسن الاختيار يا مولاى ! »

فانحنى الجميع تأييدا لهذا القول .. ثم قال فيليب : « ستجدين فيه فطنة المسيو دى ريشيليو وسعة حيلته ، دون شح المسيو دى مازارين ! »

وهنا سأل الأمير الشاب : « هل سيكون رئيسا للوزراء يا مولاى ؟ »

فقال فيليب : « سأخبرك عن ذلك فيما بعد أيها العزيز »

ثم صاح قائلا : « لينبأ المسيو فوكيه بانى أريد ان أكلمه امامكم . لا تنسحبوا »

وهنا عاد المسيو دى سان اينيان وقال : « ان الملكة بخير ، وقد لزمت فراشها من باب الحيطة لتقوى على تحقيق جميع رغبات الملك »

وبينما كان البحث جاريا عن فوكيه وارامبس ، مضى الملك الجديد فى احاديثه هادئا دون ان يرتاب فى أمره أحد من أفراد الأسرة المالكة أو الضباط ورجال البلاط والخدم . ولم يسعه ازاء هذا الا أن يحمد الله وان يعجب بنفسه اذ أتقن تمثيل دوره !.. غير انه مع هذا شعر بأن ظلا يقف بينه وبين مجده الجديد ، وذلك لأن أراميس لم يأت !.. ونسى فيليب فى غفلته أن يصرف أخاه وقرينته هنريتا ، وقد دهش هذان وبدآ يفقدان صبرهما . وانحنت الملكة آن على أذن ولدها وكلمته باللغة الأسبانية ، وكان يجهل هذه اللغة جهلا تاما فامتقع وجهه ازاء هذه العقبة غير المتوقعة ، ولكنه تجلد فلم يبد عليه اضطراب ، واكتفى بأن نهض واقفا فقالت له الملكة آن : « ماذا تريد ؟ »

فالتفت الى باب السلم الثانى وقال : « ما هذه الضجة ؟ »

وفى الوقت نفسه سمع صوت يقول : « من هنا .. من هنا !.. بضع خطوات أخرى يا مولاى ! »

فقال دارتانيان : « هذا صوت المسيو فوكيه »

وهنا قال فيليب : « اذن لا يمكن أن يكون المسيو دربلاى بعيدا ! »

وما كاد يتم عبارته حتى ظهر القادمون ، واتجهت الأنظار كلها الى الباب الذى كان ينتظر أن يلجه المسيو فوكيه ، ولكن لم يكن فوكيه هو الذى دخل .. بل ترددت فى القاعة صيحة رهيبة اشترك فيها فيليب وكل الحاضرين ، فقد بدا أمامهم فى الضوء الخافت منظر لم يكن أحد منهم يتوقع ان يراه حتى فى الأحلام !

كان القادم هو الملك لويس الرابع عشر نفسه ، وقد وقف شاحب الوجه مقطب الجبين بباب السلم السرى ، بينما ظهر وجه فوكيه وراءه !

وكانت الملكة الوالدة حين رأت هذا المنظر لا تزال ممسكة بيد فيليب ، فصاحت مرتاعة كأنها أبصرت شبحا أمامها !.. وذهل الأمير الأصغر وأخذ يردد بصره بين أخيه لويس الرابع عشر الواقف بجانبه وبين هذا الآخر الواقف بالباب وكأنه خيال فى المرآة ، وخطت الأميرة هنريتا خطوة الى الأمام وهى تفرك عينيها غير مصدقة أن ما تراه حقيقة !

والواقع أن لويس وفيليب كان كلاهما شاحب الوجه يرتجف جسمه وتنقبض يداه وقد أخذ كل منهما يفحص الآخر بنظراته وكان اعينهما تتبادل السهام !

وكان لويس قد مر باللوفر وبدل ملابسه فبدا هو وفيليب كأنهما شخص واحد !

ولم يكن فوكيه أقل دهشة وذهولا حين رأى فى فيليب تلك الصورة الحية للملك لويس الرابع عشر وقال لنفسه : « ان أراميس معذور حقا فى اختياره هذا الأسير ليحل محل شقيقه التوأم وشبيهه الى هذا الحد ! »

ومضت دقائق ساد خلالها سكون رهيب ، وكان دارتانيان مستندا الى الحائط امام فوكيه ، وقد وضع يده على جبينه يسائل نفسه : كيف حدثت هذه المعجزة ؟.. ثم اتضح له ما كان فى مسلك أراميس طول الأيام الأخيرة من خفاء يرتاب فيه !. ثم بدا كأن الحاضرين جميعا يستيقظون بجهد من نوم مضطرب . غير أن لويس كان أقلهم صبرا وأكثرهم اعتيادا للسلطان ، فجرى الى احدى النوافذ وفتحها على مصراعيها فى عنف مزق ستائرها !. وما غمر الضوء المكان حتى تراجع فيليب الى الوراء فى حركة آلية ، وانتهز لويس هذه الفرصة فخاطب الملكة الوالدة قائلا : « أماه . ألا تعرفين ولدك ما دام الجميع هنا لا يعرفون ملكهم ؟ »

فارتاعت الملكة آن ورفعت بصرها الى السماء دون أن تنطق ببنت شفة !

وعلى أثر ذلك التفت اليها فيليب بدوره وقال لها : « أماه .. ألا تعرفين

ابنك ؟ » . ولم يسع لويس الا ان يتراجع بدوره !. أما الملكة الوالدة ، فقد اشتد بها اضطراب الذهن وقلق الضمير ففقدت توازنها ولم يهرع أحد لعونها فسقطت على كرسي وهي تتنهد في الم واعياء . ولم يقدر لويس أن يصبر على هذا المنظر وتلك المهانة فاندفع نحو دارتانيان وكان هذا قد بدأ يحس دوارا فاستند الى الباب وقال له الملك : « ياكابتن ..انظر الى وجهينا وقل أينا أكثر شحوبا ، أنا أم هو ؟ »

فايقظت هذه الصيحة دارتانيان من ذهوله وحركت في نفسه عوامل الطاعة وهز رأسه ، ومضى بدون تردد صوب فيليب فوضع يده على كتفه قائلا : « سيدي .. انك سجيني ! »

فلم يتحرك فيليب من مكانه ، وبقي واقفا كأنه سمر به واخذ يحدق في وجه أخيه الملك ، ولم يبد هذا ازاء نظراته الصامتة البليغة الا ان يطرق متأثرا ، ثم رفع رأسه بغتة وسحب أخاه الآخر وقرينته هنريتا ، مخلفا وراءه امه الملكة جالسة بلا حراك ، وعلى مسافة ثلاث خطوات ولدها التعس الذي حكم عليه بالموت مرة أخرى !

وهنا اقترب فيليب منها وقال لها بصوت رقيق تغلبه العاطفة : « لو لم اكن ابنك للعنتك يا أماه اذ جعلتني بهذا الشقاء ! »

واحس دارتانيان رعدة تسري في جسده وانحنى باحترام للأمير وقال له : « معذرة يا صاحب السمو .. اني لست الا جنديا وقد اقسمت يمين الطاعة والولاء لذلك الذي غادر الغرفة توا ! »

فقال له فيليب : « شكرا لك . ولكن ماذا حدث للمسيو دربلاي ؟ »

فأجاب صوت وراءهما : « ان المسيو دربلاي في أمان يا صاحب السمو ، ولن يمس أحد شعرة في رأسه ما دمت حيا ! » . وكان فوكيه هو المتكلم ، فالتفت فيليب اليه وقال له بابتسامة حزينة : « شكرا لك يا مسيو فوكيه ! »

وهنا ركع فوكيه أمامه وقال : « معذرة يا صاحب السمو !. ولكن ذلك الذي خرج الآن من هنا كان ضيفي ! »

فتمتم فيليب قائلا : « هاهنا أناس شجعان ذوو نفوس عالية . انكم تجعلونني آسف على العالم . هيا بنا يا مسيو دارتانيان .. اني اتبعك ! »

وفي اللحظة التي هم فيها قائد الفرسان بالخروج من الغرفة مع أسيره ، جاء المسيو كولبير فسلم المسيو دارتانيان ورقة بها أمر من الملك ثم خرج ، وما ان قرأ دارتانيان هذا الأمر حتى سحق الورقة في يده ، فسأله فيليب : « ماذا فيها ؟ » . فلم يجب دارتانيان ، واكتفى بأن أعطاه الورقة

فقرأ فيليب الأسطر الآتية وقد كتبها الملك بسرعة بخط يده : « على المسيو دارتانيان أن يذهب بالسجين الى جزيرة سانت مرجريت بعد أن يغطي وجهه بخوذة حديدية لا يستطيع رفعها الا بخطر على حياته »

الوداع الاخير

افاد أراميس وبورتوس من المهلة التي أتاحها لهما فوكيه ، فأطلقا لجواديهما العنان ، ومضيا يطويان بهما المسافات الشاسعة بما عهد فيهما من براعة في الفروسية ، ولم يكن بورتوس يدري تماما نوع المهمة التي اشتركا في ادائها ، ولكنه رأى أراميس يعدو به جواده ففعل مثله . فلما بعدا من (فو) بمقدار اثنى عشر فرسخا ، وقفا لأول مرة لابدال الجوادين . وفي خلال ذلك سأل بورتوس أراميس همسا عما هما بسبيله فأجابه قائلا : « صه . يكفي أن تعلم أن حظنا يتوقف على سرعة جيادنا ! »

وكأنما عاد بورتوس فارسا شابا كما كان في سنة ١٦٢٦ فاستحث جواده وقد فعلت فيه كلمة أراميس عن الحظ والسرعة فعل السحر ثم حدث نفسه قائلا : « ترى أي حظ يجري وراءه الآن ؟. ان الحظ عادة يعني الكفاية لمن لا مال له ، ويعني الكثير الوفير لمن عنده ما يكفيه . ولا شك أن أراميس يعني أن الملك سيجعلني دوقا ! »

ولم يطق صبرا على الانتظار فصاح بأراميس قائلا : « أتعني أن الملك سيجعلني دوقا ؟ ». فلم يسع هذا الا أن ابتسم لسذاجة زميله القديم وقال له : « ربما ! » . على أنه برغم ابتسامه وجلده كان يكاد ينفجر لشدة الحنق والغيظ ، فزاد في ركض جواده وحثه على ذلك بسببه تارة وضربه تارة أخرى حتى سال الدم من جنبيه واضطر بورتوس برغم جمود احساسه الى أن يزمجر حانقا . وبقي الفارسان هكذا زهاء ثماني ساعات حتى وصلا الى (أورليانز) في الساعة الرابعة بعد الظهر . وأدرك أراميس أن اللحاق بهما فوق الاستطاعة ، وعلى هذا قرر الاستراحة حتى الساعة السابعة مساء ، على أن يستأنفا الرحلة لقطع الفراسخ العشرين الباقية امامهما بالسرعة نفسها ، وبعد ذلك لا يمكن لأحد — حتى دارتانيان نفسه — أن يدركهما !

وقبل أن يصلا الى (بلوا) ببضعة فراسخ ، صادفتهما عقبة كأداء ، لم تكن في حساب أراميس ، فقد سقط جواداهما لفرط الاجهاد ولم تكن هناك جياد أخرى ليستأجرا اثنين منها بدلا من الجوادين المتعبين . وكاد اليأس يتملكه ، ولكنه تذكر فجأة أن الكونت دي لافير يقيم على مقربة من المنطقة التي بلغاها ، فقال للمشرف على محطة البريد :

— اننا لا نطلب جيادا لمسافات بعيدة ، بل يكفي أن تأتينا بعربة نصل بها الى رجل من النبلاء يقيم على مقربة من هنا !

فسأله رجل البريد عن النبيل الذى يقصدانه ، ولما علم أنه الكونت دى لافير خلع قبعته اجلالا وقال : « انه نبيل عظيم حقا »

ثم سارع الى اعداد عربة ذات جواد واحد ، بينما كان بورتوس مسرورا معجبا بنفسه ، اذ حسب أنه أدرك أخيرا سر هذه الرحلة الغريبة ، وارتاح الى فكرة زيارة آتوس ، لشوقه الى لقاء هذا الصديق القديم ، ولحاجته الى التماس الراحة عنده فى فراش وثير بعدما لقيه من جهد وارهاق

ولما أعدت العربة أمر رجل البريد تابعا له بأن يسوقها براكبيها الى مزرعة الكونت دى لافير ، وجلس بورتوس الى جانب أراميس ثم همس فى اذنه قائلا : « لقد فهمت ! »

فقال له أراميس : « وماذا فهمت يا صديقى ؟ »

فقال : « اننا قادمان من قبل الملك لنعرض على آتوس أمرا عظيما ! . اليس كذلك ؟ »

وسكت أراميس مكتفيا بابتسامة غامضة ، فواصل بورتوس كلامه قائلا :

ـ لست فى حاجة الى أن تخبرنى عن ذلك الأمر ، ان فى استطاعتى أن أدركه من تلقاء نفسى !

فقال أراميس : « حسنا ! » . ولم يزد على ذلك

ووصلا الى دار آتوس فى الساعة التاسعة مساء ، وكانت الليلة مقمرة فزاد ضوء القمر من سرور بورتوس وتفاؤله ، ولما لاحظ على أراميس أنه ما زال ساهما ، قال له هامسا وهو يهم بالنزول من العربة :

ـ لا شك أن المهمة سرية يا أراميس ، على أنى فهمت على كل حال !

ولم يجب أراميس ، بل نزل من العربة أمام القصر الصغير ، وذهنه مشغول بما هو فيه !

كان راءول قد غادر باريس بعد أن وقف على خيانة لافالير له . وراح يعزى نفسه بأن الجرح الذى أصاب قلبه كان له الفضل فى أن قربه من أبيه ، والواقع أن ذلك الجرح لم يكن قد اندمل ، ولكن أحاديث أبيه معه كانت تنزل على قلبه بردا وسلاما ، اذ أخذ هذا يعزيه ويرفه عنه بما يقص عليه من ذكريات شبابه ، محاولا أن يدخل فى روعه أن الألم الذى يحسه ازاء خيانة حبيبته يكاد يكون لازمة من لوازم الحياة . على أن راءول كان كثيرا ما يصغى الى حديث والده بانتباه دون أن يفقه شيئا منه ، لعجزه عن تناسى ذكرى الحبيبة التى هجرته . وكان أحيانا يرد على حجج أبيه قائلا :

ـ ان كل ما تقوله حق ، ولعل أحدا لم يتألم من جراء عاطفته كما تألمت

انت ، ولكنك رجل خارق الذكاء حنكتك المآسى ، ولذا أرجو أن تعفو عن ضعف جندى شاب مثلى يتألم لأول مرة ، انى أدفع جزية لن ادفعها مرة أخرى . فاسمح لى أن أغوص فى قرارة حزنى حتى أنسى نفسى !

وكان الكونت أول الامر يحاول أن يقنع ولده بأن خطيبته لا تستحق منه الا الاهمال ، لتعمدها خيانته والاساءة الى كرامته . ولكن راءول قال له يوما وهو يحاوره : « يا سيدى : انى لا أقدر أبدا أن أعتقد أن لويز الطاهرة البريئة خدعت محبا صادق الحب مثلى ، أو أن وجهها العذب الجميل كان يخفى وراءه تلك الدعارة والدناءة ! آه يا سيدى ، ان هذه الفكرة أقسى على من الموت ! »

ومنذ ذلك اليوم لم يسع آتوس الا أن يعدل خطته ، فعمد الى وسائل جديدة لمواساة ولده وشفائه من ذلك الغرام المكين ، ومن ثم اخذ يدافع عن لويز قائلا له : « ان المرأة التى تستسلم للملك لا لشىء سوى أنه ملك تستحق أن توصف حقا بالفجور ، ولكن لويز تحب لويس لشخصه ، وهما فى غرامهما وشبابهما قد نسيا مركزيهما ، فهو قد نسى أنه الملك وهى قد نسيت يمين الاخلاص لك ، ان الحب يحرر الانسان من روابطه يا بنى ! »

وكان راءول حين يسمع مثل ذلك من أبيه يهرع الى الغابة أو يعتكف فى غرفته ، ثم يعود اليه بعد ساعة فيقبل يده ويجلس بين يديه مستأنفا سماع نصائحه وارشاداته !

وهكذا مضت الأيام منذ ذلك الموقف الذى اختلف فيه آتوس مع الملك . غير أنه لم يشر الى ذلك الموقف أية اشارة وهو يحدث ولده ، ولم يذكر له قط تفصيل ما قاله للملك . حتى اذا لج راءول فى سخطه وغضبه ، لم يسع والده أن يعارضه ، بل قال له بصوته الرزين : « انك على حق يا راءول . ولكن يجب على الناس جميعا ، رجالا ونساء ، حكاما ورعية ، أن يعيشوا فى الحاضر لأن المستقبل بيد الله وحده ! »

وقد جرى هذا الحديث الاخير بينهما وهما يسيران معا فى الطريق الذى تظلله أشجار الليمون فى حديقة الدار ، وانهما لكذلك اذ وصل الى سمعهما رنين الجرس الذى يدق عادة عند اعداد المائدة أو قدوم زائر ، فاتجها صوب الدار ، وهناك عند نهاية الدرب وجدا نفسيهما وجها لوجه أمام أراميس وبورتوس !

ولما فرغوا من العناق والتحيات قال أراميس لصديقه القديم آتوس : « اننا لن نمكث معك طويلا يا صديقى »

فسأله الكونت : « ولم لا ؟ » . وكذلك التفت اليه راءول وفى نظراته مثل هذا التساؤل . وهم أراميس بأن يجيب ، ولكن بورتوس سبقه قائلا : « لن نمكث سوى الوقت الذى نحدثكما فيه عن الحظ السعيد الذى واتانى ! »

فاشتد عجب راءول ، بينما نظر أبوه فى صمت الى أراميس وكأنه لا يرى فى الجد البادى عليه ما يتفق مع ما قاله بورتوس . وبعد هنيهة قال راءول

لبورتوس وهو يبتسم : « ما هو ذلك الحظ السعيد الذى أتيح لك ؟ »

فهمس بورتوس فى أذن الشاب قائلا : « ان الملك جعلنى دوقا ! »

وكان همس بورتوس كما هو شأنه دائما من الارتفاع بحيث سمعه جميع الحاضرين ، فبدت الدهشة فى وجه آتوس وهم بالكلام ولكن ارامبس امسك يده وانتحى به جانبا حيث قال له : « يا عزيزى آتوس .. انك ترانى فى أشد حزن »

فقال الكونت : « فى أشد حزن ؟ لماذا يا صديقى العزيز ؟ »

فقال ارامبس : « لقد تآمرت على الملك وفشلت المؤامرة ، وانا فى هذه اللحظة مطارد بلا ريب ! »

فازدادت دهشة آتوس وقال : « مؤامرة على الملك ومطاردة ؟ ! ما هذا الذى تقوله يا صديقى ؟ ! »

فتنهد ارامبس وقال : « هذه هى الحقيقة المؤلمة مع الأسف الشديد ! »

فسأله آتوس : « اذن ما معنى قول بورتوس ان الملك جعله دوقا ؟ »

فأجاب بقوله : « ان هذا أشد ما يؤلمنى يا صديقى . فانا قد اشركت بورتوس فى المؤامرة لشدة ايمانى بنجاحها ، وسرعان ما اندفع اليها على عادته بكل قوته ، دون أن يدرى شيئا من أمرها ، وهو الآن متهم مثلى وقد ضاع كما ضعت ! »

وهنا التفت آتوس الى بورتوس ، فوجده يتحدث مسرورا مع راءول ، بينما استطرد ارامبس فقال : « يجب أن اطلعك على الامر بحذافيره يا آتوس »

ثم أخذ يقص عليه ما حدث . وكان آتوس يستمع له والعرق يتصبب من جبينه ، واخيرا قال له : « لقد كانت فكرة عظيمة . ولكنها كانت أيضا غلطة جسيمة ! »

فقال ارامبس : « وانا الآن القى جزائى عليها ! »

فسكت آتوس هنيهة ثم قال : « اذا شئت أن تسمع رأيى صريحا يا صديقى ، فانت قد جنيت على نفسك وعلى بورتوس المسكين أكبر جناية . وكان عليك الا تنسى أن فوكيه رجل شريف لا يمكن أن يقرك على تلك المؤامرة الخطيرة ، ولا سيما انك اخترت قصره لتنفيذها »

فقال ارامبس : « لا شك أنى كنت احمق اذ لم أعرفه على حقيقته ، على أن الحرص والحذر لا يغنيان شيئا عن المرء ازاء مشيئة الأقدار »

ثم سأله آتوس : « ماذا تعتزمه الآن وقد انتهى الامر ؟ »

فأجاب قائلا : « سآخذ بورتوس معى ، لأن الملك لن يصدق ابدا انه اشترك معى فى المؤامرة بحسن نية . ولا انه كان طول الوقت يعتقد انه يخدم الملك . انه سيدفع راسه ثمنا لغلطتى وهذا لا يصح أن يكون »

فعاد آتوس يسأله : « الى اين تذهبان ؟ »

فقال : « سنذهب أولا الى (بل ــ ايل) فهى مرفأ منيع ، ثم هناك البحر وفى الامكان ركوب سفينة تصل بنا الى انجلترا حيث لى أصدقاء كثيرون ! »

وغمغم آتوس متعجبا : « انت لك أصدقاء فى انجلترا ؟ ! » . بينما واصل ارامبس كلامه فقال :

ــ وفى الامكان أيضا أن نذهب الى اسبانيا حيث لى أصدقاء اكثر عددا ، وهناك أستطيع أن أحصل على عفو من لويس الرابع عشر ، وأن اعيد بورتوس الى حظوته لديه !

فابتسم آتوس وقال : « انك تستمتع بنفوذ كبير يا ارامبس »

فقال ارامبس : « وساكون فى خدمة اصدقائى دائما . اننى لست وحدى الساخط على لويس الرابع عشر ، وليتك وراءول تلحقان بنا الى (بل ــ ايل) حيث أنه لن يمضى شهر واحد حتى يقوم النزاع بين اسبانيا وفرنسا من اجل حبس فيليب ابن لويس الثالث عشر وهو أميراسبانى بتلك الطريقة المنافية للانسانية ، ولما كان لويس الرابع عشر لا يميل الى نشوب حرب بشأن هذا الموضوع ، فانا كفيل بالوصول الى تسوية تأتى بالمجد لبورتوس ولى ، وبدوقية فى فرنسا لك انت الذى صرت نبيلا أسبانيا من قبل ! »

فقال آتوس : « شكرا لك يا صديقى العزيز ، ولكننى أوثر أن أبقى على ما انا عليه ، فهذا يتيح لى أن أشبع رغبتى فى السمو على الملك ولومه كما تعلم ، اما اذا نفذت اقتراحك فان ما اربحه من وراء هذا مهما يكن جزيلا لا يزازى تأنيب ضميرى على اذلال كبرياء سلالتنا والنزول الى صفوف اذناب الملك ! »

وهنا قال له ارامبس : « اذن اعطنى جوادين من عندك لنركبهما الى المحلة الاخرى ، فقد رفض رجل البريد أن يعطينى جيادا بحجة أن دوق بوفور أخذ جياده كلها ! »

فقال له آتوس : « سيكون لك أحسن جيادى يا ارامبس . ومرة اخرى أوصيك خيرا ببورتوس »

فابتسم ارامبس وقال : « لك أن تطمئن عليه كل الاطمئنان »

فقال آتوس : « ان الملك لا يمكن ان يعفو عنه ، اما انت فان المسيو فوكيه أن يتخلى عنك وان كان هو نفسه فى موقف شديد الحرج برغم عمل البطولة الذى قام به »

فأومأ ارامبس موافقا وقال : « انت على حق . ولهذا آثرت أن ابقى على أرض فرنسية بدل أن ألجأ الى البحر مباشرة ، هذا الى أن جزيرة (بل ــ ايل) ستكون لى كما أريد ، سواء أحسبتها انجليزية أم أسبانية أم رومانية . لأننى توليت تحصينها بنفسى ، وما دمت اتولى الدفاع عنها فلن يستولى عليها أحد ، ثم ان المسيو فوكيه هناك كما قلت أنت منذ لحظة . ولن تهاجم الجزيرة الا باذنه وتوقيعه »

فقال آتوس موافقا : « هذا صحيح يا أراميس ، ولكن لا تنس أن الملك يجمع بين القوة والدهاء ، فكن دائما على حذر »

فابتسم أراميس وعاد آتوس يقول : « مرة أخرى أوصيك خيرا ببورتوس » . ثم شد على يديه مشجعا ومودعا ، وعادا الى حيث كان بورتوس ما يزال منهمكا فى الحديث مع راءول عن الدوقية التى ينتظرها ، فتعانقوا جميعا ، ثم خرج راءول ليأمر باعداد الجوادين طوعا لاشارة أبيه ، وقال بورتوس فى سذاجته المحببة :

ــ حقا لقد ولدت تحت كوكب سعد . أليس كذلك يا آتوس ؟

فأومأ آتوس موافقا ، وما كاد يرى صديقيه القديمين يهمان بالرحيل حتى أحس غشاوة على عينيه وضيقا فى صدره ، وقال لنفسه : « لا أدرى لماذا أميل الى أن أعانق بورتوس مرة أخرى ؟ » . وكان الجوادان قد أعدا ، فنهض بورتوس وعانق آتوس وراءول ثم ركب جواده ، وكذلك فعل أراميس . وبقى آتوس يرقبهما وهما يبتعدان فى الطريق برداءيهما الابيضين ، وكانا أشبه بشبحين يكبران وهما يبعدان عن الارض ، لكنهما لم يختفيا فى الضباب مثل الأشباح ، بل اختفيا عند منحدر الطريق .

وهنا عاد صوب الدار وهو يقول لابنه فى صوت حزين :

ــ لست أدرى ماذا دهانى ؟ ان قلبى يحدثنى بأنى لن أرى هذين الصديقين مرة أخرى !

فقال راءول : «ان ذلك لايدهشنى لأنى أنا أيضا شعرت بهذا الشعور ! »

فقال أبوه : « انك يا عزيزى حزين لسبب آخر يجعلك ترى الأشياء كلها سوداء . على أنك ما زلت شابا فاذا قدر ألا ترى هذين الصديقين الشيخين مرة أخرى لأنهما لن يكونا فى هذا العالم ، فان أمامك سنوات كثيرة تحياها ، أما أنا ... »

وسكت الكونت دون أن يتم عبارته ، فهز راءول رأسه أسفا ، ومال على كتف الكونت دون أن يجد أحدهما كلمة يقولها ليفرج عن قلبه المكروب

وانهما لكذلك اذا بأصوات تأتى من نهاية الطريق المؤدية الى (بلوا) وجياد ترمح بفرسانها وحملة مشاعل يجرون متفادين الجياد ، وكان هذا المنظر وسط الليل على طرفى نقيض من منظر أراميس وبورتوس وهما يختفيان وسط الظلام !

بين الحب والحرب

ما كاد آتوس وراءول يعودان الى المنزل حتى رأيا ضوء المشاعل يغمر مدخله وسمعا صائحا يقول : « سمو دوق بوفور ! » . فجرى آتوس الى الباب ليستقبل الدوق القادم ، وكان هذا قد ترجل عن جواده ووقف ينظر حوله . فهتف به آتوس قائلا :

ــ انى هنا يا صاحب السمو

فقال الدوق : « عم مساء يا عزيزى الكونت . لعل الوقت ليس وقت زيارة . ولكن هذا لا يهم كثيرا بين الاصدقاء »

فاقترب منه آتوس مرحبا ، وصافحه الأمير بحرارة، ثم دخل معه المنزل مستندا الى ذراعه ، وتبعهما راءول ومعه ضباط الأمير ، وكان يعرف كثيرا منهم . ولما وصلا الى غرفة الجلوس أراد أن يتركهما وحدهما فيها ليلحق بأولئك الضباط فى الغرفة الاخرى التى نزلوا فيها ، ولكن الدوق لمحه فقال لوالده :

ــ دعه يبق معنا . انه جندى من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وقد سمعت عنه ثناء كثيرا من المسيو (لى برانس)

فصاح آتوس بولده : « ابق معنا يا راءول ما دامت هذه ارادة الدوق »

وقال الدوق وهو ينظر الى الفتى مليا : « انه طويل القامة وسيم الوجه . ألا تعطينى اياه يا كونت ؟ »

فقال له آتوس متعجبا : « أعطيك اياه ؟! .. ماذا تقصد يا صاحب السمو ؟ »

فقال الدوق : « لقد جئت اليك لكى أودعك ، ولعلك لا تدرى أى مصير اخترته لنفسى أو اختاره لى الملك ! »

فقال آتوس : « أنا أعرف أنك أمير باسل وسيد كامل »

وواصل الدوق كلامه قائلا : « سأصير أميرا افريقيا وسيدا من أسياد البدو ! . ان الملك عهد الى فى القيام بفتوحات فى افريقية »

فازداد تعجب آتوس وقال : « ما هذا الذى تقوله يا صاحب السمو ؟ »

وقال الدوق وهو يبتسم : « انه لأمر عجيب حقا أن أنتقل الى هناك أنا الباريسى حاكم الضواحى الذى لقبه الناس بملك الاسواق ، وأحد قواد

الحرب الداخلية . ولكن هذه هى الحقيقة يا صديقى ، وعما قريب يتم اعداد الحملة وابحارها الى تلك الاصقاع »

فقال الكونت : « حقا ؟. لولا أنك قلت لى ذلك بنفسك ما كنت لأصدق حرفا منه ! »

فقال الدوق : « هذه عاقبة العودة الى الحظوة عند الملك يا صديقى ، ولكنك لم تعلم بعد يا عزيزى الكونت لماذا قبلت هذه المهمة ؟ »

فقال الكونت : « أنا أعلم أن سموك تبحث عن المجد قبل كل شىء »

فابتسم الدوق وقال : « أكبر الظن أنى سألقى هناك شيئا غير المجد !. لقد أردت يا صديقى أن تكون لحياتى هذه الخاتمة بعد كل الأهواء التى اتبعتها خمسين سنة . وأية خاتمة أروع من هذه ، لحياة انسان مثلى ولد حفيدا لملك واشترك فى حروب ضد ملوك ، واستطاع أن يحتفظ برتبته وأن يكون قائد البحرية الفرنسية ؟.. انى ذاهب الى (جيجلى) بأفريقية يا عزيزى الكونت لكى أقتل هناك بين الأتراك والمغاربة ! »

فقال آتوس : « كيف تقول ذلك يا صاحب السمو ؟. كيف تتصور أن حياة مجيدة كحياتك يمكن أن تنطفىء هكذا فى عتمة وشقاء ؟! »

فنظر اليه الدوق متعجبا وقال : « لا تظن ياعزيزى أنى بانهاء حياتى على هذا النحو فى افريقية سأكون مغبونا !.. ولا تنس أنى سأجعل الناس يتحدثون عن فعالى هناك ويذكرون اسمى بجانب (لى برانس) و (دى تورين) وغيرهما من الابطال المعاصرين.وهكذا تجد أنى لم يبق أمامى سوى أن أرحل الى ميدان القتال لأظفر بتلك الخاتمة الرائعة ان لم يكن فى شمال أفريقية ففى بقعة أخرى من الارض ! »

وهنا قال له آتوس : « انك تغالى يا صاحب السمو ، وما عهدتك قبل الآن مغاليا الا فى اظهار الشجاعة ! »

فابتسم الدوق ساخرا وقال : « يا صديقى العزيز .. ان الشجاعة الآن هى مواجهة داء الأسقربوط ومرض الدوسانتاريا والجراد والسهام السامة كما فعل سلفى (سان ــ لويس) .. نعم ان القوم هناك لا يزالون يستخدمون السهام السامة فى حروبهم ، وأنت تعرفنى حق المعرفة،وتعرف أنى اذا عزمت على أمر فانى أبذل فيه قصارى ما أملك من جهد ونشاط »

فقال آتوس مبتسما : « أجل يا صاحب السمو ، أنا أعرفك حق المعرفة، ولم أنس بعد تصميمك على الفرار من (فينسين) منذ سنين »

فقال له الدوق : « وأنا لم أنس مساعدتك لى فى ذلك . ولهذه المناسبة أين المسيو (فوجريمو) ؟. ألم يأت معك الى هنا ؟ »

فقال آتوس : « ان جريمو لا يزال خادمك المخلص ، وستراه الآن »

فقال الدوق : « حسنا !. ان معى مائة بستول أحضرتها معى تنفيذا لوصيتى التى أعددتها ! »

وهنا ضحك الدوق ثم التفت الى راءول وقال له : « انى أعلم أن عندكم هنا مقدارا من نبيذ فوفراى وأحسب ... »

فخرج راءول من الغرفة فورا لكى يأمر باحضار النبيذ ، وعندئذ أمسك الدوق بوفور بيد آتوس وسأله : « ماذا اعتزمت أن تصنع بهذا الشاب ؟ »

فقال آتوس : « لا شىء فى الوقت الحاضر يا صاحب السمو »

فقال الدوق : « اذن فالأمر صحيح !.. عجيب حقا أن يقع الملك فى غرام تلك الفتاة ، وأظن أنى رأيت لافاليير هذه ... انها ليست فائقة الجمال !. على أنها تذكرنى بسيدة لطيفة كانت أمها تقيم فى هالى ، ألا تذكر يا كونت ؟ »

فابتسم آتوس وزفر زفرة حرى ، بينما استطرد الدوق فقال : « ماكان أجمل الايام الماضية !.. أجل ان لافاليير تذكرنى بابنة تلك السيدة »

فقال آتوس : « لقد كان لها ابن أيضا !.. أليس كذلك ؟ »

فقال الدوق : « نعم ، أظن أنهاكان لها ابن..لكن خبرنى أولا يا كونت: هل راءول غاضب لأن الملك أخذ منه فتاته ؟ »

فأجاب آتوس قائلا : « انه فعل ما هو خير من ذلك..لقد اعتزل القصر الملكى ! »

فقال الدوق متعجبا : « اذن .. لماذا تدعه للصدأ يعلوه هنا ؟ .. انك مخطىء يا كونت . أعطنى اياه ! »

فقال آتوس : « الواقع أنى أحب أنأبقيه معى ما دام يقبل هذا،وبخاصة أنى ليس لى ابن سواه ! »

فقال الدوق : « انى أتبين فيه معدن الرجولة الذى خلق منه قواد فرنسا العظام . ونظرى لا يخطىء ! »

فهز الكونت رأسه أسفا وقال : « ماذا نصنع يا صاحب السمو ؟. ان الملك وحده هو الذى يرفع الضباط الى مرتبة القواد . وراءول لن يقبل أى شىء من الملك ! »

وقطع حديثهما أن عاد راءول للغرفة ، وخلفه جريمو يحمل صينية عليها زجاجة من النبيذ الذى يؤثره الدوق ، ولما رأى هذا محسوبه القديم صاح صيحة فرح وقال : « جريمو ؟. عم مساء يا جريمو .. كيف حالك ؟ »

فانحنى الخادم بين يديه فى اجلال ووجهه يفيض بالسرور ، بينما ربت الدوق كتفه ملاطفا وقال للكونت : « اننا صديقان قديمان ! » . ثم نظر الى الصينية وقال : « ما هذا يا كونت ؟!. كأس واحدة ؟ »

فقال الكونت : «انه ليس لى أن أجرؤ على الشرب مع سموك الا اذا أذنت لى فى ذلك ! »

فقال الدوق : « أهكذا ؟.. اذن قد أصاب جريمو اذ جاء بكاس واحدة لأننا سنشرب منها معا ! »

فقال آتوس : « ان هذا شرف كبير لى يا صاحب السمو »

وملأ الدوق الكأس وشرب بعضها ثم ملأها وناولها لآتوس فشربها وأعادها أمام الدوق ، فأخذ يملؤها قائلا : «انى لا أزال ظمآن ! »٠ ثم التفت الى راءول وواصل كلامه قائلا : « ثم انى أريد أن أشرب نخب هذا الشاب الوسيم ٠ انى أحمل معى حسن الحظ يا فيكونت !٠ وفى استطاعتك أن تتمنى أى شىء يخطر ببالك وأنت تشرب من كأسى هذه فتتحقق أمنيتك ! »

ومد الى راءول يده بالكأس ، فتناولها وتجرعها مرة واحدة ، ثم انحنى للدوق قائلا : « لقد تمنيت شيئا يا صاحب السمو !٠ وأرجو أن تنجز وعدك بتحقيق أمنيتى ! »

فقال له الدوق مبتسما : « لك هذا يا فيكونت !٠٠ ماذا تمنيت ؟ »

فقال راءول : « تمنيت أن أصحب سيدى الدوق الى جيجلى ! »

فامتقع وجه آتوس ولم يستطع أن يخفى تأثره ، ونظر اليه الدوق كأنه يريد أن يعاونه على تحمل هذه الصدمة ٠ ثم قال لراءول : « حسنا جدا يا عزيزى الفيكونت ٠ ولكن والدك يحب ألا تتركه ٠ على أنك على صواب ٠ فليس هنا ما تستطيع عمله ، أوليس هنا ما ينسيك ما تحاول نسيانه ! »

فاحمر وجه راءول ، بينما استطرد الدوق فقال : « ان فى القتال تسلية عظيمة ولا شك !٠ ونحن نكسب به كل شىء ، ولا نخسر سوى شىء واحد هو الحياة ! »

فقال راءول : « حتى فى هذه الحالة يكون هناك كسب عظيم ! »

وقد ندم على هذه الكلمة ، لأن أباه قام على أثرها وتظاهر بفتح النافذة لكى يخفى تأثره ، وهم راءول أن يلحق به ، ولكن آتوس كان قد تمالك جأشه فعاد الى مجلسه بادى الهدوء والسكينة ، ثم قال الدوق : « اذا ذهب معى راءول فسيكون أركان حربى ، بل سيكون ولدى ! »

فجثا راءول على احدى ركبتيه بين يدى الدوق وقال : « شكرا كثيرا يا صاحب السمو ! »

وقال آتوس وهو يمسك بيد الدوق : « ان راءول سيفعل ما يعجبه ! »

فقال راءول : « لا ٠٠ بل سأفعل ما يعجبك أنت يا أبتاه ! »

فصاح بهما الدوق قائلا : « سيكون ما يعجبنى أنا !٠ وقد قررت أخذك معى يا عزيزى راءول ٠٠ ان البحرية تهىء لك مستقبلا باهرا ! »

فابتسم راءول ابتسامة حزينة كان لها فى نفس أبيه أثر شديد فنظر اليه نظرة صارمة ٠ ثم قام الدوق وقد لحظ أن الوقت تأخر به وقال : «انى على عجل !٠ ولكن اذا كنت قد ضيعت وقتا فى التحدث الى صديق قديم فقد كسبت جنديا بارعا ! »

فقال له راءول : « معذرة يا صاحب السمو ، أرجو ألا تخبر الملك بذهابى معك لأنى لا أقصد أن أخدمه ! »

فالتفت اليه الدوق وقال له : « ماذا تقول يا صديقى ؟!٠ ومن الذى تخدمه اذن ؟!٠٠ لقد مضى العهد الذى كان يمكنك أن تقول فيه : انى من جيش دوق بوفور ! اننا الآن كلنا فى خدمة الملك كبارا وصغارا ٠ فأنت اذ تصبح من رجال أسطولى يا عزيزى الفيكونت ، ستكون فى خدمة الملك ولا شك ! »

ونظر آتوس الى راءول منتظرا ما يجيب به وقد أمل أن يكون فيما ذكره الدوق عقبة فى سبيل ذهابه معه ، ولكن هذا أجاب قائلا : « يا سيدى الدوق ٠٠ لقد فكرت فى الأمر ٠ وسأخدم على ظهر سفنك لان هذا يشرفنى ، ولأنى فى الوقت نفسه سأكون فى خدمة سيد أعظم سلطانا من الملك ٠ سأكون فى خدمة الله ! »

وتبادل الدوق والكونت نظرة متسائلة ٠ فمضى يوضح الأمر قائلا :

ـ الواقع أنى اعتزمت أن أصبح فارسا من فرسان مالطة !٠ أن أهب حياتى كلها خالصة لله !

فترنح آتوس من هذه الصدمة الجديدة وغلب التأثر الدوق ، وسقطت من يد جريمو زجاجة النبيذ وتحطمت دون أن ينتبه اليها أحد ٠ ثم نظر الدوق الى راءول مليا فلما تبين صدق العزم فى ملامحه سكت ولم يقل شيئا ٠ أما آتوس فكان يعرف قوة ارادة ولده ، ولهذا لم يجد فائدة من محاولة ارجاعه عن عزمه ٠ فضغط يد الدوق الممدودة اليه ساكتا ، وقال هذا وهو يودعه : « سأسافر بعد يومين الى طولون ، فهل تقابلنى فى باريس لأعرف ما عولت عليه ؟ »

فأجابه الكونت : « سيكون لى شرف مقابلتك فى باريس لكى أقدم لك شكرى على عطفك الجم ! »

فقال الدوق : « اذن ٠٠ لا تنس أن تحضر الفيكونت معك ، سواء أكان سيذهب معى أم لا ٠ لقد أعطيته كلمتى ولكن بقى أن أعرف كلمتك أنت ! »

ثم جذب الدوق أذن جريمو ملاطفا ، ومضى الثلاثة يودعونه حتى ركب جواده وانطلق به ومن خلفه ضباطه على جيادهم ، وسرعان ما انطلقت بهم الجياد مسرعة بعد أن أخذت كفايتها من الراحة !

وحينما خلا آتوس الى راءول قال له : « أبعد يومين تكون قد تركتنى الى الأبد يا راءول ؟! »

فأجابه بقوله : « اننى يا سيدى كنت قد اعتزمت أن أطعن قلبى بسيفى ولكنى عدلت مخافة أن تعد هذا جبنا من ولدك ٠ وهذه هى فرصة طيبة قد لاحت لانقاذى من ذلك المصير المهين ، ومن ميتة أحقر وأمر اذا أنا بقيت هنا فريسة للحزن أو الحب الخائب ! »

وأوى آتوس الى فراشه بعد ذلك ٠ أما راءول فذهب الى الحديقة ومضى بقية الليل تحت أشجار الليمون هناك !

ذو القناع الحديدى

مضت الرحلة فى سبيلها ، وكان آتوس وولده يقطعان أرض فرنسا من الشمال الى الجنوب بمعدل خمسة عشر فرسخا فى اليوم.ووصلا أخيرا الى طولون بعد سفر أسبوعين وقد فقداكل أثر لدارتانيان فى الانتيب.وأدركا أن قائد الفرسان قد حرص فى طريقه على اخفاء شخصيته . وقد أسف راءول اذ لم يقابل دارتانيان فقد ود لو يودعه ويلتمس العزاء من صلابته. وكان آتوس يعلم أن دارتانيان يصيبه البكم كلما أراد القيام بمهمة فى خدمة الملك !

ولما بدأ راءول يجمع عمارته البحرية ليرسلها الى طولون ، علم الكونت من أحد صيادى السمك أن سفينته يجرى أصلاحها بعد رحلة قامت بها لحساب سيد استأجرها منذ ستة أيام للتوجه الى جزيرة (سان ـ أونورا) وكان مع ذلك السيد صندوق كبير وعربة أصر على أخذهما معه.ولما عارض الصياد كان جوابه أن ضربه بعصاه ضربات موجعة على كتفيه ، فشكاه الصياد الى رئيس نقابته فى الانتيب ، وما كاد هذا يطلع على ورقة أبرزها له ذلك السيد حتى انحنى اجلالا له وأمر بوجوب الامتثال لمشيئته دون أية معارضة .

فقال له آتوس : « كيف أصيبت سفينتك ؟ »

فأجاب الصياد : « ان ذلك السيد غير رأيه فى الطريق الى (سان‌أونورا) وطلب التوجه الى جزيرة سان مرجريت ، وقد حاولت أن أعصى أمره ولكنه أمسكنى من عنقى وهددنى بأن يخنقنى !. ثم حدث أن هجمت عليه بمساعدة زميلى ومع كل منا بلطة لكى ننتقم منه ، ولكنه سرعان ما جرد سيفه وأخذ يعمله بطريقة عجيبة حالت دون اقترابنا منه،وهنا هممت بأن‌أرميه بالبلطة التى معى ، واذا بالصندوق الذى معه يفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة وعلى وجهه قناع أسود جعل منظره بشعا مخيفا ، ثم اقترب الشبح منى مهددا بقبضة يده ! »

فسأله آتوس : « من كان ذلك الشخص أو الشبح كما تسميه ؟ »

فقال الصياد : « لقد كان الشيطان نفسه ، ولكن السيد خاطبه عندئذ قائلا : (شكرا لك يا صاحب السمو) .. »

فتمتم الكونت وهو ينظر الى راءول قائلا : « انها لقصة عجيبة ! »

وسأل راءول الصياد : « ماذا فعلت أنت بعد ذلك ؟ »

« واذا بالصندوق ينفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة »

فأجاب : « انك تعرف يا سيدى أن رجلين مثلى وزميلى لا يستطيعان أن يواجها خصمين عنيدين أحدهما شيطان ، وعلى هـــذا قفزنا الى الماء نطلب النجدة ، بينما مضت السفينة الى سانت مرجريت تساعدها ريح غربية • ولما استعدناها بعد ذلك لم نجد بها أحدا ، وقدمت شكوى الى حاكم الجزيرة فأنذرني بالجلد اذا ضايقته مرة أخرى بمثل هذه القصة مؤكدا سخافتها ، برغم التلف الذى أصاب السفينة وطلب النجار لاصـــلاحه مائة وعشرين ليفر ! »

وهنا قال الكونت للصياد : « ســـنعفيك من الخدمة » • ثم صرفه وقال لراءول : « سنذهب الى سانت مرجريت • أليس كذلك ؟ »

فقال راءول : « أجل يا سيدى ، ويخيل الى أن ذلك الصياد لم يصدقنا القول »

فقال الكونت : « هذا ما أرجحه أنا أيضا • ولعل ذلك الصـــندوق كان يحتوى على مؤونة مهربة • غير أنى أخشى أن يكون ذلك السيد هو دارتانيان ، وأن يكون ذلك الصياد وزميله قد نالا منه ما عجزت عنه السيوف والرصاص خلال أربعين سنة ! »

وفى اليوم نفسه أبحرا قاصدين الى سانت مرجريت على ظهر زورق جيء به من طولون • ولما هبطا أرض الجزيرة سرا بمنظرها اذ كانت أرضها مملوءة بالازهار والفاكهة • وكان الجزء المزروع بها بستانا للحـاكم ، به أشجار البرتقال والليمون والتين ، وكانت العصافير الملونة تنتقل بين الاشـجار والغصون • وكلما سار آتوس وراءول صادفهما أرنب برى روع من مرآهما • وكانت هذه الجزيرة غير مسكونة وأرضها مبسوطة وبشاطئها خليج صغير يصلح لرسو السفن وإبحارها • وكان مهربو البضائع يستخدمونها مرفأ لهم تحت حماية الحاكم الذى يشاركهم أرباحهم ، ويقطن قلعة تحيط بهـا بركة عميقة تحميها ولها ثلاثة أبراج

وطاف آتوس وراءول حول سياج الحديقة دون أن يلقيا أحدا يقدمهما الى الحاكم • وأخيرا دخلا الى الحديقة ــ وكان ذلك فى أشد ساعات القيلولة ــ فلم يريا أحدا فيها أول الأمر ، ثم وجدا جنديا يحمل سلة مملوءة بالمؤونة فوق رأسه ، ولكنه سرعان ما اختفى خلف كشك الديدبان ، ثم سمعا بغتة صوتا يصيح بهما من خـلال قضبان نافذة ، وأبصرا يدا تلوح بشيء أبيض لامع سقط على الارض ، فجرى راءول نحوه والتقطه فوجده طبقا فضيا كتب عليه بحافة سكين ما يأتى : « انى أخو ملك فرنسا • انى سجين اليوم وقد أكون مخبول العقل غدا • أيها السادة الفرنسيون المسيحيون : صـــلوا لله من أجلى ! »

وسقط الطبق من يد آتوس بينما كان راءول يحاول أن يفهم معنى لهذه الكلمات ، وفى اللحظة نفسها سمعا طلقة من البرج الاوسط ، ومرت فوقهما رصاصة أطلقت من البرج • فصاح آتوس قائلا : «رباه ! ان الناس يقتلون

هنا ! » • ثم وجه كلامه الى مصدر الطلقات قائلا : « اهبطوا الينا أيهـــا الجبناء ! »

وهز راءول قبضة يده صائحا : « أجل اهبطوا الينا ! »

وهم أحد المهاجمين أن يطلق الرصاص ، ولكنه لما سمع صيحة آتوس وراءول رد بصيحة دهشة ، ودفع بندقية زميل له ، فانطلقت رصاصتها فى الهواء • ثم اختفيا من الشرفة ، فانتظر آتوس وراءول أن يأتيـــا اليهما ، ووقفا ينتظران فى ثبات وعزم • وبعد خمس دقائق قرع طبل لدعوة الجنود الثمانية الذين بالحصن الى التأهب ، فظهروا على الجانب الآخر من الحفرة وبنادقهم فى أيديهم • وكان عـلى رأســـهم ذلك الضابط الذى كان أطلق الرصاص ، ورآه راءول يأمر جنوده بأن يستعدوا فصاح بأبيه قائلا : «انهم سيطلقون علينا الرصاص ، فلنجرد السيف ولنقفز الى الحفرة • وسنقتل اثنين على الأقل من هؤلاء الاوغاد حين تفرغ بنادقهم ! »

وقرن القول بالفعل وهم بالقفز وأبوه من ورائه ، واذا بهما يســـمعان صوتا مألوفا يصيح بهما قائلا : « آتوس !•• راءول ! » • فصـاحا معا : « دارتانيان ! »

ثم سمعاه يأمر الجنود بانزال بنادقهم ، وبعد دقيقة كان بجانبهما فسأله آتوس : « ما معنى هذا كله ؟• لقد أوشكنا أن نقتل دون تحذير ! »

فقال دارتانيان : « لقد كنت أنا الذى سأطلق عليكما الرصاص ، ولو أخطأ الحاكم المرمى لما أخطأته أنا يا صديقى العزيزين • ولـكن من حسن الحظ انى اعتدت أن أمضى وقتا فى تصويب البنـــدقية بدلا من أن أطلقها فور رفعها ، ولقد حسبت انى عرفتكما • آه يا صـــديقى العزيزين : ما أسعدنى ! »

ومسح العرق الذى كان يتصبب من جبينه اذ كان قد أتى يجرى • فقال له آتوس : « كيف ذلك ؟ ولماذا يطلق الحاكم علينا الرصاص ؟ »

فقال : « لأنكما التقطتما الطبق الذى رماه السـجين لكما ، وقد كتب بأسفله شيئا • أليس كذلك ؟ »

ولما أجابا موافقين ، تناول الطبق منهما فى فزع شديد ثم قال : « ها قد جاء الحاكم فاسكتا !• آه لو علم انكما استطعتما الاطلاع على السر الذى كتبه السجين ؟!• انى أحبكما أيها الصديقان العزيزان ولا أتردد فى أن أفديكما بنفسى ولكن ما كنت لأنقذكما من السجن المؤبد ان أنقذتكما من الموت • فاسكتا الآن ! »

وجاء الحاكم بعد أن بسطت له قنطرة مر عليهـا فوق الحفرة ، ونظر الى دارتانيان وقال له :« والآن ماذا يمنعنا ؟•• »

فهمس دارتانيان لصديقيه : «انكما اسبانيان ولا تعرفان كلمة فرنسية!» ثم قال للحاكم : « لقد كنت على صواب • ان هذين السيدين ضابطان

اسبانيان عرفتهما السنة الماضية فى (ايبر) . وهما لا يعرفان أية كلمة من الفرنسية ! »

فقال الحاكم : « ومع هذا كانا يحاولان أن يقرآ ما كتب على الطبق ! »

فأمسك دارتانيان الطبق بيده ومحا الكتابة بطرف سيفه . بينما صاح به الحاكم : « ماذا تفعل ؟ انى لا أقدر أن أقرأ الآن ما كان مكتوبا ! »

فقال دارتانيان : « انه سر من أسرار الدولة ، وبناء على أمر الملك ليس لأحد أن يقف على هذا السر والا كان الموت جزاءه ، فلا مانع عندى من أن أدعك تقرؤه ثم تعدم بالرصاص توا ! »

وفى خلال هذا الحوار الذى يتخلله الجد والهزل معا ، كان آتوس وراءول ساكتين بشكل يدل على غاية الهـــدوء وعدم الاكتراث . ثم قال الحـــاكم لدارتانيان : « ولكن ألا يعرف هذان السـيدان على الأقل بعض كلمات فرنسية ؟ »

فقال له : « لنفرض أنهما يعرفان بعض كلمات للحديث فانهما لا يقدران أن يقرآ ما هو مكتوب . انهما لا يعرفان أن يقرآ حتى الكتابة الاسبانية . تذكر أن النبلاء الاسبانيين لا يليق بهم أن يعرفوا القراءة والكتابة ! »

فاضـــطر الحاكم الى أن يقتنع بهذا الايضـــاح ، ولكنه كان عنيدا فقال لدارتانيان : « ادع هذين السيدين الى دخول القلعة »

فقال له : « هذا يسرنى وقد كدت أعرض عليك ذلك »

والواقع أن دارتانيان كان يتمنى لو كان صديقاه على بعد مائة فرسخ ، ولكنه اضطر الى أن يجارى الموقف . ثم خاطب آتوس وراءول باللغة الاسبانية موجها اليهما الدعوة فقبلاها ، واتجهوا جميعا نحو مدخل القلعة ، بينما عاد الجنود الثمانية الى راحتهم التى قطعها عليهم وقوع ذلك الحادث غير المنتظر !

▭

ولما دخلوا القلعة قال آتوس لدارتانيان : « ألا تقول كلمة توضح هـذا اللغز ؟ »

فقال دارتانيان : « ان الأمر لا يعدو أنى جئت الى هنا بسجين أمر الملك بألا يراه أحد ، وقد كنت أتناول الغداء مع الحاكم فرأيت الطبق الذى قذف به من نافذته والتقطه راءول ، فحسبت أنكما على موعد معه وأمرت بأن يطلق عليكما الرصاص »

فقال له آتوس : « لو انك قتلتنى يا دارتانيان لكان هذا من حسن حظى اذ كنت أموت فى سبيل البيت المالك بيدك أنت أنبل من يدافع عنه ! »

فسأله دارتانيان : « ماذا تعنى بذكر البيت المالك هنا ؟.. انك لا يمكن أن تصدق ما كتبه رجل معتوه ؟ »

فأجاب الكونت : « بل أعتقد أنه لم يكتب الا الحقيقة » . وأضاف راءول الى ذلك قوله :

ـ لو أنه كان غير صادق ما أمرك الملك بأن تقتل كل من يسمع قصته !

فقال له قائد الفرسان : « لا تنس أن كل فرية مهما يكن من سخافتها يسهل رواجها بين الشعب ! »

فقال آتوس : « كلا يا دارتانيان !. بل قل أن الملك لا يريد أن يشيع سر أسرته بين الناس فيوصم بالعار ! »

فقال له دارتانيان : « لا تتكلم هكذا كالأطفال يا آتوس ، انك لم تفقد عقلك لكى تصدق خرافة ان لويس الثالث عشر له ابن هنا فى جزيرة سانت مرجريت ! »

فقال الكونت فى هـدوء : « ولم لا أصدق هـذا وأنت قد جئت به الى هنا فى سفينة صيد ؟ »

فسأله دارتانيان متعجبا : «من أين علمت أنى جئت فى سفينة صيد ؟»

فأجاب : « اننى أعلم كل شىء يا صـديقى ، ألم يكن معك فى السفينة صندوق به هذا السجين ، وكنت تخاطبه بلقب صاحب السمو ؟ »

فعض دارتانيان على طرف شاربه من الغيظ وقال له : « على كل حال اذا صح انى جئت الى هنا فى سفينة ومعى سجين فى صندوق فليس فى ذلك ما يدل على أن هذا السجين أمير من البيت المالك فى فرنسا ! »

فأجاب آتوس فى برود : « انك لا تعلم أنى قابلت أراميس بعد حبوط مشروعه فى فو !. وقد قص على ما يكفى لأن أصدق الشكوى التى كتبها ذلك الشاب البائس ! »

فارتسم الحزن على وجه دارتانيان وقال : « هكذا تتبدد ارادة الانسان شعاعا أمام ارادة الله !.. اننى يا آتوس لألعن الظروف التى جعلتك تقف على هذا الذى وقفت عليه ، لأنى الآن ... »

فقطع آتوس كلامه قائلا بصلابته المعتادة : « هل ذاع سرك لأنى وقفت عليه ؟.. سل ذاكرتك يا عزيزى : ألم تكن فى صدرى أسرار لا تقل شأنا عن هذا السر ؟ »

فقال دارتانيان فى أسف : « لكن هـذا السر أخطر كثيرا ، انه مشئوم يجلب النحس، ويخيل الى أن كل من وقف عليه سيموت ميتة غير سعيدة ! »

فقال آتوس : « لن يكون الا ما يريده الله ! » . ثم بدا الحاكم قادما ، فعاد دارتانيان وصديقاه يمثلون دورهم . وكان الحـاكم سىء الظن قاسى القلب لكنه كان يعامل دارتانيان باجلال كبير ، وعلى هذا حرص طول وقت تناول الطعام على احترام ضيفيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يحد عنهما ببصره . وحاول أكثر من مرة ارباكهما بهجوم مفاجىء فى الحديث ، ولكنهما لزما جانب الحذر ، فلم يبد منهما ما يجعله يشك فى أنهما اسبانيان لا يعرفان

الفرنسية ولا الكتابة والقراءة. فلما فرغوا من تناول الطعام وانصرف الحاكم الى مسكنه الخاص ليأخذ نصيبه من الراحة ، قال آتوس لدارتانيان باللغة الاسبانية : « ما اسم هذا الرجل ؟. انى لا أرتاح الى منظره ! »

فأجابه دارتانيان : « اسمه دى سان مارس ، وقد أخبرته أنكما جئتما الى هذه الجزيرة لصيد الطيور ولزيارة الدير الذى فيها لطائفة البندكتيين وسترحلان غدا »

ثم اقترح عليهما أن يخرجوا لصيد الارانب البرية قائلا : « ان الحياة هنا لا تلائمنى كثيرا. وهذا الرجل يضجرنى الى حد بالغ مع أنى رئيسه !. على أن المشى فى الجزيرة لذيذ لا يجهد ، فطولها لا يزيد على فرسخ ونصف ، وعرضها فرسخ واحد فكأنها حديقة كبيرة ! »

ونادى دارتانيان أحد الجنود وقال له : « أحضر للسيدين بندقيتين » . ولما غادروا القلعة قال لهما دارتانيان : « الآن أسألكما بدورى : ما الذى جاء بكما الى هذه الجزيرة ؟ »

فقال له آتوس : « جئنا لنودعك فان راءول مسافر بعد أيام »

فقال دارتانيان : « لا شك فى أنه ذاهب مع دوق بوفور الى أفريقا . أليس كذلك ؟ »

فقال الكونت : « أجل يا عزيزى . انك دائما تصيب فى حدسك ! »

وكان راءول قد تركهما يتحدثان ومضى الى صخرة يغطيها العشب فجلس فوقها وقد وضع بندقيته بين ركبتيه وجعل ينظر الى البحر نظرة شاردة ، فقال دارتانيان لآتوس : « انه لم يشف من الصدمة بعد . ولكن قلبه الكبير النبيل كفيل بأن يجنبه المخاطر ! »

فقال آتوس فى أسف : « ان راءول لن يشفى من أثر تلك الصدمة الا بالموت الذى ينشده فى رحلته ، وقد أصر عليها لهذا الغرض ، وليس فى وسعى أن أصحبه لأنى لا أريد أن أراه يموت ! »

فنظر دارتانيان الى صديقه مليا بينما استطرد هذا فقال : « انك تعرف انى طول حياتى لم أعرف الخوف ، ولكنى لا أكتمك انى أخاف منذ الآن ذلك اليوم الذى أتلقى فيه نعى راءول ! »

فقال له دارتانيان : « دعنى اذن أحدثه فى الأمر ، ولن أحاول أن أعزيه بل سأؤدى له خدمة أجل ! » . ثم تركه ومضى الى حيث جلس راءول ، وأخذ فى الحديث معه الى أن تطرق الحديث الى الآنسة دى لافاليير ، فقال راءول : « عبثى كلام كثير أريد أن أقوله لها ولكنى لا أحب أن أكتب اليها! »

فقال له دارتانيان : « اذن تعال الى القصر الملكى لتقابلها وتقول لها ما تريد . ان هذا خير من الكتابة اليها ، ثم انها فيما أعتقد فتاة صادقة . ولعلها تحبك أنت الذى هجرتك حبا أشد من حبها للملك ، أعنى أنها تعدك صديقا مخلصا يركن اليه ويسعدها أن تكون على مقربة منها دائما ! »

فقال راءول : « انى لا أرضى ذلك لنفسى فانه أمر مهين ! »

فقال له دارتانيان : « كلا !. ليس بالأمر المهين أن تخضع لقوة أقوى من ارادتك . واذا كان قلبك يقول لك : (اذهب اليها أو مت) فاذهب اليها دون تردد !.. انها كانت شجاعة حقا بل كانت أشجع النساء حين آثرت الملك عليك ، فلماذا تكون أنت أقل شجاعة منها ؟! »

فقال راءول : « كلا !. لست أريد أن أراها ثانية ، لأنى لا أريد أن أنسى حبها ، وعلى هذا أرجو منك أن تسلمها هذا الخطاب الذى كتبته فى الليلة الماضية . وهذا هو فاقرأه لترى أنى على حق ! »

ثم ناوله الخطاب فقرأ دارتانيان فيه ما يلى :

« يا آنسة . انك فى اعتقادى لم تخطئى اذ لم تحبينى وانما ارتكبت ذنبا واحدا نحوى هو أنك تركتنى أعتقد انك تحبيننى . على أنى اذ أصفح عنك لا أقدر أن أصفح عن نفسى . وقد قيل ان المحبين السعداء فى حبهم تصم آذانهم عن سماع شكوى المحبين المنبوذين ، ولكنى على يقين من اننى أستطيع أن أقلب صداقتك لى حبا حين لا تخشين وجودى ولا لومى . فمهما يكن الغرام الحديث ذا فتنة لك ، فان الله لم يجعلنى دون الذى اخترته لنفسك فى شىء ، وستحبيننى لأن اخلاصى وتضحيتى ونهايتى المؤلمة ستجعل لى فى نظرك امتيازا على الآخر . ان كثيرا من الناس أكدوا لى انك أحببتنى الى حد ما ، وفى هذا ما يكفى ليزيل من قلبى كل أثر لما حدث ، فاقبلى منى هذا الوداع الأخير ، وستباركيننى لاننى التمست لنفسى ملاذا يمحى فيه كل بغض ، ويدوم فيه كل حب الى الأبد . وداعا يا آنسة ، وثقى بأن سعادتك لو كانت تشترى بآخر نقطة من دمى لما ضننت بها !.. راءول فيكونت دى براجلون »

وقال دارتانيان بعد أن قرأ الخطاب : « انه لا بأس به ، ولكنى أجد به عيبا واحدا ، فقد ذكرت فيه كل شىء ما عدا الشىء الذى ينبعث كالسم القاتل من عينيك ومن قلبك ، وهو ذلك الحب الذى لا معنى له والذى يكاد يلتهمك . لماذا لم تكتب لها بكل بساطة قائلا : (يا آنسة .. انى بدل أن ألعنك ، أحبك وأموت) ..؟! »

فقال راءول مبتهجا : « صدقت يا سيدى ! » . ثم تناول الخطاب من يد دارتانيان ومزقه ، وكتب بدلا منه أسطرا على رقعة ورق أخرى وقدمها لدارتانيان فقرأ فيها :

« لكى أسعد بأن أقول لك مرة أخرى انى أحبك ، أرانى أنحط الى الكتابة اليك . ولهذا سأموت لأعاقب نفسى على هذه الدناءة » . ثم قال لدارتانيان : « أرجو أن تعطيها هذه الورقة يا كابتن ، فى اليوم الذى يمكنك أن تضع فيه تاريخا تحت هذه الأسطر ! »

وكان أبوه قد أقبل نحوهما بخطى بطيئة فسارعا الى مقابلته ، ثم عادوا

الى القلعة ، وقبل أن يبلغوها لحظوا أن الامواج قد علت ايذانا باقتراب عاصفة ، ثم لمحوا شيئا قذفته الى الشاطىء فسأل آتوس : « ما هذا ؟. زورق محطم ؟ » . فقال دارتانيان : «كلا انه ليس زورقا ، بل هو الصندوق المغلق الذى رميته فى البحر بعد انزال السجين ! »

فقال آتوس : « اذن يحسن أن تحرقه يا دارتانيان حتى لا يبقى له أثر »

فقال دارتانيان : « الحق معك يا آتوس وسأتولى ذلك بنفسى فيما بعد ، أما الآن فهيا ندخل القلعة لان المطر يهطل مدرارا والبرق مخيف ! »

ومروا فوق الاستحكامات الى رواق كان مفتاحه مع دارتانيان ، فرأوا المسيو سان مارس يتجه صوب غرفة السجين ، فأشار اليهما دارتانيان أن يختبئا فى ركن بالسلم . وسأله آتوس : « ما هذا ؟ » . فأجابه : « ان السجين عائد من المصلى ! »

وعلى وميض البرق شاهدوا الحاكم وفى أثره رجل يرتدى ثيابا سوداء وعلى وجهه قناع من صلب لامع ، يمتد من الخوذة التى على رأسه ، ولم يبد من وجهه سوى عينين تقدحان بالشرر . ووقف السجين لحظة فى وسط الرواق لينظر الى الأفق ويستنشق الهواء ويتنهد بما يشبه الزئير . فقال له سان مارس بحدة : « هيا واصل السير يا سيدى ! »

فصاح آتوس من الركن الذى اختبأ به : «بل قل : (ياصاحب السمو) ». وكان صوته مخيفا جعل الحاكم يرتعد وجعل السجين يتلفت حوله ، ثم صاح الحاكم قائلا : « من الذى تكلم ؟ »

فسارع دارتانيان الى الاجابة قائلا : « أنا !.. انك تعلم أن الأمر يقضى باستعمال هذا اللقب ! »

وهنا قال السجين للحاكم : « كلا !. لا تلقبنى بالسيد ولا بصاحب السمو ، ان اللقب الذى يليق بى الآن انما هو لقب (الملعون) !.. » . ثم مضى فى طريقه حيث أغلق عليه باب زنزانته

وتمتم دارتانيان مخاطبا راءول وهو يشير الى ذلك الباب : « مسكين ! »

بين الجنس اللطيف

ما كاد دارتانيان يعود الى جناحه مع صديقيه حتى جاء أحد الجنود ينبئه بأن الحاكم يبحث عنه ليسلمه رسالة حملتها اليه سفينة شراعية ، ومضى دارتانيان فتسلم الرسالة وكانت بخط الملك ، وقد جاء فيها ما يلى : « أحسبك قد انتهيت من تنفيذ أوامرى يا مسيو دارتانيان ، واذن عد فورا الى باريس والحق بى فى قصر اللوفر ! »

فصاح دارتانيان فرحا : « حمدا لله !. هذه خاتمة نفيى بهذه الجزيرة ولم أعد سجانا ! »

ثم أطلع آتوس على ذلك الخطاب فقال له هذا فى أسف : « اذن ستتركنا ؟! » . فقال له : « سنلتقى ثانية أيها الصديق العزيز ، ان راءول فى سن تسمح له بالذهاب وحده مع دوق بوفور . ولا شك فى أنه يؤثر أن يعود والده الى باريس مع زميله دارتانيان بدلا من أن يقطع مائتى فرسخ وحده لكى يصل الى بيته فى لافير ! »

ثم نظر الى راءول كأنما يستطلع رأيه فى ذلك ، فقال هذا بلهجة أسى : « هذا أحسن ! »

وقال آتوس لدارتانيان : « أحسب أننا نستطيع أن نغادر هذه الجزيرة معا فى السفينة الشراعية التى جاءت بالرسالة فتقلنا الى الانتيب »

فأومأ دارتانيان موافقا ، ثم غادر الاصدقاء الثلاثة جزيرة سانت مرجريت بعد أن ودعوا الحاكم ، وبعد أن اطمأن دارتانيان الى حرق الصندوق الذى كان به السجين . وحينما وصلوا الى الانتيب فى الليلة نفسها ودع دارتانيان صديقيه قبل أن يمتطى صهوة جواده وقال لهما : « انكما تشبهان جنديين يفران من موقعهما . وقلبى يحدثنى بأن راءول سيحتاج الى مساعد ، فهل تسمحان لى أن أطلب الى الملك أن يرسلنى الى أفريقا على رأس مائة من الفرسان القادرين ؟.. ان الملك لن يرفض هذا الطلب ، وساخذك معى يا آتوس ! »

فضغط راءول يده قائلا : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان !. اننى ما زلت شابا أحتاج الى ما يجهد الجسم والفكر . أما أبى فانه فى شدة الحاجة الى الراحة . وأنت أعز أصدقائه ولهذا أعهد اليك فى العناية به ، ولا شك فى أن هذا يجعل روحينا فى اطمئنان ! »

فقال له دارتانيان : « انك ستمكث هنا ثلاثة أيام على الأكثر . فمتى تصل الكونت الى بيته ؟ »

فأجاب آتوس : « ان هذا يحتاج الى وقت طويل ، والواقع أنى لا أريد أن أعجل بالافتراق عن رآءول • ان الوقت نفسه يمضى بسرعة فلا ينبغى لى أن أزيد فى سرعته • ولذا سأوثر السفر البطىء ، وسأشترى جوادين من صنف أرقى من جياد البريد التى جئت بها الى هنا • ولكى أصل بهما فى حالة جيدة يحسن ألا أقطع أكثر من سبعة فراسخ فى اليوم »

فسأله دارتانيان : « وأين جريمو الآن ؟ » • فأجاب قائلا : «ان جريمو وصل صباح أمس مع متـــاع راءول ، وقد تركته ينام ويستريح » • ثم ودعهما دارتانيان مرة ثانية ومضى فى سبيله • وماكادا يستأنفان سيرهما بعد أن اختفى بجواده عن أنظارهما حتى سمعا خلفهما وقع حـوافر جواد يعدو ، وشـــد ما كانت دهشتهما اذ تبينا أن الفارس القادم هو نفســـه صديقهما قائد فرسان الملك ، وما وصل اليهما حتى قفز من فوق جواده وعانقهما عناقا حارا ، ثم عاد فركب جواده ومضى مرة أخرى دون أن يقول كلمة !

وعاد الكونت وولده الى طولون وقد بدأت تمتلىء بضجة العربات والاسلحة والجياد والجنود تأهبا لسفر الحملة الى شمال أفريقا • وكانت الطبول تقرع أمام طوابير الجند والبحارة •وأخذ دوق بوفور يتنقل فى كل مكان ويشرف على اعداد السفن وركوب القوة فى همة وحماسة • وكان يشجع أقل الجنود، ويؤنب الضباط حتى كبارهم !• ويصر على أن يتفقد بنفسه المدافع والمؤونة والمتاع ، ويفحص جهاز كل جندى ويستوثق من صحة كل جواد وقوته • وهكذا انقلب الى عسكرى لا مثيل له بعد أن كان فى قصره مثـــالا للسيد الأنانى المغرور !• على أن العناية الكبيرة التى بذلت فى اعـداد الحملة كان يشوبها التسرع الذى لا يؤمن معه الخطر على جنودها • وكانت الليلة مقمرة وقد أخذ البحارة والجنود ينشدون أناشيدهم على ظهر الســـفن ، يتخللها صوت السلاسل وهى تسحب أو تبسط • بينما جلس آتوس وولده على لسان فى البحر ساكتين والســـفن والزوارق تمر حولهما ثم قال الكونت لولده :

ـ تبارك الله الذى خلق هذا كله كما خلقنا نحن الذرات الضئيلة فى هذا العالم العظيم !• اننا نسطع مثل تلك النجوم والكواكب ، ونتأوه مثل هذه الامواج ، ونعانى كما تعانى هذه السفن الكبيرة التى يصيبها البلى من مغالبة البحار والرياح • ان كل شىء يريد أن يحيا ويعيش يا راءول • وكل شىء فى الكائنات الحية له جمال وبهاء ! »

فقال راءول : « حقا يا سيدى ان أمامنا منظرا جميلا ! »

ثم قال آتوس فجأة : « ما أطيب قلب دارتانيان ! ان من حسن حظى أن عاوننى صديق مثله طول حياتى • انك فى حاجة الى صديق مثله يا راءول •• ان المسيو دى جيش رفيق مناسب ولكنى أعتقد أن عصركم هذا يشغل

كل انسان بشؤونه ومسراته ، على عكس الحال فى عصرنا • لقد التمست لنفسك حياة العزلة ، وفيها هناءة كبيرة ، ولكنك ضيعت قواك فى عزلتك• أما نحن الفرسان الاربعة ، فقد نشأنا بعيدين عن مسرات العصر الحاضر ، ولذا كنا قادرين على مغالبة البأساء كلما حلت بساحتنا »

فقال راءول : « ان المسيو دى جيش صديق لطيف مخلص،ولكنى عشت ناعما بصداقة أخرى من النوع الذى حدثتنى عنه ، وتلك هى صـــداقتك يا أبتاه ! »

فقال آتوس : « انى لم أكن صديقا لك يا راءول ! »

فسأله : « وكيف ذلك يا سيدى ؟ »

فقال : « لأنى جعلتك تعتقد أن الحيـــاة ليس لها سوى جانبها المحزن القاسى • وا أسفاه ! لقد أبعدتك دائما ـ دون قصـد كما يعلم الله ـ عن مسرات الشباب ، ولذا تراني الآن آسفا على أن لم أتح لك شيئا من طيش الشباب ونزعاته ! »

فقال راءول : « لست أنت الذى جعلتنى جادا صادفا عن مسرات الحيـاة يا أبتاه ، ولكنه الحب الذى دهمنى فى ابان عهـدى بالحياة ، أو هو الوفاء الذى فطرت عليه !•• اننى كنت حتى عهد قريب أحسب أن طريق الحياة ممهدة تقوم على جانبها الازهار والفاكهة • وكنت أحسب انى مثلك صلابة وقوة ، فكنت أنت تسهر على بما أوتيت من يقظة ومقدرة !•• وبقى الأمر كذلك حتى كانت تلك الكارثة التى كشفت حجاب غفلتى وجردتنى من كل قوتى وشجاعتى وتركتنى حطاما •• وهكذا ترى يا سيدى ألا لوم عليك فى شىء من أمرى ، وانك فى ماضى حياتى لم تكن الا سعادة لى ، كما انك كل أملى فى مستقبلى • ولهذا أحبك يا أبى وأباركك ، ومن أجلك وحـدك أعيش ! »

فقال الكونت : « يا عزيزى راءول •• ان كلماتك بلسم لجراحى ، فهى تدلنى على أنك ستذكرنى فى الايام القـادمة !•• ولسوف أكون لك فى المستقبل أكثر مما كنت حتى اليوم •• سأكون صـديقك يا بنى العزيز ، وسأنتظرك حتى تعود لنعيش عيشة مرحة سعيدة بدل أن نحيا هكذا فى عزلة • وسأهب لك يومئذ كل أملاكى ، وان ايرادها ليكفى لان تعيـــش عيشة راقية ، وأرجو أن يسعدنى الحظ قبـــل موتى فأرى حفيـدا لى ولا تنقرض سلالتى ! »

فقال راءول متأثرا : « سأفعل كل ما يرضيك »

ثم قال آتوس : « ان مركزك الجـديد لا يوجب عليك المجازفة • لقـــد امتحنتك الوقائع وعرف النـــاس شجاعتك • وليس من الفخـر أن يقع الانسان فى كمين فيموت غير مأسوف عليه • ومعاذ الله أن أنصح لك بأن تتفادى القتال ولكنى أحذرك أن تقع فى كمين ! »

فقال راءول : « انى بطبيعتى حذر يا سيدى ، وقد اشتركت فى القتال أكثر من عشرين مرة ، فكان من حسن حظى أنى لم أجرح الا مرة واحدة ! »

فقال آتوس : « يجب أيضا أن تحذر جو افريقا !. ان الموت بالحمى موت رهيب . هذا وقد وعد دوق بوفور أن يأتى البريد من أفريقا كل أسبوعين ، وستشرف أنت على ارساله بوصفك أركان حربه . فلعلك لا تنسى أن تكتب الى مع كل بريد ! »

فقال راءول وقد غلبه التأثر : « سأكتب اليك يا سيدى »

ولم يقدر آتوس أن يقاوم عاطفته فأحاط ولده بذراعيه وعانقه بقوة . ثم عادا الى المدينة حيث كان جريمو ينتظر أوبة سيده . فصاح به راءول : « لا شك أنك جئت لتخبرنا بأن الوقت قد حان للرحيل ؟ »

فقال جريمو موجها الخطاب الى الكونت : « ينبغى ألا يذهب وحده الى تلك البلاد الغريبة »

فقال الكونت : « نعم ، يجب أن يكون مع راءول أحد يعاونه ويذكره بكل من أحب »

فقال جريمو : « أنا يا سيدى أذهب معه ، صحيح أنى كبير السن ولكن هذا أفضل ! »

فقال له راءول : « لكن الابحار قد بدأ وأنت لم تستعد »

فقال جريمو : « بل تأهبت يا سيدى ! » . ثم أبرز مفاتيح حقائبه وقد اختلطت بمفاتيح حقائب راءول . فبدا التأثر على الكونت وولده وساد السكوت قليلا ثم قال له راءول : «كلا يا جريمو !. ينبغى ألا تترك الكونت وحده ، انك لم تفارقه قط قبل الآن ! »

فردد جريمو بصره بينهما وكأنه يسائل نفسه أيهما أولى به ؟.. ولم ينطق آتوس ببنت شفة ، ثم قال جريمو : « ان سيدى الكونت يؤثر ذهابى مع ولده »

فأومأ آتوس برأسه موافقا . ثم دقت الطبول فجأة ، وانطلقت أبواق السفن فملأت الجو بصوتها . وبدأ الجنود يأخذون طريقهم الى سفنهم . فخف جريمو فى نشاط الشباب للاشراف على نقل أمتعة سيده الشاب الى سفينة القيادة . وكان آتوس ممسكا بيده يد راءول وكأنه لا يريد أن يفترق عنه ، حتى جاء ضابط يجرى لينبىء راءول بأن الدوق يطلبه . فمضى ووالده الى منعطف الطريق حيث وجدا الدوق ممتطيا جوادا أبيض فنادى راءول وصافح الكونت بيده . ثم عانق آتوس ولده فقال له الدوق : « اصحبنا الى السفينة فان أمامنا نصف ساعة قبل أن نبحر »

فقال الكونت : « لقد ودعت راءول يا صاحب السمو ، ولا أحب أن أودعه ثانية ! »

فقال الدوق لراءول : « اذن اذهب الى السفينة الآن يا فيكونت » . ثم

حمله بين ذراعيه ووضعه فى زورق ، وركب هو زورقا آخر ، وسرعان ما عملت المجاذيف ، ثم رأى آتوس ولده يصعد درج سفينة القيادة ويقف عند الحاجز حتى لا يغيب عن بصر والده . وأطلق مدفع ايذانا بالابحار . واشتدت الضجة من المودعين بالشاطىء ، وتعالى دخان السفن ، ولكن هذا كله لم يحل دون تتبع الكونت لابنه ببصره حتى اختفت السفينة فى الأفق . ثم رأى دخانا أبيض ينبعث خلفها من قذيفة المدفع التى أمر الدوق بأن تطلق تحية أخيرة لأرض فرنسا

▭

لم يستطع دارتانيان أن يخفى شعوره عن صديقيه . لقد خضع ذلك الجندى الجامد الحس للضعف البشرى لحظات ، حتى اذا تغلب على تأثره واستعاد رباطة جأشه ، قال لخادمه الذى اعتاد أن يصغى ولا يتكلم : « رايو .. يجب أن نقطع الطريق الى باريس بمعدل ثلاثين فرسخا فى اليوم ! »

ثم أخذ يسأل نفسه : « لماذا استدعانى الملك ؟. ولماذا رمى ذو القناع الحديدى ذلك الطبق الفضى عند قدمى راءول ؟ »

ثم رجع بذاكرته الى اللحظة التى أوشك فيها أن يقتل صديقيه ، والى القدر العجيب الذى جعل آتوس يقف على ذلك السر الخطير ، وفكر فى المستقبل الغامض المخيف الذى ينتظر راءول فشعر بانقباض زاد فيه تذكره نكبة صديقيه بورتوس وأراميس

ولم يكن الملك يرتقب أوبة دارتانيان بمثل تلك السرعة، وعلى هذا سافر الى ميدون للصيد ، فلما علم بذلك دارتانيان لم يشأ أن يلحق به كما كان يفعل فى ظروف أخرى ، بل خلع ثيابه وحذاءه واستحم وقبع فى بيته انتظارا لعودة الملك الى باريس

وقد علم الكثير مما جرى خلال الاسبوعين الاخيرين ، فالملك صار دائم الاكتئاب ، والملكة الوالدة مريضة حزينة ، والأمير الشقيق الأصغر للملك أصبح يغالى فى ابداء الولاء ، أما الأميرة قرينته ففى ثورة غضب لا تنتهى ، وقد سافر الكونت دى جيش الى مزرعته . وبينما المسيو كولبير صار بادى السرور والتفاؤل كان المسيو فوكيه يستشير طبيبا جديدا كل يوم دون أن يلقى الشفاء على يد أحد منهم لان مرضه سياسى لا طبى !

أما الآنسة دى لافاليير فعلم دارتانيان أن الملك أصبح لا يستغنى عن صحبتها ، واذا لم تكن معه فى رحلات الصيد فانه يكتب اليها بلا انقطاع !

وفكر دارتانيان فى الخطاب الذى يحمله اليها من راءول ، فرأى أن ينتهز فرصة غياب الملك لكى يقابلها ويتحدث معها قليلا لعله يجد ما يعزى به راءول ، وكان يسيرا عليه أن يقابلها أثناء خروج الملك للصيد ، لأنها كانت تتسلى عادة بالسير مع بعض سيدات البلاط فى أروقة القصر الملكى حيث

يمر هو لتفقد الحراس . وعلى ذلك سدد خطاه الى حيث كانت لافاليير وسط دائرة من نساء البلاط ، وكأنها الشمس وسط الكواكب، ولم يكن دارتانيان يجرى وراء النساء ولكنهن كن يحترمنه كما كانت شهرته تثير اعجابهن . فلما رأينه قادما أحطن به ، وأخذن يهاجمنه بالأسئلة عن أسباب غيبته طول تلك المدة .. فأجاب فى جد وهدوء : « لقد كنت فى بلاد البرتقال ! »

وأثارت اجابته ضحكاتهن اللطيفة، ثم سألته الآنسة دى تونای شارنت: « ماذا تعنى ببلاد البرتقال ؟.. أكنت فى اسبانيا ؟ »

ولما أجاب بالنفى قالت له : « اذن .. كنت فى مالطة ؟ » . فهز رأسه نافيا أيضا وقال : « لقد اقتربتن من الحقيقة ! » . وهنا سألته دى لافاليير: « هل هى جزيرة ؟ » . فابتسم وقال : « لن أتعبك أكثر من ذلك يا آنسة .. لقد عدت من الجهة التى يبحر منها دوق بوفور فى هذه الساعة الى الجزائر ! »

وانهالت الأسئلة عليه من أولئك الحسان عن الجيش والاسطول ، فيجيبهن اجابات مقتضبة ، الى أن سألته الآنسة دى تونای شارنت : «ألم تر أحدا من أصدقائنا هناك ؟ »

فقال : « أجل !. رأيت ضمن الحملة المسيو دى لاجيلوتيير ، والمسيو دى مانشى ، والمسيو دى براجلون ... »

وهنا امتقع وجه دى لافاليير، بينما استطردت دى تونای شارنت فسألته فى خبث غير ملحوظ : « ماذا تقول ؟. هل المسيو دى براجلون ضمن الحملة أيضا ؟.. اذن لقد صح ما توقعته فهؤلاء الرجال الذين اشتركوا فى الحملة كلهم ممن خانهم الحظ فى الحب ، فذهبوا الى الشرق للبحث عن نساء سوداوات يكن أشفق عليهم من حسان باريس ! »

وضحك أكثر الأوانس لنكتتها ، بينما اضطربت دى لافاليير ، وسعلت مونتاليه متشاغلة !.. فقال دارتانيان : « الواقع أن نساء الجزائر لسن سوداوات ، بل هن سمراوات فاتنات ، ولهن عيون نجل وشفاه قرمزية لم أر مثلها فى حياتى ! »

فقالت الآنسة دى تونای شارنت : « هذا من حسن حظ المسيو دى براجلون ، فلعله هناك يعوض عن خسارته هنا !. »

وأعقب ذلك صمت شامل ، ولحظ دارتانيان قسوة هذه الفتاة الخبيثة على دى لافاليير وتجاهلها اضطرابها وشحوبها ، ثم استأنفت الحوار بعد لحظة قائلة : « كل هذا ذنبك أنت يا عزيزتى لويز ! »

فقالت دى لافاليير متلعثمة : « أنا ؟. وأى ذنب لى فى هذا يا آنسة ؟ »

فردت عليها قائلة : « ان ذلك الشاب البائس كان خطيبك وكان يحبك ولكنك نبذته ! »

وهنا قالت مونتاليه فى رياء : « هذا حق كل امرأة شريفة . اننا حين يتضح لنا أننا لا نقدر أن نسعد رجلا فالأفضل أن ننبذه ! »

فقالت دى تونای شارنت : « حقا لا شىء فى أن تنبذ الفتاة خطيبها فى مثل هذه الحالة ، ولكن ليس لها أى حق فى أن تبعث به الى الموت ، أو الى الحرب حيث يلقى حتفه ! »

فوضعت لويز يدها على جبينها ، بينما استطردت الفتاة الماكرة فقالت : « اذا مات المسيو دى براجلون فى افريقا ، فلا شك فى أنه يكون قد مات متأثرا بفشله فى حب لويز ! »

وهنا استندت لويز الى ذراع دارتانيان اذ ترنحت للسقوط ، وكانت ملامح وجهه تنم عن تأثر عميق . ثم قالت له فى صوت يشوبه الغضب والألم : « لقد أردت أن تحدثنى يا كابتن . ماذا عندك لكى تقوله لى ؟ »

فجذبها دارتانيان الى ركن بعيد فى الرواق ثم قال لها : « ان ما أردت أن أقوله لك يا آنسة ، قد قالته الآنسة دى تونای شارنت .. صحيح انها قالته بغض وقسوة ولكنها قالته كله على أى حال ! »

فصرخت صرخة واهنة ثم انفلتت وانطلقت الى باب قريب فى الرواق فدخلته واختفت خلفه ، وفى اللحظة نفسها بدا الملك داخلا من باب آخر واتجه بنظره لأول وهلة الى الكرسى الذى كانت خليلته تجلس عليه فلما لم يجدها وقف هنيهة عابسا ، ثم لمحت عينه دارتانيان وقد وقف حانى الرأس اجلالا له فهتف به : « أهذا أنت ؟. لقد جئت بسرعة .. انى راض عنك » . وكان هذا أقصى تعبير عن الارتياح الملكى ... وكثير من الرجال كانوا يضحون أرواحهم فى سبيل كلمة كهذه من الملك. بينما انسحبت وصيفات الشرف، وتبعهن رجال البلاط اذ لحظوا أن الملك يتحدث حديثا خاصا مع قائد الفرسان ، ثم قاده الملك خارج الرواق وسأله : « حسنا يامسيو دارتانيان. ماذا فعلت بالسجين ؟ »

فقال : « انه فى السجن يا مولاى. وقد تمرد الصياد الذى نقلنا بسفينته الى سانت مرجريت ، وحاول أن يقتلنى، فدافع السجين عنى بدل أن يحاول الفرار ! »

فامتقع وجه الملك وقال له : « كفى ! » . ثم أخذ الملك يدور حول مكتبه فى خطى قلقة سريعة ، وقال لدارتانيان بعد قليل : « هل كنت فى الانتيب حين وصل اليها المسيو دى بوفور ؟ »

فقال دارتانيان : «لقد غادرتها فى الوقت الذى دخلها فيه سموالدوق !»

فسكت الملك لحظة ثم سأله : « من الذين رأيتهم هناك ؟ » . فأجاب فى برود : « رأيت هناك كثيرا من الناس ! »

وأدرك الملك أنه راغب عن الكلام فقال له : « لقد بعثت فى طلبك لكى تعد مسكنى فى نانت باقليم بريتانى »

فقال دارتانيان : « أتقوم جلالتك بهذه الرحلة الطويلة الآن ؟ »

فقال : « ان برلمان الطبقات مجتمع هناك ، وعندى طلبان سأقدمهما له.

وعلى هذا أرى أن أسافر الى هناك فى هذا المساء ، ولكنك محتاج الى الراحة ولا شك ، واذن ليكن السفر غدا ٠٠ ! »

فقال دارتانيان : « لقد ارتحت يا مولاى » ٠ فقال الملك : « حسنا !٠٠ اذن نبدأ السفر بين هذا المساء ومســـاء غد ! » ٠ فانحنى دارتانيان كأنه يستأذن فى الانصراف ، ولكنه لحظ اضـــطراب الملك فسأله : « أتصحب جلالتك معيتك ؟٠ أعنى هل تحتاج جلالتك الى الفرسان ؟ »

ففكر الملك قليلا ثم قال له : « خذ فرقة منهم ٠ وقد علمت أن قصر نانت غير منظم كما ينبغى ، وعلى هذا لا تنس أن تضع فارسا بباب كل كبير من الكبراء الذين سيصحبوننى مثل المسيو دى ليون والمسيو لتليين والمسيو بريين ووزير المالية ! »

فقال دارتانيان : « غدا أكون قد سافرت ونفذت أمر مولاى ! »

فقال الملك : « حسنا !٠ ولكن كلمة أخرى يا مسيو دارتانيان٠٠ ستقابل فى نانت دوق جيفر قائد الحراس ، فاحرص على تدبير أماكن لفرسانك قبل وصول حراســه ٠ ان السبق هو دائما لمن يأتى أولا ٠٠ واذا سألك دوق جيفر عن شىء فلا تقل له أى شىء ! »

وقال قائد الفرسان لنفسه بعد أن خرج : « الى نانت ؟!٠ لماذا لم يجرؤ على القول بأنه ذاهب الى (بل ــ أيل) من هناك ؟ »

ولما وصـــل الى باب القصر لحق به أحد كتبة المسيو بريين وقال له : « سيدى ٠٠ ان جلالة الملك أعطانى هذا الأمر لأسلمه اليك ! »

وتناول منه الأمر ، فوجد عليه خاتم المسيو فوكيه لكنه بخط الملك نفسه وخاص بصرف مائتى بستول له ٠ فقال لنفسه بعـــد أن صرف الكاتب : « المسيو فوكيه هو الذى ينفق على هذه الرحلة ؟!٠٠ ان هذا لأشبه بالاعيب لويس الحادى عشر ٠ لماذا لم يصدر الملك هذا الأمر الى المسيو كولبير ؟!»٠ ثم ذهب من فوره الى دار المسيو فوكيه ليتسلم المبلغ ثم يتأهب للسفر !

العشاء الأخير

كان وزير المالية قد نمى اليه نبأ الرحلة التى اعتزم الملك القيام بهـا ، فأقام بداره مأدبة عشاء لتوديع أصدقائه . وكانت الدار حين وصل اليها دارتانيان تموج بالخدم رائحين غادين يحملون ألوان الطعام وصنوف الشراب. فلما أراد قائد الفرسان صرف قيمة الاذن الذى فى يده من المكتب قيل له ان الوقت متأخر وقد اغلقت الخزانة حتى صباح اليوم التالى . فطلب أن يقابل المسيو فوكيه ، وكان هذا مع ضيوفه فى الجناح المخصص لسكناه بالدار وليس من عادته أن يستقبل أحدا فى مثل هذه الساعة ، ولكنه ما كاد يعلم بوجود المسيو دارتانيان قائد فرسان الملك حتى أوفد الشـــاعر بليسون لاحضاره من غرفة الانتظار فقاده هذا الى حجرة المائدة بعد أن اطمأن الى أن الأمر لا يعدو اذن صرف معه يريد قبض قيمته

وكان الوزير جالسا فى مقعـــد وثير ومن حوله جماعة الابيقوريين من الشعراء الذين أثبتوا اخلاصهم ووفاءهم له حين اقتربت منـــه العاصفة واهتزت من تحته الارض ، فبقوا على ولائهم له كما كانوا فى عهـــد رخائه وابان نعمته . وقد جلست الى يساره مدام دى بلبير ، وجلست الى يمينه قرينته ، ضاربتين عرض الحائط بقواعد العرف ونوازع الغيرة !

ونهض الوزير لاستقبال قائد الفرسان قائلا : « معذرة يا مسيو دارتانيان اذ لم أخرج للقائك وقد جئت باسم الملك ! »

فأجاب دارتانيان قائلا : « يا صاحب الفخامة . اننى جئت باسم الملك لأصرف اذنا بمبلغ مائتى بستول ! »

وعندئذ انقشعت السحب التى كانت مخيمة على الوجوه ، ما عدا المسيو فوكيه فقد ظل واجما وقال : « اذن أنت أيضا مسافر الى نانت ؟ »

فقال دارتانيان : « الواقع أنى لا أدرى لماذا أسافر يا صاحب الفخامة »

فقالت مدام فوكيه وقد زال عنها ما اعتراها من وجل : « لكنك لا تتعجل السفر بحيث لا تجلس معنا قليلا ؟ »

فانحنى لها وقال : « ان هذا شرف كبير لى يا سيدتى ، غير أن وقتى ضيق بحيث اضطررت الى أن اقطع عليكم عشاءكم لكى أصرف هذا الاذن ! »

فقال المسيو فوكيه : « اذن يصرف بالذهب ! » . ثم دعا أحد الكتبة وناوله الاذن الذى تسلمه من دارتانيان ، فقال هذا : « انى لم أكن قلقـا بشأن الصرف فان سمعة هذا البيت المالى لا تدع مجالا لأى قلق ! »

فارتسمت ابتسامة حزينـــة على شفتى فوكيه ، وسألتـــه مدام دى

بلبير : « أتشعر بألم ؟ » . وأردفت قرينته قائلة له : « أتشعر بأعراض النوبة ؟ » . فأجابها بالنفى شاكرا ، وهنا تساءل دارتانيان : « أية نوبة ؟.. هل صاحب الفخامة يشكو مرضا ؟ » . فقال فوكيه : « انى أعانى حمى متقطعة أصابتنى بعد مهرجان فو »

فقال قائد الفرسان : « ربما أصبت بالبرد ليلا ؟ » . فقال فوكيه : « لا يا سيدى ، كل ما فى الأمر أنى لم أتحمل شدة التأثر ! »

وهنا قال الشاعر فى هدوء : « حقا ! انك أبديت مزيدا من الحماسة فى استقبال الملك ! » . ولم يدر الشاعر أنه بهذه الكلمات قد عاب فى حق الملك . فقال له المسيو فوكيه : « اننا مهما تبلغ حماستنا فى استقبال الملك لا نكون مبالغين ! »

فلم يسع دارتانيان الا أن يقول : « الواقع أن كرم الضيافة لم يوجد قط كما وجد فى مهرجان فو ! »

وهنا جاء الكاتب وسلم المال المطلوب للمسيو دارتانيان ، فلما هم هذا بالانصراف نهض المسيو فوكيه وتناول كأسا من النبيذ وأمر بكأس أخرى للمسيو دارتانيان ثم تجرع كأسه قائلا : « فى صحة الملك دائما ! »

فتجرع دارتانيان كأسه قائلا : « فى صحتك يا صاحب الفخامة دائما » . ثم انحنى مودعا وغادر الحجرة !

وقال المسيو فوكيه بعد انصراف قائد الفرسان وهو يحاول أن يضحك : « لقد حسبت لحظة أنه لم يأت من أجل نقودى ! »

فصاح أصدقاؤه متعجبين سائلين عن السبب ، فقال فى هدوئه المعهود : « لا تخدعوا انفسكم يا أخوتى فى الابيقورية . معاذ الله أن أقارن بينى أنا المذنب الوضيع وبين يسوع ، ولكن تذكروا أنه أدب يوما لأصدقائه مأدبة تسمى (العشاء الأخير) كانت بمثابة التوديع لهم كمأدبتنا هذه ! »

فانبعثت صيحات الانكار من كل جانب ، وعندئذ أمر فوكيه بخروج الخدم واغلاق الأبواب ثم قال بصوت خافت : « أى أصدقائى الأعزاء ، ماذا كنت من قبل ؟. وماذا أنا الآن ؟.. ان رجلا مثلى لا بد أن ينحدر اذا لم يرتفع باطراد . فما بالكم وأنا لم يعد لى مال ولا يثق بى دائن ؟ ! »

فوقف بليسون وقال : « ما دمت تصارحنا هكذا فان من واجبنا أن نصارحك كذلك . هناك سبعمائة ألف ليفر هى كل ما بقى لك كما نعلم ، وهى ... »

فقالت مدام فوكيه متممة : « وهى تكفى ثمنا للخبز القفار ! »

فقال بليسون : « بل تكفى لكى يهرب بها !. يهرب الى سويسرا ، أو الى سافوى ، أو أى مكان ! »

فقالت مدام دى بلبير : « اذا هرب صاحب الفخامة فسيقال انه مذنب وانه خاف ؟ ! »

وقال المسيو فوكيه : « بل يقال أكثر من ذلك فسيذاع عنى أنى هربت ومعى عشرون مليونا ! »

فقال لافونتين : « سنكتب مذكرات فى تبرئتك !.. واذن ينبغى لك أن تهرب كما قال بليسون ! »

فقال فوكيه : « بل سأبقى يا أصدقائى !.. ان كل شىء فى مصلحتى ! »

وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « عندك (بل ــ أيل) فاذهب اليها »

فقال فوكيه : « سأذهب بالبداهة الى هناك ولكن بعد أن تنتهى رحلة نانت ! »

فالتفتت اليه قرينته وقالت : « ما أبعد الشقة الى نانت ! » . فقال لها : « أعرف ذلك . ولكن الملك سيدعونى هناك الى حضور برلمان الطبقات ، ولا شك فى أنه بذلك لا يريد غير احراجى !.. ولكنى لا أريد أن أرفض حتى لا أتهم بالخوف ! »

وحينئذ قال بليسون : « لقد وجدت وسيلة لاصلاح كل شىء. ستسافر الى نانت . ولكنك ستسافر بعربتك أولا مع أصدقائك الى أورليانز ، ثم تستقل زورقك الشراعى حتى نانت على أن تكون على أهبة دائمة للدفاع عن نفسك اذا هوجمت ، وللفرار بنفسك اذا هددت بل تحمل معك مالك لمواجهة كل الظروف . وأنت فى طريقك الى الفرار انما تكون مطيعا للملك وفى خدمته . حتى اذا وصلت الى البحر ، سارعت الى الانتقال الى (بل ــ أيل) .. ومن هناك تدافع عن نفسك فى ذلك الحصن المنيع ! »

فلقيت كل كلمات بليسون موافقة عامة ، وقالت مدام فوكيه لزوجها : « أجل هكذا يجب أن تفعل »

وصاح جميع أصدقائه قائلين : « أجل هذا هو الرأى ! »

فقال فوكيه : « اذن سأفعل ذلك ، وسأبدأ هذا المساء بعد ساعة واحدة بل فى الحال ! »

ثم قال الأب فوكيه : « انك بسبعمائة ألف ليفر يمكنك أن تضع نواة لثروة جديدة. وماذا يمنعنا من تزويد القرصان بالذخيرة من (بل ــ أيل) ؟ »

وقال لافونتين بحماسة : « واذا تطلب الأمر فسنبحر لاكتشاف عالم جديد ! »

وفيما هم فى حديثهم سمعت قرعة على الباب قطعت حديثهم وجاء الحاجب يقول : « رسول من قبل الملك » . فساد المكان صمت عميق . وترقب كل واحد من الحاضرين ما يفعله الوزير ، وكان جبينه يتصبب عرقا ، وقد عاودته الحمى حقا فى تلك اللحظة . ثم انتقل الى مكتبه ليتلقى رسالة الملك وسمع الجميع صوته وهو يقول للرسول : « هذا حسن » وكان صوته مرتعشا يغلبه التعب والتأثر . وبعد برهة نادى جورفيل ثم عاد أخيرا الى ضيوفه وهو فى حالة من الاعياء واليأس فصاحوا به قائلين :

« ماذا هنالك ؟ » . فكان جوابه أن مد رسالة الملك التى كانت فى يده الى بليسون ، فقرأ هذا فيها ما يلى :

« عزيزى المسيو فوكيه . أعطنا مما بقى لنا مبلغ سبعمائة ألف ليفر لأننا فى حاجة اليه للاستعداد للسفر . واذ علمنا أن صحتك ليست على ما يرام نسأل الله لك الشفاء والعافية . . . لويس

« حاشية ــ هذا الخطاب يعد ايصالا »

فتمتم الجميع بما يدل على الفزع . وسأله بليسون : « ماذا عولت عليه ؟ »

فقال : « لقد دفعت المبلغ ! »

فصاحت مدام فوكيه : « دفعته ؟ . . اذن لقد ضعنا ! »

وقال بليسون : « لا فائدة من الكلام ، بعد أخذ المال ستؤخذ الحياة !. الى جوادك اذن !. انك اذا أنقذت نفسك فكأنك أنقذتنا جميعا ! »

وعارضت مدام فوكيه قائلة : « لكنه لا يستطيع أن يمسك نفسه على الجواد ؟ ! »

وفى هذه اللحظة جاء جورفيل يلهث من التعب وقال : « لقد رافقت رسول الملك بالمبلغ الى القصر الملكى ، وهناك وجدت الفرسان على ظهور جيادهم متأهبين ! »

فصاح الجميع قائلين : « اذن يجب ألا تضيع دقيقة واحدة ! »

واندفعت مدام فوكيه تأمر باعداد الجياد . بينما جرت مدام دى بلبير وراءها فاحتضنتها قائلة : « سيدتى . . فى سبيل سلامته ، لا تبدى أى انزعاج ! »

وجرى بليسون ليستوثق من ربط الجياد الى العربة ، وفى الوقت نفسه جمع جورفيل فى قبعته كل ما أمكن أولئك الصحاب أن يضعوه فيها من الذهب والفضة ، ثم حمل بعضهم المسيو فوكيه الى العربة فوضعوه فيها . وصعد جورفيل فأمسك زمام الجياد . وساعد بليسون مدام فوكيه التى اغمى عليها . أما مدام دى بلبير فكانت أقوى منها وتلقت جزاءها على ثباتها فى شكل قبلة أخيرة من فوكيه . وفسر بليسون للخدم والكتبة هذا السفر المفاجىء بأن أمرا من الملك قد صدر بدعوة الوزير الى نانت فورا !

▭

لم يشأ دارتانيان أن يقيد نفسه بفرقة الفرسان فى الرحلة ، فسافر الى نانت بجياد البريد ، وترك الفرقة تلحق به بعد أن أوصى وكيله فيها بسرعة المسير ، ولما مر بشارع (بتى ــ شان) رأى المسيو كولبير يخرج من بيته ليركب عربته التى كانت تنتظر أمام الباب ، ولمح فى تلك العربة رأس سيدتين قد أخفت قبعتاهما وجهيهما ، فحفزه الفضول لأن يعرف شخصيتيهما

ولذا استحث جواده حتى صار الى جوار العربة ، وتبين فيها امرأة شابة هى مدام فانيل وأخرى عجوزا هى دوقة شيفريز . فقال لنفسه : « ان الدوقة العجوز قد ودعت كبرياءها وها هى ذى تتزلف الى خليلة كولبير ؛ يا لفوكيه المسكين . . ان هذا لا يبشر بخير له ! » . ثم مضى فى سبيله

واستقل كولبير عربته عقب ذلك الى غابة فنسين حيث نزلت مدام فانيل عند بيت زوجها ، وبقيت مدام دى شيفريز وحدها معه بالعربة . فأخذت تحدثه مثنية على مقدرته ، مؤكدة أنه لن يلبث قليلا حتى يصبح وزيرا خطيرا بينما لا يكون فوكيه شيئا مذكورا ، ثم وعدته بأن تكسب له ، حين يصبح وزيرا للمالية ، تأييد جميع الأسر النبيلة القديمة فى المملكة ثم قالت له : « لن أقول لك أكثر مما قلته عن المسيو فوكيه . ان الرحلة التى سيقوم بها الملك الى نانت ستسوى حسابه تماما ! ان الملك يتلمس أية ذريعة يتذرع بها ، ومتى عاد من نانت فسيقول : ان برلمان الطبقات لم يسلك المسلك الواجب ولم يقدم الا تضحيات قليلة ، بينما يقول البرلمان : ان المكوس المطلوبة فادحة وان وزير المالية أرهق كاهل البلاد ، وحينئذ ينحى الملك باللائمة كلها على المسيو فوكيه فلا يجرؤ أحد من الذين يؤيدون المسيو فوكيه على الدفاع عنه . . فالآنسة دى لافاليير مثلا ليس لها الا نفوذ ضئيل ، وهى لا تعرف شؤون السياسة . وقد غازلها المسيو فوكيه يوما ، فاذا هى دافعت عنه فكأنها تتهم نفسها !. أما الملكة الوالدة فاذا كانت قد استطاعت من قبل أن تحول بين الملك وبين الأمر بالقبض على المسيو فوكيه فى فو ، فهى لن تستطيع ذلك الآن ، لأنها لا تطيق أحدا ممن اشتركوا بأى شكل فى كشف سر خاص كانت جد حريصة على كتمانه ، وقد كان المسيو فوكيه أحد هؤلاء ! »

فقال المسيو كولبير : « اذن نثق بتأييد الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « نعم ، وقد كنت عندها منذ برهة وجيزة وأكدت لى ذلك ! ولكن هناك مسألة أخرى . أتعرف صديقا حميما للمسيو فوكيه يسمى المسيو دربلاى وأحسبه أسقفا ؟ »

فقال كولبير : « أجل أعرفه ، وهو أسقف مدينة فان »

فقالت الدوقة : « ان المسيو دربلاى هذا يعرف ذلك السر أيضا ، ولذا تطارده الملكة الوالدة الآن بكل ما فى وسعها حتى أنها لا تكتفى بأقل من رأسه لكى تستوثق من أنه لن يتكلم ثانية ! »

فقال كولبير : « سنبحث عن المسيو دربلاى هذا حتى نعثر عليه ما دامت هذه رغبة الملكة الوالدة ! »

فقالت : «ان مكانه معروف،فهو الآن فى جزيرة (بل ــ أيل ــ آن ــ مير) التى يملكها المسيو فوكيه ! »

فقال : « اذن سنقبض عليه هناك فى أقرب وقت ! »

فابتسمت الدوقة وقالت له : « لا تظن أن ذلك أمر يسير »

فنظر اليها كولبير نظرة جادة وقال : « لقد مضى الزمن الذى كان الرعايا فيه يكسبون دوقيات بمحاربة الملك . واذا كان المسيو دربلاى ثائرا فسيموت على المشنقة ، ولن يهمنا أن يسر هذا أصدقاءه أو لا يسرهم ! »

فقالت الدوقة : « انك لا تعرف الكثير عن المسيو دربلاى ! انه أراميس أحد الفرسان الأربعة الذين جعلوا الكاردينال ريشيليو يرتعد فرقا فى عهد الملك السابق ، ثم سببوا متاعب جمة للمسيو مازارين فى عهد الوصاية على العرش ! »

فقال لها : « فليكن يا سيدتى ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الا اذا كان وراءه مملكة تؤيده ؟ »

فقالت جادة : « الواقع أن وراءه مملكة يا سيدى »

فقال : « حسنا !. ما دمت يهمك ألا يهرب هذا الثائر فانى أعدك بألا ندعه يهرب ! »

فقالت : « انك تعلم ان (بيل ــ ايل) محصنة ، وأنه هو نفسه قام بتحصينها »

فقال : « سنحاصرها حتى يسلم ! »

فبدا البشر فى وجهها وقالت : « كن واثقا يا سيدى أن هذا الاخلاص الذى تبديه لصالح الملكة الوالدة سيلقى منها التقدير ، وأنك ستكافأ أجزل المكافأة على اعتقال ذلك الفارس المسمى دربلاى الذى هو أكثر من جاسوس أسباني .. انه قائد الجزويت . وهكذا ترى أننا ان لم نقض عليه فسيقضى علينا جميعا ! »

فقال : « قائد الجزويت ؟!.. اذن لا شىء غير السجن يسوى هذه المسألة يا سيدتى ! »

فابتسمت الدوقة ثانية وقالت : « لعلك لا تعلم أن أراميس فر أكثر من مرة من السجن ؟!.. انه كان أحد الفرسان الأربعة الذين يخشاهم ريشيليو ، ولا تنس أن أولئك الفرسان لم يكونوا وقتئذ يملكون ما يملكونه الآن من المال والخبرة ! »

فعض كولبير شفتيه وقال : « اذن نترك فكرة السجن ، وسنجد له مكانا لا يخرج منه الانسان ! »

فابتسمت وقالت : « أصبت أيها الحليف !. ويحسن بنا أن نعود الآن فان الوقت تأخر بنا » . فوافق على ذلك قائلا : « حسنا يا سيدتى ، فلنعد الآن الى باريس وبخاصة أن على أن أعد معدات السفر لأكون فى معية الملك خلال رحلته ! »

فرار المسيو فوكيه

كانت المرحلة الأولى من سفر المسيو فوكيه أو فراره يسودها القلق والخوف من كثرة الجياد والعربات التى كانت ترى خلفه . والواقع أن لويس الرابع عشر ما كان ليترك فريسته تفلت منه بسهولة . ولكن الوزير الهارب عاوده بعض الاطمئنان حين سبق مطارديه بمسافة بعيدة كما أن اسراعه لم يكن يدعو الى الريبة اذ المعروف أنه مسافر ليلحق بالملك فى نانت . وهكذا وصل مطمئنا برغم تعبه الى أورليانز ، وهناك وجد زورقا جميلا ، ذا ثمانية مجاذيف وبه قمرة صغيرة على سطحه ، فاستقله ومعه جورفيل الى بوجنسى عبر اللوار ، ووصلا اليها دون حادث يذكر فقوى أمل الوزير فى أن يبلغ نانت قبل غيره ، وهناك يرى (الأعيان) ويكسب لنفسه أنصارا بين أعضاء البرلمان ، وبذلك يرجىء النكبة ان لم يستطع منعها ، كما يجد جيادا تقله الى بواتو حيث يركب زورقا يبلغ به حصن (بل ــ ايل) المنيع

على أنهما قبل الوصول الى نانت بساعات لمحا سفينة مسرعة خلف زورقهما كأنها تطارده ، ثم تبينا أن كولبير هو الذى يستقلها ومعه رجال مسلحون ، فلما وصل الجميع الى ميناء نانت اقترب كولبير من فوكيه وحياه باحترام كبير ، وكانت الجماهير قد اجتمعت هناك ، فوقف فوكيه رابط الجأش ورد تحية خصمه قائلا وهو يتصنع الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو كولبير ؟!.. اذن كانت سفينتك تلك التى رأيناها خلفنا وفيها اثنا عشر مجذافا ؟.. ما هذا الترف يا مسيو كولبير ، لقد حسبت أن تلك السفينة تقل الملكة الوالدة ! »

فاحمر وجه كولبير وغمغم قائلا : « يا صاحب الفخامة ! » . بينما استطرد فوكيه فقال له : « ان هذه الرحلة ستتكلف كثيرا ولكنك وصلت لحسن الحظ . ولعلك رأيت كيف وصلت قبلك مع أن زورقى ليس به سوى ثمانية مجاذيف ! »

ثم أدار له ظهره وركب العربة التى كانت البلدية قد أعدتها لتقله الى دارها . ولم يكد يستقر بالدار حتى خرج جورفيل ليأمر باعداد جياد تقلهما الى بواتييه وفان ، وزورق يقلهما من هناك الى بامبيف . وقد حرص على أن يؤدى هذه المهمة خفية دون أن يعلم بها فوكيه

وذاع فى خلال الليل أن الملك قادم بسرعة على جياد البريد ، وقد يصل بعد عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة ، ووقفت الجماهير تنتظر المليك ،

وكانت قد سرت بمنظر الفرسان الذين وصلوا مع المسيو دارتانيان قائدهم ليكونوا حرس شرف بالقصر

وحوالى الساعة العاشرة جاء المسيو دارتانيان لزيارة المسيو فوكيه بدافع الأدب والمجاملة ، فلم يجد هذا بدا من مقابلته فى حجرة النوم ، برغم تألمه من الحمى التى جعلت العرق يتصبب من بدنه ، وحياه بصوت واهن ، فسأله دارتانيان : « كيف كانت رحلة صاحب الفخامة ؟ »

فقال فوكيه : « لا بأس بها وشكرا لك . وها أنذا أتجرع دواء مهدئا كما ترى ! »

فقال قائد الفرسان : « يجدر بك أن تنام أولا يا صاحب الفخامة »

فقال : « يسرنى أن أنام لو استطعت ذلك ، ولكن كيف أنام مع هذه الحمى ، ومع توقع زيارة قائد الفرسان لى باسم الملك ؟ ! »

فقال دارتانيان : « كلا ، ليس الأمر هنا كما كان فى باريس ، وثق يا صاحب الفخامة بأننى فى اليوم الذى أزورك فيه باسم الملك للغرض الذى تفهمه ، لن أجعلك فى شك من الأمر . بل ستراني أضع يدى على سيفى ، وستسمعنى أقول لك بلهجة رسمية : (باسم الملك أقبض عليك !) . ولكنا لم نصل الى هذا .. وأقسم لك بشرفى ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان ، ولكن ما الذى جعلك تعتقد عكس هذا الذى أعتقده ؟ »

فقال : « اننى لم أسمع أى شىء تشتم منه تلك الرائحة ، وثق يا سيدى بانك رجل لطيف برغم الحمى التى بك ، وليس يسع الملك الا أن يحبك من قرارة فؤاده ! »

فبدا الشك فى وجه فوكيه وقال له : « وهل يحبنى المسيو كولبير أيضا ؟ »

فأجابه دارتانيان : « انى لا أتحدث عن المسيو كولبير . انه رجل شاذ ، ولا يحبك . ولكن السنجاب يستطيع أن يحمى نفسه من الثعبان بقليل من الجهد ! »

فقال له الوزير : « أتدرى أنى لم أصادف فى حياتى أحدا بمثل ذكائك وطيبة قلبك ؟ »

فحنى دارتانيان رأسه شاكرا وقال : « انك لم تشرب الدواء بعد ياصاحب الفخامة ! » . ثم ناوله الدواء فى مودة ظاهرة فأخذه منه فوكيه وهو يبتسم ، وقال قائد الفرسان : « لقد قضيت عشر سنوات تحت بصرك وأنت تنثر الذهب ، وتنفق معاشا قدره أربعة ملايين فى السنة ، لكنك لم تلحظ وجودى قط ، ولكن ثق يا سيدى بأنى أقدرك كل التقدير ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك !.. هذا يجعلنى أنسى سوء التقدير الذى يلاحقنى به المسيو كولبير ! »

فقال دارتانيان : « يبدو أن المسيو كولبير أثقل عليك من الحمى التى تشكوها ! »

فقال فوكيه : « ان لى ما يبرر ذلك ، وقد كان يطارد الزورق الذى جئت به الى هنا مطاردة الواثق من أن نكبة يجب أن تحل بى ! »

وهنا بدا الجد فى هيئة دارتانيان وقال : « الحق معك يا سيدى ! » . بينما واصل الوزير كلامه قائلا : « ألا تحسب الملك قد جاء بى الى نانت لكى يبعدنى عن باريس حيث لى أعوان كثيرون ، ثم يستحوذ على (بل ــ أيل) ..؟ »

فقال دارتانيان : « أنت تعنى رغبة الملك فى الوصول الى المسيو دربلاى الذى لجأ الى هناك ، على أننى أذكر لك يا صاحب الفخامة أن الملك لم يقل لى شيئا ضدك . لقد أمرنى جلالته أن أسافر الى نانت ومعى فرقة من الفرسان ، وأمرنى كذلك بألا أذكر شيئا عن ذلك للمسيو دى جيفر الذى تنطق عيناه بغير ما تنطق به شفتاه . أما الفرقة فتضم تسعة وتسعين فارسا ، أى مثل عدد الفرسان الذين خولوا القبض على دى شاليه ودى سانت مارس ومونتمورنسى »

فأصغى فوكيه الى هذه الكلمات التى كان دارتانيان يقولها بغير اكتراث . ثم سأله : « ألم يأمرك الملك بغير ذلك ؟ »

فأجاب قائلا : « لقد أصدر الى أوامر أخرى غير ذات شأن ، مثل حراسة القصر وحراسة كل مسكن فيه وألا أترك حراس دى جيفر يحتلون أى موقع فيه »

فنظر اليه فوكيه مليا ثم قال له : « يا عزيزى المسيو دارتانيان .. ان شرفى وربما حياتى نفسها ، فى خطر شديد ، فبماذا أمرك الملك فى شأنى ؟ »

فقال دارتانيان فى هدوء : « ألم أقسم بشرفى أن ليس عندى فى شأنك أى أمر من الملك ؟.. ثق يا سيدى بأن جميع الأوامر التى تلقيتها من الملك ليس فيها ما يتعلق بك ، فهى كلها اجراءات بوليسية كهذه التى ذكرتها لك ، وكمنع الجياد والعربات من أن تغادر نانت دون أمر موقع عليه من الملك ... »

وهنا قطع فوكيه كلامه هاتفا : « رباه ! أأمر الملك بهذا أيضا يا مسيو دارتانيان ؟ »

فضحك دارتانيان وقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن كل هذا لا ينفذ الا بعد وصول الملك الى نانت . وهكذا ترى أن الأمر لا صلة له بك ! »

فبدا التفكير فى وجه فوكيه وتظاهر دارتانيان بأنه لا يلحظ ما هو فيه من قلق وقال : « انى اذ أذكر لك الأوامر التى أصدرها الملك انما أريد أن أثبت لك انها لا تتعلق بك ، والا ما كان لى أن أوقع نفسى فى ورطة باتاحة

الفرصة أمامك للهرب حيث لا شرطة ولا حراس ولا أوامر ، والنهر حر والطريق حرة ، بل انى لا مانع لدى من اعادة جيادك لك اذا شئت مغادرة ثانت قبل وصول الملك ، ويمكنك أن تطلب الى ما تشاء فانى فى خدمتك . وليس لى ما أطلب فى مقابل ذلك الا أن تؤدى لى خدمة مشكورة بأن تبلغ تحياتى الى أراميس وبورتوس اذا أبحرت الى (بل ـ أيل) ، ما دام لك الحق فى ذلك الآن ! »

ثم انحنى أمام الوزير وغادر جناحه • ولم يصل الى درج الردهة حتى دق فوكيه الجرس وصاح بالخدم قائلا : « أعدوا جيادى وزورقى ! »

ثم ارتدى الملابس التى وجدها فى متناول يده وصاح وهو يضع ساعته فى جيبه : « أين جورفيل ؟ » . وجاء هذا مسرعا وهيئته تدل على الرعب ، فما رآه فوكيه حتى صاح به : « هيا بنا ! »

فقال جورفيل : « لقد فات الوقت يا سيدى ، لأن الملك وصل الى القصر الآن ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « اذن لقد ضعنا ! »

والواقع أن الملك كان فى تلك اللحظة يدخل المدينة ، فأطلقت المدافع من الحصون تحية لقدومه وجاوبتها مدافع من سفينة حربية بالنهر . وتملك فوكيه اليأس فنادى وصفاءه وارتدى ثيابه الرسمية ، ورأى من وراء ستائر النافذة تحمس الجماهير وحركة الجيوش . ومضى موكب الملك الى القصر وسط مظاهر فخمة ، ثم رآه يهمس شيئا فى أذن دارتانيان بعد أن نزل من فوق ظهر جواده عند الباب . فاتجه دارتانيان صوب البيت الذى نزله فوكيه ولكن ببطء وتردد . ففتح فوكيه النافذة ليكلمه وهو فى الردهة . ولما رآه دارتانيان صاح به قائلا : « ألا تزال هنا يا صاحب الفخامة ؟.. لقد جئت أسأل عن صحتك ، ولكى أرجو أن تذهب الى القصر اذا سمحت بذلك حالتك الصحية . ان وصول الملك لم يدع لأحد حرية المرور بل هناك كلمة سر تتحكم فينا جميعا ! »

فتنهد فوكيه من أعماق قلبه ، ثم ركب عربته متهالكا فيها على المقعد وذهب الى القصر فى صحبة دارتانيان !

القبض على فوكيه

ما كاد فوكيه يهبط من عربته أمام القصر حتى خف اليه رجل وضيع المظهر وانحنى له فى اجلال كبير ثم ناوله خطابا ، وقد حاول دارتانيان أن يحول دون اقتراب ذلك الرجل من الوزير ، ولكن هذا كان قد تسلم منه الخطاب • ولما قرأه بدا عليه فزع لم يفت دارتانيان • ثم وضع فوكيه الورقة فى حافظة أوراقه التى يحملها تحت ابطه وقصد الى جناح الملك

وفيما كان دارتانيان يتطلع من نوافذ السلم الى خارج القصر لمح الرجل الذى جاء بالخطاب الى الوزير ، ولاحظ أنه يخاطب بعض الافراد باشارات معينة اختفوا عقبها فى الشوارع المجاورة بعد أن كرروا تلك الاشارات • وفى طريقه الى المقصورة الملكية مر أمام فوكيه الذى كان واقفا ينتظر بالشرفة المجاورة للردهة الصغيرة ، وما كاد لويس الرابع عشر يرى قائد فرسانه حتى هتف به قائلا : « حسنا •• هل نفذت الأمر ؟• أين المسيو فوكيه ؟ »

فانحنى دارتانيان وقال : « انه يتبعنى يا مولاى »

فقال له الملك : « اذن دعه يدخل بعد عشر دقائق »

ثم صرف دارتانيان باشارة من يده ، على أن هذا لم يكد يصل الى حيث كان فوكيه ينتظر حتى دق الملك الجرس طالبا أن يعود اليه ، ثم سأله قائلا : « ألم تلاحظ على فوكيه شيئا من الدهشة ؟ » • ولما أجاب بالنفى صرفه الملك مرة أخرى ، فخرج دارتانيان وقد أكد ظنه أن الملك لم يذكر كلمة (مسيو) قبل اسم الوزير • ولم يكن فوكيه قد غادر الشرفة التى وقف بها ينتظر ، وعاد يقرأ الرسالة التى وضعها ذلك الرجل فى يده ، وكان فيها ما يلى : « ان شيئا يعد ضدك • ولعلهم لا يجرؤون على تنفيذه بالقصر ، على أن ينفذوه فى الطريق عند أوبتك • ان القصر الآن محاط بالفرسان فلا تدخل • هناك جواد أبيض ينتظرك خلف الميدان »

وكان فوكيه قد أدرك منذ وقعت عينه على الخطاب أنه بخط صديقه المخلص جورفيل ، فأشفق أن يقع هذا الصديق فى مأزق بسبب خطابه هذا اذا هو قبض عليه ، وسرعان ما مزق الخطاب قطعا صغيرة وقذف بها من الشرفة فحملتها الريح الى كل ناحية • وفيما هو ينظر اليها وهى تطير جاءه دارتانيان وقال له : « ان الملك فى انتظارك يا سيدى »

فمشى فوكيه بخطى ثابتة فى الردهة الصغيرة حيث كان (دى بريين)

و (روز) يعملان ، بينما جلس (سان ــ اينيان) على كرسى صغير وسيفه بين ساقيه ينتظر الاوامر فى صبر نافد · وعجب فوكيــــه كيف لم يلتفت اليه هؤلاء الثلاثة أقل التفات مع أنهم كانوا عادة كثيرى الأدب نحوه ، ولكنه تجاهل ذلك قائلا لنفسه : « ماذا ينتظر من رجال البــلاط غير ذلك بعد أن أدركوا غضب الملك على وزيره ؟ » · ثم مضى فى طــريقه وقد رفع رأسه أمام الجميع ، الى أن دخل جناح الملك بعد أن أعلن قدومه جرس صغير هناك

ولما رآه الملك أومأ له برأسه دون أن يقــوم للقائه ، ثم سأله : « كيف أنت يا مسيو فوكيه ؟ »

فقال : « اننى أشعر بحمى شديدة ، ولكنى فى خدمة الملك على كل حال! »

فقال الملك : « حسنا !·· ان البرلمان سيجتمع غدا فهل أعددت خطابا؟ »

فنظر فوكيه الى الملك مندهشا وقال : « لم أعد أى خطاب يا مولاى، ولكنى لن أجد مشقة فى الارتجال ما دمت ملما بكل صــغيرة وكبيرة من شئون الوزارة · على أنى أريد أن أسأل جلالتك سؤالا واحدا فهل تسمح جلالتك بذلك ؟ »

قال : « سل ما تريد »

فقال : « لماذا لم تذكر جلالتك لوزيرك الأول أن عليه أن يعد خطابا ؟ »

قال : « لم أرد أن أجهدك لعلمى بأنك مريض ! »

فقال الوزير : « ان العمل لا يجهدنى كما يعلم مولاى ، وعلى كل حال أرجو أن يسمح لى مليكى باستيضاح أمر آخر »

فاحمر وجه الملك ، وسأله : « أى أمر يا مسيو فوكيــــه ؟ » · فأجاب الوزير : « ان بعض الناس قد افتروا على كذبا ، ولهــــذا أطمع فى عدالة جلالتك »

فبدا الضجر فى وجه الملك وقال : « انى أعــــرف كل شىء ولا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسىء اليك ! »

فقال الوزير : « شكرا لك يا مولاى ، على أنى أرجو أن تسمح لى جلالتك بأن أدفع عن نفسى ما بلغوك عنى من الوشايات والاتهامات ! »

فقال الملك وقد اشتد ضجره : « أكرر لك أنى لا أتهمك بشىء »

فانحنى فوكيه قليلا وتراجع خطوة الى الوراء وهو يقول لنفسه : « لا ريب أنه قد صمم على قرار · انه اعتاد ألا يتراجع بأى حال »

ثم قال للملك : « هل بعثت جلالتك فى طلبى لأجل اجتماع البرلمان غدا فقط ؟ »

فقال الملك : « كلا يا مسيو فوكيه ، بل أردت أن أنصح لك بأن تستريح وتستجم ولا تبدد قوتك هبــاء · ان اجتماع البرلمان لن يطول ، ولن تكون هناك بعد ذلك أعمال عاجلة فى باريس لمدة أسبوعين ! »

فقال الوزير : « أليس لدى الملك ما يقوله لى بشأن اجتماع البرلمان ؟ »

قال : « كلا ·· كل ما أريده أن تستريح ! »

فعض فوكيه شــفتيه من الغيظ ، وحنى رأســـه متظاهرا بالاقتناع ، لكن الملك لم يفته أنه مشغول البال فسأله متلطفا : « أيغضبك أن تستريح يا مسيو فوكيه ؟ »

فتنهد الوزير وقال : « الواقع يا مولاى انى لم أعتد الراحــة حتى حين أكون مريضا ، ثم انى سمعت جلالتك الآن تتحــدث عن خطاب ألقيه فى البرلمان ! »

فبهت الملك لهذه الملاحظة القوية ، ولحظ فوكيه تردده وخيــل اليه أنه يقرأ نذير الخطر فى عينيه فقال لنفسه : « لو أبديت خوفا لضعت » · ثم قال للملك : « ما دام مولاى يشفق على صحتى الى حد الاستغناء عن عملى ، فهل لى أن أطمع فى أن يسمح لى بالتخلف عن اجتماع المجلس غدا لأعتكف فى الفراش ؟ »

فقال له الملك : « كما تشاء يا مسيو فوكيه ، اعتكف غدا وسأبعث اليك طبيبى ليعالجك من الحمى التى تشكوها »

فانحنى فوكيه شاكرا ، ثم أراد أن يرمى آخر سهم فى جعبته فنظر الى الملك متفرسا وقال : « هل لى أن أرجو تفضل جلالتك بزيارة قصر (بل ــ أيل) ·· ؟ »

فاحمر وجه الملك ثانية وقال وهو يحاول أن يبتسم : « هذا ما اعتزمته يا مسيو فوكيه ، وأنت تذكر طبعا أنك أهديت الى هذا الحصن ! »

فقال فوكيه : « نعم أذكر ذلك يا مولاى · وانه لشرف عظيم لى أن أرى كل هذه الحاشية العسكرية تأتى من باريس لهذا الغرض ! »

فقال الملك متلعثما : « ان الفرســـان لم يأتوا من باريس لأجــل ذلك وحده · وقد سمعت مديحا كثيرا فى فلاحيك هناك ولهذا أريد أن أراهم · واذا كانت لديك وسائل للانتقال فلنسافر غدا الى (بل ــ أيل) اذا شئت! »

فشعر الوزير بهذه الضربة وقال : « الواقع يا مولاى أنى كنت أجهــل رغبة جلالتك هذه ــ وعلى الأخص رغبتك فى السفر بهذه السرعة ــ ولهذا لا تزال الزوارق الخمســـة التى عنــدى كلها فى الميناء ، أو فى بامبيف ، واحضارها الى هنا يستغرق على الأقل أربعا وعشرين ساعة · فهل أبعث رسولا لاحضارها ؟ »

فقال الملك : « يجب أن تشــفى أولا من الحمى · فلننتظر الى غد ! » · ثم هم الملك بدق الجرس فحال فوكيه دون ذلك قائلا : « معذرة يا مولاى! · ان بى ألما ورعدة من الحمى · واذا بقيت لحظة أخرى فربما أغمى على · ولذا أرجو من جلالتك السماح لى بالذهاب لآوى الى فراشى ! »

فنظر اليه الملك وقال : « انك ترتعد حقا يا مسيو فوكيه ، فاذهب الى فراشك وسوف أستعلم عن صحتك »

فقال فوكيه : « شكرا لمولاى على هذا العطف الكريم ، وانى لأشعر بأن صحتي ستتحسن بعد ساعة على الأكثر ، وسيسرنى أن أعتمد الآن على ذراع أى انسان ! »

فدق الملك جرسه الصغير وصاح قائلا : « يا مسيو دارتانيان »

فضحكفوكيه وقال : «أتعطيني قائد فرسانك لكييأخذني الى مسكني؟٠ ان هذا شرف يحتمل معنيين يا مولاى ٠ ان حاجبا يكفى لهذا الغرض ! »

فقال الملك دون أن يضحك : « ان المسيو دارتانيان كثيرا ما يقودنى ! »

فرد فوكيه قائلا : « انه حين يقود جلالتك يا مولاى انما يكون فيخدمتك ورهن اشارتك فقط ، أما حين أعود الى بيتى وذراعى فيذراع قائدالفرسان فسيقال فى كل مكان انك أمرت بالقبض عـــلى ٠٠ ولا شك فى أن بعض الناس سيضحكون فرحا لذلك ! »

وكان فوكيه بارعا فى هذا الهجوم فقد جعل لويس الرابع عشر يتراجع أمام الأمر الذى ينتويه ٠ فلما جاء المسيو دارتانيان قال له : « كلف أحد فرسانك أن يرافق الوزير »

فقال فوكيه : « ان جورفيل ينتظر فى الخارج ، وهـذا يكفى ٠ على أنى يسعدنى أن المسيو دارتانيان سيرى (بل ــ أيل) وهو الخبيربالاستحكامات»

فانحنى دارتانيان دون أن يفهم شيئا ، وانحنى فوكيه للملك ثانيـة ثم غادر الجناح الملكى وحده فى وقار حتى اذا صار خارج القصر قال لنفسه : « لقد نجوت !٠٠ يا لك من ملك غادر ! انك سترى (بل ــ أيل) ولكن حين لا أكون هناك ! »

وقال الملك لدارتانيان بعد أن انصرف فوكيه : « اســمع يا كابتن ٠٠ ستتبع المسيو فوكيه على بعد مائة خطوة ، وستقبض عليه باسمى وتحجزه فى عربة بحيث لا يتكلم فى الطريق مع أحد ولا يرمى ورقة لأحد !٠ وقد أعددت لذلك عربة ذات قضبان متشابكة ، وقد ربطت بها الجيـاد وأخذ سائقها مكانه فيها ، وهى الآن والفرسان ينتظرون فى فناء القصر »

فانحنى دارتانيان وقال : « والى أين نقود المسيو فوكيه ؟ »

فقـال : « الى قصر أنجير أولا ، ولا تنس أن المسيو دى جيفر سيغضب لأننا اســتخدمنا الحرس الخاص دون حرسـه هو فى القبض على المسيو فوكيه ! »

فانحنى دارتانيان وقال : « ان جلالتك لم تستخدم حرسك الخاص الا لأنك تحرص على ألا يهرب المسيو فوكيه ، واذا كان هــذا قد يحدث مع سواى فانه لا يحدث معى يا مولاى ، برغم اعتقادى التام بأن المسيو فوكيه

ليس رجل سوء ٠ والآن عندى أوامر أنفذها ويمكنك أن تعد المسيو فوكيه مقبوضا عليه وأنه محبوس فى قصر أنجير »

فقال الملك : « لكنك لم تقبض عليه بعد يا كابتن ! »

فقال : « هذا أمر يخصنى ٠كل انسان له صناعته يا مولاى ٠ ولكن اذا كان مولاى جادا فى هذا الأمر الذىأصدره الى بالقبض على المسيو فوكيه ، فأرجو التفضل باعطائى هذا الأمر مكتوبا »

فناوله الملك ورقة وقال : « هاك الأمر مكتوبا ! »

فانحنى دارتانيان وغادر الغرفة ٠ ولمح من الشرفة جورفيـل ذاهبا فى سرور صوب مسكن فوكيه !

▭

قال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا عجيب حقا ٠ جورفيل يمشى هكذا فى الشوارع مسرورا مع أنه يعلم علم اليقين أن المسيو فوكيه فى خطر ، ومع أن من المؤكد أن جورفيل نفسه هو الذى حذر المســيو فوكيه بتلك الرسالة التى مزقها الوزير اربا فى الشرفة »

ثم تتبع دارتانيان وهو ينظر من شرفة القصر العالى شوارع نانت،فرأى خارج أبواب المدينة طريقين أبيضين ، وشارع ايرب يقود الى أحد هـذين الطريقين ، وهم بأن يهبط الدرج ويأخذ العربة ذات القضبان المتشـابكة ويذهب الى مسكن المســيو فوكيه ، ولكن اتفق أن لفت نظره وهو يهبط الدرج نقطة تتحرك فى ذلك الطريق ٠ فسأل نفسه : « ما هذا ؟ انه جواد يركض ، وعليه أحد الناس٠لابد أن يكون غلاما قد ظمىء جواده فهو يذهب به الى نقطة بشاطىء النهر لكى يشرب » ٠ ثم وجـد على بعض الدرج قطعا من الورقة التى مزقها فوكيه فتناولها وقال : « انهـا بخط جورفيل ٠ ان الحظ حليف لويس الرابع عشر على فوكيه » ٠ وما لبث أن قرأ عــلى تلك الورقة كلمة « جواد » وتناول ورقة ثانية فلم يجد بها شيئا ثم ثالثة فوجد بها كلمة « أبيض » ٠ فارتاب فى الأمر وقال : « انه اذن جـواد أبيض ٠ ليس غير فوكيه يركب هكذا وسط الحقول فى وضح النهار٠ليس غير وزير المالية يهرب هكذا نحو البحر ليستقل زورقا الى بل ــ أيل »

وسرعان ما أمر بالمضى بالعربة ذات القضبان الحديدية الى غابة فى خارج المدينة ، ثم اختار أحسن جياده وقفز فوق ظهره وجرى به فى شارع ايرب، ثم لم يتخذالطريق الذى سلكه فوكيه بل سار علىشاطىء اللوار وهو موقن أنه بذلك يقتصد عشر دقائق فى المسافة كلها ، وانه عند مفترق الطريقين يستطيعادراك الهارب الذى لا يدرى أنه مطارد٠ومنعجب أنه ــ وهوالشفيق على فوكيه ــ قد صار الآن قاسيا يكاد يطلب دمه ٠ وظل مدة طويلة يجرى

به جواده دون أن يلمح الجواد الابيض،فخاف أن يكون فوكيه قد اختفى فى طريق تحت الارض ، أو أن يكون قد أبدل بجواده الابيض أحد تلك الجياد السوداء الشهيرة التى تسابق الريح ، وكان دارتانيان قد رآها فى (سان ـ انديه) وأعجب بها · وأعمل مهمازه فى الجواد حتىكاد يقتله من السرعة وصار يلوم نفسه اذ ترك جورفيل يخدعه ويقول لنفسه انه لا شك قد بلغ به الكبر مبلغه ، وتصور أن الناس سوف يقولون انه أخذ من فوكيه مليون فرنك ليدعه يهرب · وانه لكذلك اذا به يرى بغتة شبحا أبيض على بعد ، وكان يسير بسرعة البرق،فقال لنفسه : «ان فوكيه ليس فوق جواد عادى ! يجب أن أدركه ولو قتلت جوادى · لعل الجواد الابيض يضعف ، واذا لم يسقط من التعب فقد يسقط راكبه » · ولكن الجواد وراكبـه ظلا ينهبان الارض نهبا · فصاح دارتانيان صيحة مرعبة جعلت فوكيـه يلتفت وراءه ويزيد فى سرعة جواده · وعندئذ صرخ دارتانيان بأعلىصوته : « يا مسيو فوكيه ! قف ! قف ! باسم الملك ! »·ولكن فوكيه لم يجب·وعاد دارتانيان يصيح : « أتسمعنى ؟ قف ! » · وكاد دارتانيان يجن جنونه ، وغلا الدم فى عروقه حتى صعد الى عينيه · ثم صاح : « قف باسم الملك والا أطلقت عليك الرصاص » · فصاح فوكيه قائلا : « أطلق » · ولم يقف

فأمسك دارتانيان بمسدسه وصوبه وصـاح به : « ان معك مسدسك فاستدر ودافع عن نفسك »

واستدار فوكيه ولكنه لم يلمس جراب المسدس · ولم تكن المسافة التى بينهما تزيد على عشرين خطوة · فقال له دارتانيـــان : « انى لا أريد أن أغتالك · اذا كنت لن تطلق الرصاص على فاستسلم ! »

فأجاب فوكيه : « انى أوثر الموت ، فانه أخف ألما ! »

فغلب اليأس على دارتانيان وقذف بمسدسه الى الارض وقال : «سآخذك حيا ! »

وببراعة لا تتاح لغير ذلك الفارس جعل جواده أمام الجواد الابيض بعشر خطوات ، ثم مد يده استعدادا لامساك فوكيه · فصاح به هذا : « اقتلنى· اقتلنى · ان ذلك أقرب الى الانسانية ! »

فتمتم الكابتن قائلا : « كلا بل آخذك حيا ! »

واتفق فى هذه اللحظة أن عثر جواده فاستطاع جواد فوكيه أن يتقدمه !

وعادت المطاردة من جديد فتملك دارتانيان اليأس وأمسك بمسدسه وصوبه قائلا : « الى جوادك لا اليك »·وأطلقه فأصاب الجواد الابيض ولكنه ظل يعدو . وفى تلك اللحظة وقع جواد دارتانيان ميتا فصاح دارتانيـــان بخصمه يقول : « اقذف الى مسدسا لأطلقه على رأسى .. اننى أوثر أن أموت ميتة شجاع بهذا الطريق على أن أقتل نفسى بعد ساعة ! »

ثم أخذ يجرى على قدميه وراء فوكيه ، وتخلص من قبعته وردائه وغمد

وقال الملك للمسيو فوكيه : « لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسىء اليك »

سيفه لكى يخف حمله ، وما لبث قليلا حتى ألقى سيفه أيضا حتى لا يعوقه عن العدو . وبدا الوهن يصيب الجواد الابيض فتعثر فى مشيته وظهر الزبد على فمه ممزوجا بدم . وبذل دارتانيان جهدا مضاعفا حتى وصل الى فوكيه فامسك به من احدى سناقيه وقال له وهو يلهث من التعب : « باسم الملك اقبض عليك !. اطلق الرصاص على رأسى اذا شئت . لقد أدى كل منا واجبه ! »

وكان جواب فوكيه أن ألقى فى النهر بالمسدسين اللذين كانا معه ، ثم نزل من فوق جواده قائلا : « انى أسيرك يا سيدى ، استند الى ذراعى فانى أراك مشرفا على الاغماء ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : « شكرا لك ! » . وكان يحس ان الارض تتحرك تحت قدميه وأن السماء تذوب فوق رأسه ، بينما انطلق فوكيه الى حافة النهر فاغترف بعض الماء فى قبعته ورجع بها الى دارتانيان وأعطاه رشفات من الماء وراح يربت عارضيه بالقبعة المبللة وهو يبتسم له فى عطف ، فغمغم الفارس القديم قائلا : « شكرا لك يا سيدى . ان هذا النبل العظيم من محكوم عليه مثلك لا يمكن أن يرقى اليه لويس الملك الجالس على عرش فرنسا، ولا فيليب نزيل سانت مرجريت ! »

فابتسم فوكيه فى مرارة وقال : « لقد كان جديرا بى أن اتخذك صديقا يا مسيو دارتانيان ، ولكن هكذا كان . والآن كيف نعود الى نانت وقد صرنا على مسافة بعيدة منها ؟. ان الجواد الابيض قد يستعيد قوته ، وعلى هذا تستطيع أن تركب أنت وأمشى أنا حتى تستريح ! »

فقال دارتانيان : « ان هذا الجواد المسكين لا يستطيع السير لأنه جريح ! »

فقال فوكيه : « أؤكد لك أنه يستطيع السير . انى أعرفه جيدا يا مسيو دارتانيان ، بل هو يستطيع أن يحملنا معا ويسير بنا فى بطء . فهيا نحاول ذلك »

ثم ركبا الجواد معا ، فمضى بهما بضع دقائق فى الطريق الى نانت ، ثم غلبه التعب فتعثر فى مشيته وما لبث قليلا حتى سقط ميتا !

ووقف فوكيه ودارتانيان هنيهة صامتين ، ثم قال فوكيه : « سنسير على أقدامنا . ان القدر يريد ذلك ! »

ثم تأبط ذراع دارتانيان ، ومشيا فى بطء كأنهما يتنزهان ، حتى اذا قطعا الفراسخ الاربعة التى تقع فى نهايتها الغابة حيث خبئت العربة ذات القضبان المتشابكة ، قال فوكيه لدارتانيان وهو يشير الى العربة : « لماذا تلك القضبان المتشابكة يا مسيو دارتانيان ؟.. انها ليست فكرتك ولا شك ! »

فقال قائد الفرسان وهو يكاد يذوب خجلا : « هكذا أراد الملك حتى لا تلقى رسالة الى أحد فى الطريق . على أنك ان لم تستطع الكتابة الى من تشاء ففى استطاعتك أن تقول ما تريد فيبلغ الى من تريد ! »

فنظر اليه فوكيه شاكرا وقال : « انها كلمة واحدة هى كلمة (سان ــ ماندیه) . فهل تعدنى بأن تبلغها الى مدام دى بلبير أو الى بليسون ؟ »

فقال دارتانيان : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم ركب العربة فمضت فى شوارع نانت حتى بلغت طريق أنجير

▭

كانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما نفد صبر الملك فخرج الى الشرفة وترك باب الردهة مفتوحا ليرى ما يفعله سكرتيروه . وكان المسيو كولبير جالسا يتحدث بصوت منخفض مع المسيو دى برييِن . فدخل عليهما الملك فجأة وسأل : « ماذا تقولان ؟ »

فنهض المسيو دى برييِن وقال : « كنا نتحدث عن اجتماع البرلمان »

فقال الملك : « حسنا » . ثم رجع الى غرفته . وبعد خمس دقائق دق الجرس داعيا اليه روز سكرتيره الخاص وسأله : « هل انتهيت من النسخ ؟ وهل رجع المسيو دارتانيان ؟ »

ولما علم بأن دارتانيان لم يرجع بعد ، بدت فى وجهه أمارات الدهشة والقلق ، وأمر بأن يدعى اليه المسيو كولبير ، وكان هذا فى انتظار ذلك منذ الصباح ، فلما رآه الملك قال له : « يا مسيو كولبير .. أريد التأكد مما حدث لدارتانيان »

فقال كولبير بصوته الهادىء : « أين تريد جلالتك أن نبحث عنه ؟ »

فقال الملك : « الا تدرى أين بعثته ؟.. اننى لم أخبرك بهذا ولكن هناك أشياء تستطيع أن تعرفها بالحدس والتخمين ! »

فقال كولبير متلعثما : « ان الظن يخطىء أحيانا كما يصيب أحيانا »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى دخل دارتانيان شاحب الوجه وقال للملك : « مولاى .. هل جلالتك أصدرت الى الفرسان أمرا فى شأن المسيو فوكيه ؟ »

فقال الملك : « كلا ، وهنا عض دارتانيان على طرفى شاربه وأشار الى كولبير قائلا : « اذن لم أخطىء فى حدسى .. ان هذا السيد هو الذى أمر بقلب دار المسيو فوكيه رأسا على عقب ، وبضرب خدمه وتحطيم خزائنه ونهبها ! »

فامتقع وجه كولبير ، وواصل دارتانيان كلامه فقال : « ان الملك وحده هو الذى له الحق فى اصدار الأوامر الى فرسانى . أما أنت فلا حق لك فى ذلك . وأنا أقول لك أمام صاحب الجلالة : ان السادة الذين يحملون السيوف ليسوا مثل أولئك الاشخاص الذين يحملون أقلاما وراء آذانهم ! »

فقال له الملك : « دارتانيان !. علام هذه الضجة كلها ؟ »

ولكن دارتانيان استمر فى كلامه قائلا : « ان هذا مهين !. لقد وصم فرسانى بوصمة العار . انى لا أقود جماعة من الناهبين السالبين ولا كتبة فى المالية . وهذا السيد ما كان يعرف أوامر جلالتك ، ولا أنى ذهبت للقبض على المسيو فوكيه ، ولكنه مع هذا أرسل المسيو دى رونشير الى دار المسيو فوكيه بحجة البحث عن أوراق صاحبها ، وكنت قد وضعت فرسانى حولها منذ الصباح ، فأمرهم المسيو كولبير بالاشتراك فى اقتحامها واتلاف أثاثها ونهب ما فيها !. اننا فى خدمة الملك ولسنا فى خدمة المسيو كولبير ! »

وهنا أسكته الملك قائلا فى حدة : « حذار يا مسيو دارتانيان . ان مثل هذه الأقوال لا تقال فى حضرتى ، وبمثل هذه اللهجة ! »

وقال كولبير متلعثما : « لقد فعلت ما فيه مصلحة الملك . وانى ليحزننى أن ألقى مثل هذه المعاملة من أحد ضباط جلالته فلا أستطيع الرد احتراما لمقام الملك ! »

فقال له دارتانيان وعيناه تقدحان شررا : « ان احترام مقام الملك يكون أولا بجعل سلطته تحترم وشخصه يحب . وأما اذا لعن الناس اليد التى تضربهم باسم الملك فهذا شىء آخر !. وانه لعجيب حقا أن يحتاج مثلك الى تعلم الرافة والشفقة من جندى مثلى قضى أربعين سنة فى ميادين القتال وسفك الدماء !. انك يا سيدى ألقيت القبض على كثير من الأبرياء وكبلتهم بالأغلال ثم قذفت بهم الى السجن . فبأى حق فعلت هذا ؟ ! »

فقال كولبير : « لعلهم شركاء المسيو فوكيه ؟ ! »

فقال دارتانيان : « من الذى قال لك ان المسيو فوكيه كان له شركاء ؟. بل من الذى قال لك انه مجرم ؟. ان الملك يا سيدى هو الذى يستطيع أن يقول ذلك لأن عدالته ليست عمياء !. ثم ما هذا الذى تقوله يا سيدى عن احترام مقام الملك ؟. ان جلالته لا يمكن أن يسمح بمثل هذا التهديد . وثق كل الثقة بأننى أعرف لنفسى حقها وأعرف كيف أحميه ! »

ووقف قائد الفرسان أمام الملك وكولبير شامخ الرأس متقد النظرات ويده على سيفه ، وشفتاه ترتعشان ، ولم يخف عليه تردد الملك وحيرته فانحنى له كأنما يستأذنه فى الانصراف. ولكن الملك استوقفه قائلا : « انك فى حاجة الى الراحة يا كابتن ، ويمكنك أن تذهب لتستريح ، ولكن خبرنى أولا : ماذا كانت نتيجة المهمة التى عهدت اليك فيها ؟ »

ولم يسع كولبير الا أن ينحنى للملك ثم يغادر الغرفة وعيناه تشعان بالوعيد لدارتانيان ، فلما صار هذا وحده مع الملك ولى عنه الغضب وقال : « مولاى .. ان الفجر هو الذى يدل الناس على أن اليوم سيكون صحوا أو معتما . وانت ملك شاب فى فجر عهدك فماذا يقول الناس عن مستقبلهم فى هذا العهد اذا كان بين وزرائك من يحفزهم الغضب الى استعمال العنف

والتنكيل ؟. ولكن عفوا يا مولاى ولأحدثك عن مهمتى أولا .. لقد قبضت على المسيو فوكيه و ... »

فقطع الملك كلامه وقال له فى حدة : « لقد استغرقت وقتا طويلا فى أداء هذه المهمة ! »

فنظر دارتانيان الى الملك متعجبا وقال : « عفوا يا مولاى ، انى أخطأت التعبير فالواقع أنى لم أقبض على المسيو فوكيه ولكنه هوالذى قبض على ! »

فبدت الدهشة فى وجه الملك ، بينما أخذ دارتانيان يروى له ما حدث من هرب فوكيه على جواد أبيض ، ثم مطاردته اياه وما كان من نبل فوكيه بعد ذلك ، ثم قال : « ان رجلا له هذا الخلق الكريم يا مولاى لا يمكن أن يكون عدوا للملك . وانى اذ أصارح جلالتك برأيى هذا لأقدر ما قد تقوله جلالتك من أن القبض عليه يرجع الى أسباب تتعلق بالدولة » . فسكت الملك قليلا ثم قال : « أين المسيو فوكيه الآن ؟ »

فقال له دارتانيان : « انه الآن يا مولاى فى القفص الحديدى الذى أعده له المسيو كولبير ، والجياد تعدو به فى الطريق الى أنجير ! »

فسأله الملك : « لماذا تركته بالطريق ؟ »

فأجاب قائلا : « ان جلالتك لم تأمرنى بالذهاب الى أنجير ، وهناك سبب آخر هو أن المسيو فوكيه المسكين لن يحاول الهرب لو أننى بقيت معه ! »

فبدت الدهشة فى وجه الملك وسأله مستنكرا : « ماذا قلت يا كابتن ؟ »

فأجاب قائد الفرسان : « ان جلالتك تدرك ولا شك أن حريته صارت أعز أمانى بعد تصرفه معى على ذلك النحو . ولقد سلمته الى أغبى جندى بين فرسانى لكى أتيح له فرصة الفرار »

فشبك الملك ذراعيه فوق صدره وقال فى غضب : « هل جننت يا مسيو دارتانيان ؟.. لماذا اذن لم تسر فى ركاب ذلك الذى أراد المسيو فوكيه أن يضعه فوق عرشى ؟ »

فأجاب دارتانيان فى هدوء : « لو أن المسيو فوكيه لم يسارع اليك فى الباستيل ، لسارع اليك رجل واحد هو دارتانيان ! »

فسكت الملك ، وبعد قليل رجع كولبير الى الحجرة فسأله الملك : « هل قمت بتفتيش منزل المسيو فوكيه ؟ وماذا وجدتم فيه ؟ »

فقال كولبير : « ان المسيو دى رونشير الذى ذهب الى هناك مع الفرسان سلمنى بعض الأوراق »

فقال الملك : « سأنظر فيها فيما بعد ، أما الآن فهات يدك لكى أضعها فى يد المسيو دارتانيان ! »

ثم التفت الملك الى دارتانيان وقال له : « انك يا مسيو دارتانيان لا تعرف هذا الرجل حق معرفته ، لكنك ستعرف أى رجل عظيم هو حين أرفعه الى مركز من الدرجة الاولى ! »

فارتبك كولبير سرورا وخجلا ، وغمغم هو ودارتانيان كلمات لم تسمع بينما واصل الملك كلامه فقال : « ان المعارضة الشديدة التى أبداها ازاء المسيو فوكيه كانت موجهة ضد الفساد لا ضد الاشخاص ، وان فى ذهنه من الآراء ما هو جدير بأن يجعل من مليكه ملكا عظيما ويحقق لوطنه رخاء عاما »

ومد كولبير يده فصافح دارتانيان قائلا : « ان لم أستطع أن أكسب لنفسى مودة بطل شريف مثل المسيو دارتانيان ، فانى لأرجو بتصرفاتى أن أكسب تقديرك ! »

وأثرت هذه الكلمات فى نفس دارتانيان فانحنى لكولبير باحترام ، وهنا صرفهما الملك مغتبطا بأنهما تصالحا ، فغادرا الغرفة معا ، ولما صارا خارجها قال دارتانيان للوزير الجديد :

ــ ان شعاع الشمس يمنع الأعين من رؤية اللهب المتوهج . ولكن ما دمت قد وصلت الى مركزك فلماذا تواصل اضطهاد رجل منكوب سقط من شاهق ؟

فقال كولبير : « أنا لا أضطهده يا سيدى وانما أردت أن أدير مالية الدولة واثقا من كفاءتى ونزاهتى ، لكى أنشىء بمال الدولة مدنا وثغورا ، كما أنشىء بحرية تحمل علم فرنسا الى أقصى الأقطار ، وأفتح مكتبات عامة وأكاديميات . ويومئذ لا أرى مانعا من طلب الرحمة للمسيو فوكيه الذى كان يحول دون تلك الاعمال ! »

فقال دارتانيان : « ان الملك لم يسحقه الا من أجلك يا سيدى ! »

فرفع كولبير رأسه وقال : « من أجلى أنا ؟ ! ان الأمر ليس كذلك يا سيدى فعند الملك أسباب خاصة لمعاداة المسيو فوكيه وأنت أدرى بهذه الأسباب ! »

وهنا سمعا صوت الملك يصيح بسكرتيريه أن ينادوا دارتانيان فسارع هذا اليه ، وقال الملك : « أعط المسيو دى (سان ــ اينيان) عشرين من فرسانك ليكونوا حراسا على المسيو فوكيه ، ولكى يقودوه من أنجير الى الباستيل فى باريس ! »

ثم قال لسان اينيان : « أطلق الرصاص على كل من يحاول التحدث مع المسيو فوكيه ! »

فانحنى (سان اينيان) وذهب لينفذ الأمر ، وهم دارتانيان بالانصراف ولكن الملك استبقاه قائلا : « اذهب توا الى (بل ــ أيل ــ أن ــ مير) وخذ معك العدد الكافى من الجنود لمواجهة أى تمرد يقع هناك ! . لقد رأيت ذلك الموقع فى حداثتى ولا أحب أن أراه ثانية ، فاذهب اذن ولا تعد الا بمفاتيح ذلك الحصن ! »

وهنا التفت كولبير الى دارتانيان وقال له : «هذه مهمة جليلة اذا أحسنت أداءها كنت جديرا بعصا المارشالية ! »

فسأله دارتانيان : « وهل لديك شك فى أننى سأحسن أداءها ؟ »

فقال كولبير : « ان لك أصدقاء هناك يا مسيو دارتانيان ، وليس يسيرا على رجل مثلك أن يمشى فوق جثث أصدقائه لكى يصل الى النجاح ! » . فلم يجد دارتانيان كلمة يقولها وخرج

وبعد ربع ساعة تسلم دارتانيان أمرا مكتوبا موقعا عليه من الملك، يقضى بأن يدك (بل ــ أيل) اذا قاومت ، وبمنحه السلطة المطلقة على جميع من بالجزيرة حتى لا يتمكن أحدهم من الفرار

وقال دارتانيان لنفسه : « ان عصا المارشالية ستكلفنى حياة صديقين عزيزين كما قال كولبير ، ولكنهما ليسا أغبى من الطيور ، لكى ينتظرا الصياد ويبسطا له أجنحتهما ليصيبها بسهولة ! »

ثم مضى يعد العدة لحشد الجيش الملكى دون أن يضيع دقيقة واحدة !

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي
مع تحيات : MICO MARK
Mico_maher@hotmail.com

القائد الأسير

وقف أراميس وبورتوس يتحدثان معا عند شاطىء البحـــر في جزيرة (بل ــ ايل) • وقال بورتوس متعجبا : « ان اختفاء جميع زوارق الصيد التي أبحرت منذ يومين يبدو حادثا غير طبيعي ، فالبحر هادىء كما ترى ، بل لو أنه كانت هناك عاصفة ما غرقت تلك الزوارق كلها ! »

فقال له أراميس : « صدقت يا عزيزي بورتوس ، ان هذا الأمر لا يخلو من غرابة »

فقال بورتوس : « وأعجب من هذا أن الزورقين الباقيين بالجـــزيرة لم يعودا بعد أن أرسلتهما للبحث عن الزوارق الأخرى ! »

وهنا صاح به أراميس قائلا : « ماذا تقـــول يا بورتوس ؟ هل أرسلت الزورقين الباقيين ليبحثا عن الزوارق الأخرى ؟•• اذن لقد ضعنا ! »

فارتاع الى بورتوس وسأله : « ماذا تقول ؟•• أنضيع لأننا لن نجـــد زورقا نتنزه به في البحر هنا ؟ ؟

فقال أراميس : « بل ضعنا لأننا لن نستطيع السفر بعد ضياع الزورقين الباقيين ! »

فقال بورتوس : « ولماذا نسافر ما دامت الأوامر التي عندنا تقضي بأن نعتصم هنا في (بل ــ ايل) وندافع عنها ضد الغاصب ؟ ! »

فتمتم أراميس قائلا : « صدقت ! » • ثم سكت وأخذ ينظر الى البحـــر نظرات زائغة • وظن بورتوس انه اقتنع بما قاله له فاستطرد قائلا : «انك لم تفسر لي كيف اختفت جميع تلك الزوارق ، على الأقل لكي أستطيع أن أجيب عن الأسئلة التي تنهال علي من نساء الصيادين والملاحين وأولادهم ؟»

فقال أراميس : « افرض أي شيء ولا تجب بشيء !•• المهم هو أن تجيبني الآن عن هذا السؤال : ألا ترى زورقا في عرض البحر قادما نحونا ؟ »

فقال بورتوس وهو يدقق النظر الى نقطة سوداء على صفحة الماء : «انهما زورقان بل ثلاثة بل أربعة ••• بل هو أسطول كامل يا عزيزي أراميس!»

فقال أراميس منزعجا برغم تظاهره بالهدوء : « لعلها زوارق الجـــزيرة عائدة ! »

فقال بورتوس : « كلا •• انها أكبر من زوارق الصيد • ألا تلاحظ انها قادمة من نهر اللوار ؟•• وها قد اجتمع النساء والأطفال على الشـــاطىء لرؤيتها !•• »

ولم يجب أراميس بشيء • ثم مر بهما صياد عجـــوز وصاح وقد رأى الزوارق القادمة : « انها ليست زوارقنا !•• فهي تحمـــل أعلاما كالتي تحملها سفن نقل الجنود ! »

فصاح بورتوس في فرح : « اذن هو مدد أرسل الينا يا أراميس ؟ »

ففكر أراميس هنيهة ثم قال له : « بورتوس ! قم فأعط اشارة الخطر ، ومر رجال المدفعية بأن يستعدوا خلف مدافعهم ، ثم راقب أنت بطـــاريات الشاطىء ! »

ففتح بورتوس فاه من الدهشة ونظر الى صديقه ليســـتوثق من أنه لم يصبه خبل • ولما رأى أراميس تردده قال له : « سأذهب أنا فورا لاعطـــاء هذه الأوامر ! »

فقام بورتوس وهو يقول : « سأذهب أنا لتنفيذها يا عزيزي ما دمت مصرا على أن القادمين أعداء ! »

ولم تمض دقائق حتى كانت الجزيرة على استعداد للدفاع

وبعد ساعة ، كانت السفن قد اقتـربت من الجزيرة ، واستطاع الأهالي والجنود المرابطون فوق الصخور أن يروا في ضوء الشمس الغاربة علم ملك فرنسا يرفرف فوق أشرعتها ، كما رأوا احدى تلك السفن تقف في عرض البحر حين وصلت الى مرمى المدافع من الجزيرة ، ثم أنزل منها زورق صغير فيه ثلاثة رجال اتجهوا بُه صوب الميناء ، وما لبثوا قليـــلا حتى وصلوا الى سفح الحصن ، فقفز أحدهم الى الشاطىء وكان ممسكا خطابا بيده يلوح به في الهواء طالبا مقابلة المسيو دربلاي ، فصحبه اثنان من الجنود حتى وصلا به الى أراميس ، وكان هذا واقفا على رصيف الميناء وقد شمل الظلام المكان برغم المصابيح التي يحملها بعض الجنود، على أن أراميس عرف فيه جوناتان دليل الميناء فهتف به سائلا : « أين كنت وممن هذا الخطاب ؟ »

فأجاب قائلا : « بعد أن خرجنا للبحث عن رفاقنا لم نكد نقطع فرسخا حتى أسرتنا سفينة تابعة للملك ، وضمنا رجالها الى رفاقنا الذين أسروهم منذ يومين ، وقد أفرجوا عنا اليوم وأعطاني هذا الخطاب لفخامتك قائدهم وهو الكابتن دارتانيان ! »

فأمر أراميس بادناء المصباح منه،ثم فض الخطاب فوجده بخط دارتانيان وفيه يقول :

« أمر الملك بالاستيلاء على (بل ــ أيل) وبقتل حاميتهـــا اذا قاومت • وأمر بسجن جميع رجال الحامية • وقد قبضت منذ يومين على المسيو فوكيه لزجه في الباستيل •• دارتانيان »

فامتقع وجه أراميس ، وسأله بورتوس متعجبا : « ما هذا ؟•• انه لشيء عجيب جدا !•• »

واستأنف جوناتان كلامه فقال : « وقد ذكر المسيو دارتانيان أنه مستعد لأن يكلمك على ظهر سفينته . وكلفنى أن أكون فى خدمتكما بزورقى اذا شئتما الذهاب اليه للحصول على معلومات أوفى ! »

فقال بورتوس : « اذن نذهب اليه فورا »

فعارض آراميس قائلا له : « كلا !.. ربما يكون هنـــاك فخ منصوب لنا ! » . ثم التفت الى دليل الميناء وقال له : « ارجع الى مسيو دارتانيان وأخبره بأننا نرجو حضوره هو الى الجزيرة »

فقال جوناتان : « وماذا أصنع اذا رفض الحضور ؟ »

فقال له أراميس : « اذا رفض فعندنا مدافعنا وسنستخدمها ! »

فصاح بورتوس : « نستخدم مدافعنا ضد دارتانيان ؟ ! »

فقال له أراميس : « اذا كان هو دارتانيان حقا يا بورتوس فانه سيأتى ! » ثم أمر جوناتان بالرجوع لتبليغ الرد ، فمضى هذا لتنفيذ الأمر ، بينمـــا تمتم بورتوس قائلا : « لست أفهم شيئا من كل هذه الألغاز ! »

فقال له أراميس : « سأشرح لك الآن كل شىء يا صـــديقى العزيز . هيا اجلس على عربة المدفع هذه وأصغ الى ، فقد آن الأوان لكى تعرف جلية الأمر »

فجلس بورتوس وقال : « انك يا صـــديقى تحسن الكلام حتى ان فى استطاعتى أن أستمع اليك أياما دون أن أضجر . ولكى أسهل عليك الأمر سأوجه أنا اليك أسئلة لكى تجيب عنها . أما السؤال الأول فهـــو : لماذا نحارب هنا ؟ »

فأجاب أراميس بقوله : « الحق ان الاعتراف مهما يكن شاقا فانه يسهل أمام رجل شجاع كريم مثلك . فاعلم يا صديقى العزيز أننى خـدعتك مع الأسف الشديد ! »

فقال بورتوس : « أنت خدعتنى ؟.. حسنا يا عزيزى ، اذا كان هـــذا لصالحك فانك تكون قد أديت لى خدمة ، لأنك لو لم تخدعنى لخدعت نفسى فى هذه الحالة ، فبماذا خدعتنى ؟ »

فقال أراميس : « اننى كنت أخدم الملك الغاصب الذى يوجه الآن لويس الرابع عشر جهوده ضده ! »

فحك بورتوس رأسه قائلا : « الملك الغاصب ؟ ! انى لا أفهم تماما ! »

فقال له : « انه أحد اثنين يتنازعان تاج فرنسا ، وليس هو لويس الرابع عشر ! »

فقال بورتوس : « هل لى أن أفهم من ذلك اننا ثائران على الملك لويس الرابع عشر ؟ ! وعلى هذا كانت الدوقية التى وعدت بها لا أساس لها ؟ ! »

فقال أراميس : « ان الملك الآخر هو الذى كان سيمنحك هذه الدوقية،

وثق يا صديقى بأنه لو كان الأمر قد تم طبقا لخطتى لأصبحت أنت أميرا . أما وقد فشلت الخطة لسبب خارج عن ارادتى فسأسوى المسألة فيما بينك وبين الملك لويس الرابع عشر الغاضب علينا الآن بأن ألقى التبعة كلهـــا على عاتقى ، فأنا وحدى الذى دبرت تلك المؤامرة ، وقد كنت فى حاجة الى رفيق فلجأت اليك ولبيت أنت طلبى دون أن تعلم شيئا من أغراضى ! »

فقال بورتوس : « ما دمت قد عملت لصالحك فمن المحال أن ألومك . انه لأمر طبيعى أن تلجأ فى ذلك الى صديق حميم ! »

وضغط بورتوس يد صديقه أراميس فى نبل وسماحة . فشعر هذا بأنه برغم ذكائه صغير الى جانبه ، واستطرد بورتوس فقال : « والآن وقد علمت موقفنا من لويس الرابع عشر ، أحسب أنه قد آن الأوان لأن تطلعنى على المؤامرة السياسية التى كنت ضحية لها »

فقال أراميس : « ان دارتانيان صديقنا العزيز قادم الينا وسيقص عليك تفصيل تلك المؤامرة . ولكن ثق بأنى فى أشد الألم من اجلك ، وسأبذل كل جهدى لكى أخرجك من المأزق الذى دفعتك فيه . . اننى أنا وحدى الذى تآمرت ضد الملك لويس الرابع عشر ، أما أنت فلم تكن الا أسيرا عندى ، وسأطلق سراحك الآن لتعود الى مليكك مع صديقنا دارتانيان قائد فرسانه القادم الآن ! »

وهنا سمع الصديقان صوت زورق يرسو على الشاطىء فصاح أراميس : « دارتانيان ؟ »

وكان قائد الفرسان هو القادم حقا فهتف قائلا : « أجل أنا دارتانيان » . ثم صعد سلالم الرصيف مسرعا حتى اذا بلغ وسطها وقف فجأة ثم التفت الى ضابط كان يتبعه وقال له : « لسنا الآن على ظهر السفينة حيث يسرى الأمر الذى معك ! »

فقال له الضابط على مسمع من أراميس وبورتوس : « ان الأمر الذى معى يا سيدى يقضى بأن أتبعك وأقف على كل حديث لك مع أى انسان ! »

فارتعد أراميس وبورتوس من القلق ، بينما عض دارتانيان على طرف شاربه لشدة غيظه واقترب من الضابط وقال له : « لقد سمحت لك بالاطلاع على الكتاب الذى أرسلته الى هنا ، كما سمحت لك بسماع كل كلمة قالها الرسول بعد عودته جوابا عن ذلك الكتاب ، وتركتك تتبعنى حتى وصلنا الى (بل ـ أيل) والأمر الذى معك من المسيو كولبير لا يسرى فيها ، وعلى هذا سأواصل الصعود الى هذين السيدين وحدى ، فان أنت خطوت خطوة أخرى خلفى ، فأقسم لأقطعن رأسك شطرين بهذا السيف ثم لأقذفن بك فى البحر ! »

فامتقع وجه الضابط ولكنه لم يتحرك من مكانه وقال لدارتانيان : « اننى سأؤدى واجبى يا سيدى ! » . ثم رسم علامة الصليب على صدره ومضى

يصعد السلم خلف قائد الفرسان ، وهنا صرخ بورتوس وأراميس وأسرعا ليحولا دون ضربة السيف التى كادت تصيب الضابط ، بينما قال له دارتانيان : « انك رجل شجاع ، ولهذا أقول لك : ان هذين السيدين صديقاى وأريد أن أتحدث معهما دون شاهد ! »

فقال الضابط : « لست أستطيع أن ألبى طلبك هذا يا سيدى ، وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أسىء الى بطل مثلك أجله وأمجده . وعلى هذا سأجلس هنا على السلم ريثما تتحدث مع صديقيك ! »

وتعانق الأصدقاء الثلاثة ، ثم قال دارتانيان لأراميس وبورتوس : « لقد منع الملك دخول أى شىء الى الجزيرة أو خروجه منها . والسفن الحربية واقفة لكما بالمرصاد للقبض عليكما ، وكنت أريد أن آخذكما الى سفينتى لتكونا على مقربة منى ثم أطلق سراحكما . ولكن ما يدرينى الآن أنى حين أرجع الى السفينة لا أجد أوامر سرية تنزع القيادة منى وتعطيها شخصا سواى يتصرف بى وبكما دون أمل لنا فى أى عون ؟ ! »

فقال أراميس : « اذن نبقى فى (بل ــ أيل) وأؤكد لك اننا لن نستسلم بسهولة ! »

وراظ دارتانيان أن بورتوس لم يقل شيئا فعجب لذلك ثم قال : « سأجرى تجربة أخرى مع هذا الضابط الشجاع ، انه خصم شريف شجاع كما رأيتما » . ثم التفت الى الضابط وسأله : « اذا أردت أن آخذ هذين السيدين معى فماذا تفعل ؟ »

فأجاب الضابط : « ليس لى أن أعارض ذلك يا سيدى ، ولكن عندى أوامر مشددة بأن أبقيهما فى هذه الحالة تحت حراستى ! »

فغمغم أراميس قائلا : « لقد انتهى الأمر ! » . ثم قال لدارتانيان : « خذ معك بورتوس ، وسيكون فى امكانه بمعاونتك أن يثبت للملك أنه لم تكن له يد فى الأمر كله »

وهنا قال بورتوس : « أحب أن أفكر أولا فى هذا الأمر » . . فتبادل صديقاه نظرات اعجاب به واشفاق عليه . ثم همس دارتانيان فى أذن أراميس بضع كلمات ، قال له هذا على أثر سماعها : « انها فكرة بديعة ولا شك ! »

ومرة أخرى عانق دارتانيان صديقيه ، ثم غادر (بل ــ أيل) مع الضابط الذى كان ينتظره صامتا ، وما كاد يصل الى سفينته حتى دعا جميع الضباط الثمانية الذين تحت قيادته وبينهم هذا الضابط وقال لهم : « لقد ذهبت الى (بل ــ أيل) ووجدتها حصينة ذات حامية قوية لديها من معدات الدفاع ما قد يكون متعبا لنا . وعلى هذا أقترح أن ندعو الى هنا الضابطين الرئيسيين فى حامية الجزيرة ليريا بأعينهما القوة التى تحت تصرفنا ويقدران المصير الذى ينتظر الحامية ان لم تستسلم . وسنؤكد لهما أن المسيو فوكيه سجين الآن وأن كل مقاومة لا فائدة منها »

وهم الضابط الذى تبعه بالكلام ، ولكنه منعه قائلا : « اننى أعرف أن هناك أمرا من الملك بمنع كل اتصال سرى بالمدافعين عن (بل ــ أيل) ولهذا لا أريد الاتصال بأحد منهم الا أمامكم »

وبدا من الضباط أنهم موافقون على هذا الاقتراح ، فسر دارتانيان وهم بارسال زورق ليجىء بأراميس وبورتوس ، ولكن ذلك الضابط ناوله ورقة مطوية كتب عليها رقم (١) وقال له : « اقرأ هذا الأمر أولا يا سيدى ! »

فبسط دارتانيان الورقة وقرأ فيها ما يلى : « محظور على المسيو دارتانيان أن يجمع أى مجلس حربى أو أن يفاوض بأى شكل قبل استسلام (بل ــ أيل) واعدام رجال حاميتها بالرصاص . . لويس »

فتمالك دارتانيان نفسه وتصنع الابتسام وقال للضابط : « حسنا يا سيدى !. ان أوامر الملك مطاعة ! »

ثم خاطب الجميع قائلا : « أيها السادة . . ما دام الملك قد عهد الى غيرى فى شأن أوامره السرية فهذا دليل على أنى غير جدير بثقته . وعلى هذا سأعود توا لأقدم لجلالته استقالتى ، وأطلب اليكم جميعا أن تعودوا معى الى شاطىء فرنسا »

وخيل الى دارتانيان ان خطته لانقاذ صديقيه كللت بالنجاح ، اذ يكون فى استطاعتهما متى فك الحصار عن الجزيرة أن يفرا الى انجلترا أو أسبانيا. غير أن الضابط أبرز أمرا ثانيا من الملك هذا نصه : « فى اللحظة التى يبدى فيها المسيو دارتانيان رغبته فى الاستقالة تنتهى قيادته للحملة ولا يدين أى ضابط بالطاعة له . وعليه فى هذه الحالة أن يعود فورا الى فرنسا بصحبة الضابط الذى يبلغه هذه الرسالة ، وعلى هذا الضابط أن يعده أسيرا يسأل عنه ! »

وامتقع وجه دارتانيان برغم شجاعته وقلة اكتراثه ، وقال لنفسه : « فلأضع هذا الأمر فى جيبى حتى لا يطلع عليه أحد قبل أن أنقذ صديقى البائسين ! »

على أنه ما كاد يهم بتنفيذ فكرته هذه حتى أبصر الضباط حوله يقرأون صورا من ذلك الأمر وزعها عليهم الضابط . ثم اقترب منه هذا قائلا : « سيدى . . انى أنتظر ابداء رغبتك فى الرحيل ! »

فقال دارتانيان وهو يكظم غيظه : « انى مستعد ! »

فأمر الضابط باعداد زورق له ولأسيره ، ثم ناول قائد الأسطول ورقة مطوية وقال له : « هذه تعليمات الملك ! »

وما كاد الزورق الذى استقله دارتانيان وأتباعه من الفرسان مع الضابط يقترب من شاطىء فرنسا حتى وصل الى مسامعهم دوى المدافع التى بدأ الأسطول اطلاقها على (بل ــ أيل)

رجع أراميس وبورتوس الى الحصن الكبير بالجزيرة بعد أن تركهما دارتانيان ، وكان بورتوس يبدو مشغول الفكر فقال له أراميس : « عندى

فكرة تجعلنا نستعيد حريتنا بعد اثنتى عشرة ساعة . ان صديقنا دارتانيان سيعود ليقدم استقالته للملك ، وفى أثنـاء رجوعه سيرفع الحصـار عن الجزيرة ، وبذلك نستطيع أن نغادرها سالمين ، أو تستطيع أنت ذلك على الأقل ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اما أن ننجو معا يا أراميس ، واما أن نبقى هنا معا ! »

فقال له : « حقا انك لنبيل طيب القلب يا بورتوس ، غير أن اكتئابك يحزننى ! »

فقال بورتوس : « انى لست مكتئبا يا أراميس ، ولكنى مشغول البال بكتابة وصيتى لأنى أشعر منذ أيام بشىء من الضعف فى ساقى ، وقد جرت العادة فى أسرتنا بأن يكون هذا الشعور نذيرا باقتراب نهاية صاحبه . وقد كان جدى أنطوان له ضعف حجمى وقوتى وكان فى مثل عمرى الآن حين خرج يوما للصيد فشعر بضعف فى ساقيـه لم يشعر بمثله من قبـل ، ولم يمض قليل حتى صادف خنزيرا بريا فأطلق عليه بندقيته ولكنه أخطأ المرمى فهجم عليه الوحش ومزقه شر ممزق ! »

فقال له أراميس : « ليس فيما تقوله أى داع لأن تقلق على نفسـك يا عزيزى بورتوس ، وأمامك فرص كثيرة . لكن ... »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « وكذلك كان أبى جاسبار فى مثل قوتى ، وكان جنديا باسلا من جنود هنرى الثالث ثم هنرى الرابع ، فاتفق أن شعر بضعف فى ساقيه يوما وهو ينهض عن المائدة فقال لأمى ضاحكا : (أترانى سيقتلنى خنزير برى كالذى قتل أبى ؟) . فنصحت له أمى بأن يأوى الى فراشه ولكنه أصر على الخروج الى الحديقة وسرعان ما زلت قدمه وهو يهبط أولى درجات السلم فسقط على حجر حطـم رأسه وقضى لساعته ! »

فقال له أراميس : « هذان حادثان لا يقاس عليهما ، وليس يليق برجل فى مثل قوتك أن يؤمن بالخرافات ، ثم انك لم تكن قط بمثل القوة التى تبدو بها الآن حتى لتستطيع أن تحمل بيتا فوق كتفيك ! »

فقال بورتوس : « على كل حال ليس فى الموت ما يخيفنى ولكنه يقلقنى الى حد ما . ان الحيـاة عزيزة على من يملك ثروة ومزارع وجيـادا وله أصدقاء يحبهم مثل دارتانيان وآتوس وراءول وأنت ! »

وأعجب أراميس ببساطة بورتوس كما أعجب بصراحته اذ لم يخف عليه المرتبة الأخيرة التى صار ينزله فيها بين أصدقائه ، فمد اليه يده قائلا : « لا يزال أمامنا سنوات عديدة نحياها لنحفظ للعـالم نماذج من الرجال النادرين . ثق بى يا صديقى ... اننا لم نتلق جوابا من دارتانيان وهذه علامة طيبة . لا شك أنه قد أصدر أمرا بحشد السفن تمهيدا للعودة بها . وقد أمرت باعداد سفينة شراعية عند فوهة كهف لوكماريا لكى نبحر بها

من هناك فى الظلام . ومتى وصلنا الى أسبانيا فثق بأنك ستنال لقب دوق الذى تستحقه ! »

وانهما لكذلك اذا بصيحة تطرق آذانهما : « الى السلاح ! الى السلاح ! » . وأطل أراميس من النافذة فأبصر جمعا من الناس ، بعضهم يحملون المصابيح وبعضهم جنود يحملون بنادقهـم ، ورآه أحـد هـؤلاء فهتف به قائلا : « الأسطول ! الأسطول ! » . فخرج ومعه أراميس وسارعا الى الميناء حيث وقفا خلف المدافع المعدة للدفاع ، بينما سفن الأسطول تقترب من شاطىء الجزيرة . وبعد خمس دقائق بدأ اطلاق المدافع ، ولم تمض الا ثوانٍ حتى تمكنت بعض السفن من الوصول الى الشاطىء ، وهبط منها الجنود الى البر حيث بدأ الالتحام بين المهاجمين والمدافعين !

وكأنما عاد أراميس وبورتوس الى أيام الشـباب فهجمـا على رجال الأسطول فى قوة وعنف ، وأثار هذا حمية رجالهما فاستبسلوا فى القتال ، واضطر جنود الملك ان يعودوا الى سفنهم حاملين جرحاهم الكثيرين !

وقال أراميس لصاحبـه : « أسرع يا بورتوس ، يجب أن نأسر أحدا منهم ! »

وسرعان ما مد بورتوس يده القوية فقبض بهـا على عنق أحد ضباط الأسطول الملكى وكان واقفا ينتظر حتى يركب جميع جنوده ثم رفعه بيده فى الهواء كأنه يحمل سمكة وقال لأراميس : « أيعجبك هذا الأسير ؟ »

فضحك أراميس وقال له : « ألم أقل لك انك لم تبد فى يوم من الايام أقوى مما أنت الآن ؟ »

فقال بورتوس : « لا تنس أنى أخذته بيدى لا بساقى ! »

وقد سر البريتانيون من أهل الجزيرة بهذا الانتصار ولكن أراميس لم يشجعهم على الزهو والفخر ، بل قال لبورتوس : « ان الملك ستثور ثائرته حين يعلم بنبأ هذه المقاومة وسيصب جام غضبه على أهل الجزيرة الطيبين فيأمر باعدام من يؤسر منهم فيما بعد ! »

فقال بورتوس : « هل معنى هذا أن ما فعلناه لا جدوى منه ؟ »

فقال أراميس : « ربما يكون له بعض الفائدة فى الوقت الحاضر فقد أسرنا أسيرا وسنعلم منه ما يعده أعداؤنا لنا » . فأومأ برأسه موافقا وقال : « اذن هيا بنا نستجوب الاسير ، ولعلنا نحسن أن دعوناه الى العشاء معنا ، حتى اذا لعبت الخمر برأسه أفاض فى الكلام ! » . فوافق أراميس على ذلك

وكان الضابط الاسير قلقا فى البداية ، غير أنه اطمأن بعد قليل فأخذ يقص على أراميس وبورتوس بلا حيطة تفاصيل استقالة دارتانيان ورحيله ، وذكر لهما كيف أمر القائد الجديد للحملة بمداهمة الجزيرة

وسأله أراميس عما يعتزمه قائد الحملة نحو قائدى حامية الجزيرة

فأجاب قائلا : « ان الاوامر تقضى بالقتل فى اثناء القتال ثم الشنق بعد ذلك ! »

فتبادل أراميس وبورتوس نظرات قلقة وعلت وجهيهما حمرة ، ثم قال اراميس : « انى خفيف الوزن لا اصلح للمشنقة ، والناس الذين مثلى لا يشنقون ! »

فقال بورتوس : « أما أنا فثقيل الوزن الى حد أن اى حبل للمشنقة لا بد أن ينقطع اذا علقت به ! »

وهنا قال لهما الأسير معجبا : « انى واثق بأننا كنا نسمح لكما بالميتة التى تختارانها ! »

فقال له أراميس : « شكرا جزيلا لك يا سيدى »

وانحنى له بورتوس ثم قدم له كأسا أخرى وتناول كأسه وشرب نخبه ... وطال الحديث معه متنقلا من موضوع الى آخر . وكان الضابط شابا ذكيا وقد فتنه أراميس بذكائه ولباقته كما أعجبه من بورتوس بساطته ومودته . وما لبث قليلا حتى قال لهما : « معذرة اذا سألتكما : الستما من فرسان الملك السابق ؟ »

فأجابه بورتوس : « أجل يا سيدى بل كنا من احسن فرسانه !»

فقال الضابط : « بل أحسن الفرسان جميعا ! وانا اقول هذا برغم أنه يسيىء الى ذكرى أبى ! »

فنظر اليه كلاهما متسائلين عما يقصد باساءته الى ذكرى أبيه ، وواصل هو كلامه فقال :

ـ ان اسمى جورج دى بيسكارا

فصاح بورتوس : « بيسكارا ؟ ألا تذكر هذا الاسم يا أراميس ؟ »

ففكر أراميس هنيهة وهو يردد اسم بيسكارا ، ثم سبقه بورتوس الى الكلام قائلا :

ـ بيسكارا الملقب بالكاردينال ، أحد الاربعة الذين اعترضونا بسيوفهم يوم بدأنا صداقتنا مع دارتانيان !

فقال أراميس : « الآن تذكرت !. انه كان الوحيد الذى لم نجرحه يومئذ من أولئك الاربعة ! »

فقال الضابط الأسير : « ذلك لانه كان من أبرع المبارزين بالسيف ! »

فصاح أراميس وبورتوس معا : « يسرنا أن نعرف ابن ذلك الرجل الشجاع ! »

ومدا اليه يديهما فصافحهما بحرارة ، ونظر أراميس الى بورتوس نظرة كأنه يقول بها : «ها هنا رجل سيساعدنا بلا تردد» . ثم قال أراميس للضابط :

« من سوء الحظ أن تعرف اليوم رجلين مقدرا لهما الاعدام بالرصاص أو بحبل المشنقة ! »

فقال الضابط الشاب فى حماسة : « كلا يا سيدى . . انكما لن يقدر لكما مثل هذا المصير ! »

فقال له : « لكنك انت نفسك قلت ذلك منذ قليل ؟ »

فقال : « نعم قلت ذلك حين لم اكن أعرف من أنتما . أما الآن وقد عرفتكما فأنكما ستتفاديان ذلك المصير اذا شئتما ! »

فصاح أراميس وهو يردد بصره بين الاسير وبورتوس : « كيف ذلك ؟ »

وقال بورتوس : « بشرط الا يكون فى الامر ما يشيننا ! »

فأجاب الضابط : « ليس مطلوبا منكما شيء . انهم اذا وجدوكما قتلوكما بلا ريب . فاحرصا اذن على الا يجدوكما ! »

فقال بورتوس فى شمم : « اذا أرادوا ان يجدونا فليأتوا الينا هنا ! »

فقال له أراميس : « صدقت يا بورتوس » . ثم التفت الى الضابط وقال له : «انك تريد أن تدلنا على مخرج لكنك لا تجرؤ على القول،أليس كذلك ؟»

فقال الضابط : « اذا انا تكلمت خنت واجبى . ولكنى اسمع الآن صوتا يعلو على صوتى »

فقال بورتوس : « انه صوت المدافع يا عزيزى ! »

وقال أراميس متمما : «مدافع وبنادق وسيوف ومسدسات !». ثم التفت الى الضابط وقال له : « ان الهجوم الذى قمتم به لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون ، ولا شك فى أن رفاقك قد تظاهروا بالارتداد عن الحصن لكى ينزلوا بالجانب الآخر من الجزيرة . اليس كذلك يا عزيزى ؟ »

فقال الضابط : « أجل يا سيدى . وهم مع الاسف الشديد كثيرون ! »

فقال الأسقف فى هدوء : « اذن . . لقد ضعنا ولا شك ؟! »

وقال بورتوس : « ربما . ولكنا لم نؤسر ولم نشنق بعد ! »

ثم قام بورتوس فتناول سيفه ومسدساته وفحصها فحص جندى قديم يستعد للقتال

وعلى صوت المدافع والهجوم المفاجىء على الجانب الآخر من الجزيرة ، اندفع الاهالى نحو الحصن يطلبون العون والنصح من قوادهم فوقف أراميس بالنافذة بين مصباحين ، شاحب الوجه مكتئبا ، ونظر الى الجنود المحتشدين بفناء الحصن ينتظرون الاوامر ، وقال لهم : « يا أصدقائى : ان المسيو فوكيه صديقكم وحاميكم ووالدكم قد قبض عليه بأمر الملك وزج به فى الباستيل ! »

فصاح الجميع صيحات السخط وأخذوا يهتفون : « الانتقام للمسيو فوكيه ! »

وعاد أراميس فقال لهم : « كلا يا صحاب !. لا مقاومة،ان الملك هوالسيد فى مملكته . ان الملك هو ظل الله فى أرضه . فاخضعوا ليد الله التى ضربت سيدكم ، ولا تنتقموا له . فانكم بذلك انما تضحون انفسكم بغير طائل ، وتضحون معكم نساءكم وأولادكم ومتاعكم وما تملكون . ضعوا سلاحكم أيها الرفاق ما دام الملك يأمركم بذلك ، وعودوا فى هدوء الى بيوتكم . اننى أنا الذى آمركم بذلك باسم المسيو فوكيه ! »

فزمجر الجمهور المحتشد تحت النافذة غضبا ورعبا،ثم قال لهم أراميس: « ان جنود لويس الرابع عشر قد دخلوا الجزيرة . ومنذ هذه اللحظة لن يكون الامر قتالا بينهم وبينكم ، بل يكون مذبحة لكم . فاذهبوا اذن وانسوا ما كان . انى فى هذه المرة آمركم بذلك باسم الله ! »

فتراجعوا فى بطء ساكتين خاضعين . والتفت بورتوس الى أراميس قائلا : « ما هذا الذى قلته لهم يا صديقى ؟ »

وقال له الضابط الاسير : « ربما تكون يا سيدى قد انقذت الاهالى بذلك ولكنك لم تنقذ نفسك ولا صديقك ؟! »

فالتفت أراميس الى الضابط الاسير وقال له بلهجة تدل على النيل والادب : « يا مسيو دى بيسكارا ، انك الآن تملك تمام حريتك ! »

فقال الضابط متأثرا : « انى أود ذلك يا سيدى ، ولكن . . . »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « ان فى ذلك خدمة لنا ، فانك حين تخبر قائد أسطول الملك باستسلام حامية الجزيرة ، قد تستطيع أن تحصل لنا على بعض العطف حين تذكر الطريقة التى تم بها ذلك الاستسلام ! »

فصاح بورتوس والشرر يتقد فى عينيه : « بعض العطف ؟ ماذا تقول يا أراميس ؟ »

فلمس أراميس كوعه بعنف كما كان يفعل فى أيام شبابهما كلما أراد أن ينبهه الى غلطة أتاها أو يوشك أن يقع فيها. ففهم بورتوس قصده وسكت. وعندئذ قال بيسكارا : « اذن . . سأذهب يا سيدى ! »

فقال له أراميس وهو ينحنى له : « فلترافقك السلامة ونحن شاكران لك »

وتردد الضابط قليلا ثم قال : « لكن ماذا يحدث لكما يا صديقى ، ولى الشرف أن أدعوكما كذلك؟. كيف تنتظران هنا بينما الامر بشأنكما صريح ؟!»

فقال له أراميس : « انى أسقف فان يا مسيو دى بيسكارا ، وزميلى من النبلاء كما قد علمت . ولا شك فى انهم لن يطلقوا الرصاص على مثلنا أو يشنقونا ! »

فقال الضابط : « اجل يا صاحب الفخامة ، أنت على حق . لقد بقيت لكما هذه الفرصة للنجاة . وسأذهب الآن لاخبر قائد جنود الملك . وداعا اذن . بل الى اللقاء ! »

ثم ركب الضابط جوادا أعطاه أراميس اياه وسار فى اتجاه صوت المدافع

الذى حشد الاهالى . ونظر اليه أراميس حتى غاب عن بصره ، حتى اذا صار وحده مع بورتوس قال له : « هل فهمت ؟ »

فهز بورتوس رأسه وقال : « كلا ! لم أفهم شيئا ! »

فقال له أراميس : « ان وجود بيسكارا هنا كان يضايقنا برغم انه ضابط شجاع . ذلك لان مخبأنا الاخير فى كهف لوكماريا يجب ألا يعرفه أحد غيرنا. أفهمت الآن يا عزيزى ؟ »

فقال بورتوس : « نعم فهمت !. أننا سنهرب من طريق ذلك الكهف ؟ أليس كذلك ؟ »

فأجاب أراميس فى سرور : « هذا اذا شئت ! . . والآن هيا الى الامام يا صديقى بورتوس ، ان زورقنا ينتظرنا والملك لم يأسرنا بعد ! »

معركة فى كهف

كان كهف لكماريا بعيدا من حاجز الميناء ، فبذل أراميس وبورتوس جهدا كبيرا لكى يصلا اليه عند منتصف الليل، وقد حملا معهما أمواليهما وأسلحتهما ومشيا فوق المرج الذى بين الرصيف والكهف، وهما يصغيان الى كل صوت، وكانا يتفاديان السير فى الطريق. وحدث أن صادفهما بعض الاهالى الهاربين من داخل الجزيرة عقب سماعهم بنزول جنود الملك فاختفيا وراء كتلة من الصخور حتى مر أولئك الهاربون، وأخيرا بعد مشى يتخلله الوقوف والاختباء مرات ، وصلا الى الكهف الذى نقل اليه زورق متين لانزاله الى البحر . وعندئذ قال بورتوس لصاحبه : « لقد وصلنا أخيرا ولكنك حدثتنى عن ثلاثة رجال أو ثلاثة من الخدم سيصحبوننا فأين هم ؟ »

فقال له أراميس : « لا شك أنهم ينتظروننا فى الكهف ، ولعلهم يرتاحون قليلا بعد نقل الزورق »

وهم بورتوس بدخول الكهف ولكن أراميس أوقفه قائلا : « أتسمح لى بأن أدخل أولا ؟. انى أعرف الاشارة التى اتفقت عليها مع أولئك الرجال ، فاذا لم يسمعوها فلعلهم يقتلون من يدخل بالرصاص أو بالخناجر ! »

فقال بورتوس : « اذن ادخل انت أولا . انك حكيم بعيد النظر . آه . لقد عدت أشعر بذلك التعب فى ساقى ! »

وتركه أراميس جالسا عند مدخل الكهف ، ودخل الكهف بعد أن حنى قامته وأخذ يقلد صوت البومة ، فرد عليه من داخل الكهف صوت مثله ، وواصل أراميس سيره بحذر ، وما لبث أن قال : « أأنت هنا يا ايف ؟ »

فأجابه ايف قائلا : « أجل يا صاحب الفخامة ، وكذلك جين وابنه ! »

فقال له : « هذا حسن ! وهل أعد كل شىء ؟ »

فقال : « أجل ياصاحب الفخامة ! »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه فى انتظار أوامره ، فقال لهم : « اذهبوا الى مدخل الكهف ، ان البارون دى فالون هناك يرتاح من التعب ، واذا وجدتموه عاجزا عن المشى فاحملوه وائتوا به الى هنا ! »

فأطاع الرجال الثلاثة أمر أراميس ، وكان بورتوس قد استراح واستعاد قوته ونشاطه فعاد معهم ماشيا ، ثم أشعلوا مصباحا أضاء داخل الكهف ، وبعد قليل قال أراميس : « ــ هيا بنا لنرى الزورق ونستوثق من متانته ! »

فقال ايف : « لا تقرب منه فخامتك كثيرا ومعك مصباح موقد فانى تبعا

لامر فخامتك قد وضعت فى الزورق صندوق البارود ورصاص البنادق اللذين أرسلتهما الى من الحصن »

فقال أراميس : « حسنا » . وتناول المصباح ، وأخذ يفحص بنفسه كل أجزاء الزورق بدقة رجل ليس هيابا وليس جاهلا بالخطر الذى يواجهه . وكان الزورق طويلا خفيفا متين الصنع ، وقد زود بثمان بنادق وبضعة مسدسات ومقادير من الرصاص والخبز المجفف والفواكه الجافة واللحم المقدد وقوارير من الجلد مملوءة بالماء . كما زود بمجاذيف احتياطية وبكل ما يلزم للرحلة

وبدا البريتانيون الثلاثة يضعون الزورق على عجل لينزلق نحو الشاطىء، واذا بهم يسمعون نباح كلاب من داخل الكهف، وكان الفجر قد انبثق وأوشك النهار أن يبسط نوره وصحت الطيور تعلن بدء يوم جديد . فقفز أراميس وبورتوس الى خارج الكهف عند سماع ذلك النباح ، وقال بورتوس :

ــ انها جماعة من كلاب الصيد . ولا شك أنها فى أثر رائحة !

فقال أراميس : « ترى من الذى يصيد فى هذه الساعة ، وفى هذا الطريق حيث ينتظر مرور الجنود الملكيين ؟! »

واقترب صوت النباح منهم فنادى أراميس ايف من الزورق وسأله : « ما معنى الصيد فى هذه الساعة يا ايف ؟ »

فقال الرجل : « الواقع أنى لا أفهم ما هنالك يا صاحب الفخامة . ان السيد دى لوكماريا لا يصطاد فى مثل هــذه الساعة .. ومع هــذا فان الكلاب ... »

فقال بورتوس : « لعلها هربت منه لحبسها ؟ »

فقال جين : « كلا أنها ليست كلاب السيد دى لوكماريا ! »

فقال أراميس . « اذن من الحكمة أن نعود الى الكهف ، فان صوت النباح يزداد اقترابا ، وسنعرف جلية الامر بعد قليل »

ودخلوا الى الكهف من جديد ولكنهم لم يكادوا يخطون مائة خطوة فى الظلام حتى مرق أمامهم ثعلب كالسهم وقفز فوق الزورق ثم اختفى مخلفا وراءه رائحته فمكثت بضع ثوان تحت قبو الكهف الواطىء

فقال أراميس : « انه ظرف ملعون . لقد كشف المخبأ !»

فقال له بورتوس : « كيف ذلك ، أتخاف ثعلبا يا أراميس ؟ »

فأجابه أراميس : « ألا تعلم أنه بعد الثعلب تأتى الكلاب ، وبعد الكلاب يأتى الرجال ؟ »

وسرعان ما جاءت ستة كلاب فى أثر الثعلب فقال أراميس : « هاهى ذى الكلاب فمن هم الصيادون ؟ »

فقال ايف : « اذا كان هو السيد دى لوكماريا فانه سيترك الكلاب ولا يدخل الكهف بل ينتظر خروج الثعلب عند الفوهة الاخرى للكهف »

فقال أراميس : « ليس السيد دى لوكماريا هو الصائد. انظر يا بورتوس هناك على السفح »

فنظر بورتوس ورأى على سفح التل اثنى عشر فارسا يستحثون جيادهم فى أثر الكلاب . فصاح قائلا : « الحرس ! »

وقال أراميس فى كآبة : « نعم . انهم حراس الملك ! »

وارتاع البريتانيون الثلاثة ورددوا مذعورين : « حرس الملك ؟ »

ثم قال أراميس : « أن بيسكارا فى الطليعة فوق جواد أشهب، أليس كذلك يا بورتوس ؟ » . فأومأ هذا موافقا وبقى ساكتا . وكانت كلاب الصيد فى الوقت نفسه مندفعة فى داخل الكهف وقد ردد صدى نباحها الذى يصم الآذان . فقال أراميس وقد استعاد رباطة جأشه : « انى موقن أننا ضعنا ولكن بقيت لنا فرصة . اذا كشف الحراس الذين يتبعون تلك الكلاب الفوهة الاخرى للكهف فلا أمل لنا ، لانهم اذ يدخلون يروننا ويرون الزورق . اذن لا ينبغى أن تخرج الكلاب من الكهف »

فقال بورتوس : « هذا واضح ! »

فقال أراميس بلهجة القائد السريع البت : « انها ستة كلاب يجب ان تقتل عند الفتحة الضيقة للكهف ! »

فقفز البريتانيون الثلاثة وفى أيديهم المدى ، ولم تمض دقائق حتى ارتفعت صيحات الكلاب من الالم ثم سكتت أصواتها . فقال أراميس : « هذا حسن !. والآن الى أسياد الكلاب ! »

فسأله بورتوس : « ماذا نفعل بهم ؟ »

فقال أراميس : « ننتظر مجيئهم ثم نقتلهم !. أنهم ستة عشر ، ولا يتطلب التخلص منهم أكثر من عشر دقائق . وسنفيد من أسلحتهم بعد ذلك ! »

ثم تناول أراميس احدى البنادق ، ووضع سكينا فى فمه وقال : « على ايف وجين وابنه أن يقدموا لنا البنادق ، وأنت يا بورتوس تطلق الرصاص على القوم حين يقتربون ، وسنقتل منهم ثمانية قبل أن يدرى الباقون بما حدث ، ثم نهجم نحن الخمسة على الثمانية الباقين بالمدى ونجهز عليهم ! »

فقال بورتوس : « وبيسكارا المسكين ؟ »

ففكر أراميس هنيهة ثم قال فى برود : « بيسكارا قبل غيره .. لانه يعرفنا ! »

وبعد قليل وصل بيسكارا الى مدخل الكهف قبل رفاقه ، وأدرك أن الثعلب والكلاب محجوزة بداخله . غير أنه ككل انسان يخشى الظلام ويخاف الكهوف ، فوقف عند مدخل الكهف فى انتظار الفرسان الآخرين . حتى اذا وصل هؤلاء وتساءلوا عما جرى للكلاب ولماذا سكتت مرة واحدة ، أجابهم قائلا :

ـ لعله كهف مسحور . هيا بنا ندخله لنرى ماهناك !

وقفز من فوق جواده ليدخل الكهف وأراد رفاقه أن يدخلوا معه ، ولكنه طلب اليهم الانتظار ودخل وحده وسار خطوات فى الظلام وهو باسط يده أمامه ، واذا بها تقبض على أنبوبة البندقية التى بيد بورتوس ، وفى اللحظة نفسها انقض ايف بسكينه يريد أن يجهز عليه ، ولكن بورتوس أوقفه بيده القوية وزمجر قائلا : « لا أريد أن يقتل ! »

وكاد بيسكارا أن يصيح من الدهشة بين ذلك الوعيد وهذا العون ، ولكن أراميس وضع منديلا على فمه ليمنعه من كل صوت وقال له بصوت منخفض : « يا مسيو بيسكارا . اننا لا نريد بك سوءا ولعلك عرفت من نحن . ولكن اذا لفظت أية كلمة فانا سنضطر الى قتلك كما قتلنا كلابك ! »

فقال الضابط بصوت منخفض : « أجل ، لقد عرفتكما . ولكن لماذا أنتما هنا وماذا تفعلان ! لقد حسبتكما بالحصن ؟ »

فسأله أراميس : « هل حصلت لنا على شروط حسنة ؟ »

فأجاب بيسكارا : « لقد بذلت جهدى، ولكن بلا جدوى فالاوامر صريحة! »

فأدرك أراميس وبورتوس أن الاوامر تقضى بقتلهما ، وقال له الاول : « يا مسيو بيسكارا .. اننا راعينا شبابك وذكرنا صلتنا بأبيك ولهذا أبقينا على حياتك ، وفى امكانك الآن أن تخرج من هذا الكهف اذا أقسمت لنا بأنك لن تخبر رفاقك بأنك شهدتنا هنا »

فقال بيسكارا : « أنى أقسم لابذلن قصارى جهدى لاحول دون دخول رفاقى فى هذا الكهف »

وهنا سمعت أصوات من خارج الكهف تناديه باسمه فقال له أراميس : « أجبهم يا بيسكارا »

فصاح بيسكارا قائلا : « ها أنذا »

ثم غادر الكهف عائدا اليهم ، وكان بعضهم قد اقتربوا حتى بدت ظلالهم فى الكهف ، فأسرع بيسكارا ليحول دون تقدمهم بينما أراميس وبورتوس يصغيان بكل انتباه

ولما رأى الفرسان زميلهم راعهم الشحوب الذى اعتراه فقال لهم : « ماذا تحسبوننى رأيت ؟. لقد كنت أشعر بالحر قبل أن أدخل ، ولما دخلت وجدت الهواء باردا . هذا كل ما فى الأمر ! »

فسأله أحدهم : « هل وجدت الكلاب ؟. وماذا دهاها فأسكتها ؟ »

فأجاب : « أحسبها قد خرجت من فوهة الكهف الاخرى ! »

وصاح ضابط آخر يدعوهم الى الدخول فهتفوا جميعا قائلين : « هيا الى الكهف ! »

وهنا وقف بيسكارا أمام رفاقه قائلا : « بالله لا تدخلوا ..! »

فتعالت أصواتهم متسائلين عما يحول دون ذلك ، وقال واحـــد منهم : « لا شك أنه رأى الشيطان نفسه داخل الكهف ! »

فقال آخر : « اذا كان قد رآه فلا يصـــح أن يكون أنانيا ويمنعنا من أن نلقى عليه نظرة بدورنا ! »

وعاد بيسكارا يرجوهم ألا يدخلوا ولكن بلا جدوى،فقد أصروا على ولوج الكهف وتقدمهم أحدهم شاهرا سيفه بيده ، فتبعه الآخرون بعد أن أزاحوا بيسكارا جانبا حتى لا يعوقهم،ولم يرد هو أن يدخل معهم فيحسبه أراميس وبورتوس قد خان عهده وحنث بقسمه . وما كادوا يتقدمون داخل الكهف خطوات معدودات حتى دوت فجأة طلقات الرصاص ، وتبعتها صيحات الذين أصيبوا ، واستطاع الذين فى المؤخرة أن يعودوا أدراجـــهم . ولما رأوا بيســـكارا قالوا له : « ما هذا ؟!.. أكنت تعـلم أن الكهف به كمين ولم تحذرنا ؟ انك السبب فى قتل أربعة من رجالنا ! »

وصاح به أحد الضباط : « أنت سبب هذا الجرح الذى أصبت به ، ان دمى فوق رأسك ! »

ثم ارتمى تحت قدميه وقد خارت قواه . بينما ارتفعت أصـــوات أخرى تقول له : « أخبرنا على الأقل من فى الكهف ؟ »

ولكن بيسكارا بقى ساكتا ، فتحامل زميله الضابط الجريح على نفســه وزحف اليه مجردا سيفه فى وجهه قائلا له : « قل لنا من هناك والا فالموت لك ! »

وكان جواب بيسكارا أن فتح أزرار سترته كاشفا عن صـــدره وقال لزميله الذى يهدده : « اضرب يا أخى ! » . ولكن الجريح ارتمى على الارض ثانية وهو يئن أنة خافتة أسلم روحه على أثرها متأثرا بجرحه !

وهنا ارتاع بيسكارا وتملكه اليأس والقنوط ، وصـاح قائلا : « نعم ، الموت لى ان رضيت باغتيال رفاقى ! » . ثم اندفع الى الكهف وقد رمى سيفه جانبا لانه يطلب لنفسه الموت ، وتبعه بقيـــة رفاقه ، غير أنهم لم يكادوا يتقدمون حتى أطلق عليهم الرصاص ثانية فجـندل خمسة منهم ، وتراجع الباقون وهم يتساءلون من أين يأتيهم الرصاص ؟ غير أن بيسكارا لم يتراجع معهم بل جلس فوق صـخرة ينتظر . وقال واحـــد من الستة الباقين : « لا شك أنه الشيطان ! » . فرد آخر قائلا : « بل هو شر من ذلك ! » . ثم قال ثالث : « اسألوا بيسكارا فانه يعرف خافية الأمر ! »

وأخذوا ينظرون حولهم باحثين عنه ، فلما لم يجدوه قال واحـد منهم : « لابد أنه قتل بالكهف ! »

فقال آخر : « كلا !. لقد رأيته وسط الدخان جالسا فى هدوء على صخرة هناك داخل الكهف ! »

وقال أحد رفاقه : « لابد أنه يعرف من هم !.. لقد كان أســـيرا لدى الثوار ! »

ثم أخذوا ينادونه ولكنه لم يجب . وما لبث أحـدهم أن قال : « لسنا بحاجة اليه فقد جاء لنا مدد ! »

وكانت فرقة من الحراس قد وصلت فى هذه اللحظة وهى مؤلفة من خمسة وسبعين جنديا أو أكثر . فأسرع الضباط الخمســة الى لقائهم ورووا لهم ما حدث ، فسألهم قائد الفرقة : « أين بيسكارا ؟ »

ولما قيل له : « انه بالكهف » . حسب أنه أسير ، ولكن هذا ما لبث أن ظهر عند فوهة الكهف وأشار اليهم بالتقدم فلما وصلوا اليه قال له القائد: « انك تعرف الذين بالكهف ، وأنا آمرك باسم الملك أن تخبرنى من هم ! »

فقال بيسكارا : « لا حاجة بك لأن تأمرنى . فقد أحللت من كلمة الشرف منـذ لحظة . وأنا قادم اليكم من عنـــد أولئك الرجال لكى أخبركم بأنهم ســـيدافعون عن أنفسهم حتى آخر نسمة من حياتهم ، الا اذا منحتموهم شروطا حسنة ! »

فسأله القائد : « كم عددهم ؟ »

فقال بيسكارا فى هدوء : « انهم اثنان ! »

وهنا صـــاح به القائد محنقا : « اثنان ويريدان أن يفرضا شروطهما علينا ؟! »

فقال بيسكارا : « أجل انهما اثنان ، لكنهما قتـــلا عشرة من رجالنا . انهما اثنان من الفرسان الاربعة الذين سبق أن قاوموا جيشا ! »

فسأله القائد : « ما اسماهما ؟ »

فقال : « كانا يسميان فى العهد الماضى بورتوس وأراميس . أما الآن فيسميان المسيو دربلاى والمسيو دى فالون ! وهما يدافعان عن (بل ـ أيل) لصالح المسيو فوكيه ! »

فسرت فى الجنود همهمة حين سمعوا اسمى بورتوس وأراميس . وأخذوا يرددون : « الفرسان الاربعة ! الفرسان الاربعة ! » . وكان كل من يحمل سيفا فى فرنسا يعرف أولئك الفرسان ويكن لهم كل تقدير واعجاب

وسكت الضابط قائد الفرقة قليلا ثم قال : «رجلان اثنان يقتلان عشرة؟! ان هذا محال يا مسيو بيسكارا ! »

فقال بيسكارا : « لقد رأيت هذين الرجلين حين كنت أسيرا عندهما ، وانى موقن أنهما يقدران وحدهما أن يهلكا جيشا كاملا ! »

فقال القائد : « سنرى الآن ! » . ثم أمر رجاله بالتقدم وسار هو على رأسهم يريد اقتحام الكهف ، وعبثا حاول بيسكارا أن يثنيه عن الهجوم اذ أصر عليه قائلا له : « لن نسمح بتقهقر ثمانين من حرس الملك أمام اثنين من العصاة ، ولو أننى قبلت نصيحتك لفقدت شرفى ! »

ثم وقف قائد الفرقة عند مدخل الكهف وقسم رجاله ثلاثة أقسام ، على أن يدخل كل قسم منها بعد الآخر مع اطلاق النيران فى كل اتجاه ، وقال لنفسه : « لا شك أننا فى هذا الهجوم سنفقد خمسة رجال آخرين وربما عشرة ، ولكننا آخر الأمر سنتغلب على الثائرين . وعلى أى حال لن يتاح لرجلين اثنين أن يقتلا ثمانين رجلا ! »

وهنا قال له بيسكارا : « أرجو أن تسمح لى بالسير على رأس القسم الاول ! »

فقال له : « فليكن !. انى أمنحك هذا الشرف ! »

فشكره بيسكارا وتقدم دون أن يأخذ سيفه قائلا : « سأذهب هكذا ! ».

ثم صاح برجاله : « هيا الى الأمام ! »

▭

كان طول الكهف نحو مائتى ياردة ، وينتهى الى منحدر يشرف على خليج صغير . وكانت أرضه غير ممهدة وسقفه متفاوت الارتفاع تبعا للصخور التى فوقه . وقد رأى أراميس بعد المعركة التى دارت داخل الكهف أن يركن الى الفرار مع صديقه بورتوس قبل أن يصل مدد الى الحراس الذين نجوا من القتل . وعلى ذلك أمر بانزال الزورق فى البحر دون أبطاء ، فرفعه بورتوس بكلتا يديه ثم وضعه البريتانيون الثلاثة على اسطوانات خشبية لدحرجته ، ولما وصلوا به الى قرب الفوهة الاخرى للكهف وجدوا بعض الصخور قد سدتها بحيث يصعب مرور الزورق منها ، وسرعان ما أعمل بورتوس قوته فوضع كتفه تحت احدى الصخور وأزاحها من مكانها . وعندئذ بدأ الرجال الثلاثة يخرجون الزورق ، ولم يكن قد بقى بينه وبين مخرج الكهف سوى عشرين ياردة حين أقبلت فرقة الفرسان ، فأيقن أراميس الذى كان يرقب كل شىء بألا بد من نشوب معركة جديدة رهيبة . ولحظ أن ازاحة الصخرة عن فوهة الكهف قد جعلت الضوء يغمر مدخله بحيث يرى المهاجمون الزورق فيسهل عليهم رميه بالرصاص وقتل ركابه الخمسة . فاشتد غيظه ، وهتف بزميله بورتوس الذى كان يعمل وحده أكثر مما يعمل الرجال الثلاثة : «ان أعداءنا قد تلقوا مددا لا يقل عن سبعين جنديا ، وسيكون فى مقدورهم أن يهدموا الكهف علينا، وعلى هذا يجب أن يستمر رجالنا الثلاثة فى دحرجة الزورق بينما نحتفظ نحن الاثنين بصندوق البارود وبالرصاص والبنادق الى جانبنا هنا »

فقال بورتوس : «ان اثنين فقط لا يمكن لهما أن يطلقا أكثر من رصاصتين مرة واحدة ، وعلى هذا أفضل أن أكمن خلف هذا العمود ومعى هذا القضيب الحديدى ، ثم أفاجىء المهاجمين من حيث لا يرونني بضرب جماجمهم بمعدل ثلاثين ضربة فى الدقيقة . فما رأيك فى هذه الخطة ؟ »

« وأخذ بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحداً واحداً »

فابتسم أراميس وقال : «انها خطة بارعة وأنا أقرها غير أنك ستخيفهم، فيبقى نصفهم فى الخارج ليحاصرونا ثم يأسرونا بعـــد أن ينال منا الظمأ والجوع ! »

فقال بورتوس : « انك على حق يا أراميس ولـكن كيف نجذبهم جميعا الى الداخل ؟ »

فأجابه قائلا فى هدوء : « عليك أنت أن تكمن لهم حتى يدخلوا جميعا ، وحينئذ ننفذ معا ما رسمته من خطة لابادتهم.وها هى ذى صيحاتهم تقترب فهيا الى مكمنك »

وسارع بورتوس الى مكمنه المختار وسط الكهف حيث الظلمة شاملة ، وقد أمسك قضيبا ضخما من الحديد يزن نحو خمسين رطلا كانالبريتانيون الثلاثة يستخدمونه فى دحرجة الزورق الى الشاطىء . بينما وقف أراميس مختبئا فى الجانب الذى يدخله الضوء من الكهف.ولم تمض دقيقة حتى ارتفع صوت قائد الفرقة يأمر رجاله بالتقدم ، فقفز القسم الاول منهم وعددهم خمسة وعشرون رجلا من الصخور المطلة على الكهف الى مدخله حيث اتخذوا موقفهم وشرعوا يطلقون البنادق . وبعد لحظات صاح بهم بيسكارا : « الى اليسار ! » . فاندفعوا خلفه الى اليسار حيث يضيق الممر تدريجا ، وعندئذ صاح أراميس قائلا : « اضرب يا بورتوس ! » . وسرعان ما أهوى هـذا بالقضيب الحـديدى على رؤوسهم فكان بيسكارا أول من أصيب وقد مات لتوه دون أن ينطق ببنت شفة ، وسقط بعـده عشرة من جنوده ، وحاول البـــاقون أن يعودوا أدراجهم هاربين فأخـذوا يتعثرون فى الظلام بينما بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا فى أقل من عشر دقائق !

وكان قائد الفرقة قد تقدم القسم الثانى منها وفى يده مشعل اتخذه من أغصان الشجر الجافة ، فلما وصل بمن معه الى حيث يكمن بورتوسأخذهم الرعب اذ رأوا أنفسهم يمشون فوق جثث اخوانهم وفى بحر من دمائهم . وأراد القائد أن يكشف على ضوء مشعله سر موت أولئك الجنود ، فما كاد ينحنى فوق جثـة أحدهم حتى مد بورتوس يده فقبض بها على عنقه بكل قوته فسقط المشعل من يده وانطفأ كما انطفأت فى اللحظة نفسها شـعلة الحياة فى جسده ! . وجاء الجنود فى أثره واحدا بعد واحد وهم يتحسسون طريقهم فى الظلام بين الجثث،فكان بورتوس يتلقفهم ويقضى عليهم بالطريقة نفسها ، فسقط أكثرهم جثثا هامدة قبـل أن يطلق الباقون منهم بنادقهم فتدوى طلقات الرصاص داخل الكهف كالرعد ، وتتساقط قطع من صخوره فيختلط غبارها بدخان البارود ، ثم ساد السكون فلم يعد يسمع ســوى وقع خطوات الفصيلة الثالثة وهى تدخل الكهف !

نهاية بورتوس

كان بورتوس قد اعتاد الظلام أكثر من أولئك الجنود الآتين من الضوء الى الظلمة ، فنظر حوله لعله يرى أراميس ، واذا بهذا يلمس ذراعه لمسـا خفيفا ويهمس اليه أن يتبعه فى سكون الى الجانب الأقصى للكهف دون أن يشعر بهما أحد من رجال الفصيلة الثالثة الاخيرة

وهناك أشار أراميس الى برميل من البارود كان مخبأ فى فجوة بالجدار الصخرى ويتراوح وزنه بين ســبعين وثمانين رطلا ، ثم قال لبورتوس : « ســتحمل أنت هـذا البرميل ، بينما أشعل أنا عود الثقاب الذى به ثم تقذف به وسط المهاجمين ، وتلحق بنا الى الشاطىء حيث أسبقك لمساعدة البريتانيين الثلاثة على انزال الزورق فى البحر ! »

فرفع بورتوسالبرميل بيد واحدة وقال : «أشعل عود الثقاب ياعزيزى، حقا انها لفكرة جهنمية ! »

وأشعل أراميس عود الثقاب ومضى مسرعا بعد أن ربت ذراع بورتوس ملاطفا ، وما ان لمح الجنود فى الضوء القليل بورتوس يحمل البرميـل فى يده حتى اشتد رعبهم وحاول بعضهم أن يهربوا عائدين أدراجهم فسقطوا فوق منخلفهم منزملائهم الذين هموا بتصويببنادقهم لاطلاقها عليهفطاشت رصاصاتهم وأصابت ثلاثة من الجنود ، بينما أطلق بورتوس ضحكة عالية ، ثم رفع يده بالبرميل وقذف به وسط بقية الجنـود فانفجر انفجارا مروعا كأنه الرعد ، فتفتتت الصخور وتناثرت وتمزقت الابدان وتبعثرت الاشلاء، وانقلب الكهف كله قبرا رهيبا لأولئك العشرات من الجنود والضباط وقد اختلطت أشلاؤهم بالدماء والحجارة والتراب

أما بورتوس فأسرع بعد أن رمى البرميل قاصدا الى الشـــاطىء ليلحق بأراميس والبريتانيين الثلاثة . واستطاع خلال الغبار المنعقد حوله أن يرى بعينيه الحادتين جانبا منالزورق الذى أعدهأراميس وزميلاه للفرار والنجاة!

وملأ المارد المنتصر رئتيه الواسعتين من هواء البحر ، وارتســمت على شفتيه ابتسامة مرحة،وحث خطاه الواسعة مستعجلا بلوغ الحرية والأمان، حتى اذا لم يبق بينه وبين باب الكهف غير خطوات معدودات شـــعر فجأة بضعف شديد فى ركبتيه ، وكادت قدماه تعجزان عن حمله ، فحدث نفسه قائلا : « لقد عاد الى ذلك التعب الملعون ! »

وكان أراميس ينتظره بالباب وقلبه يرقص فرحا كلما سمع وقع خطاه.

وكان يهم بمناداته لكنه شعر بتوقفه عن المشى اليه فهتف به قائلا : « هيا يا بورتوس · تعال · أسرع ! »

فأجابه فى جهد وهو ما زال واقفا : « ركبتاى يا أراميس !·· لا أستطيع المسير ! »

وخذلته ساقاه المجهدتان ، فجثا على ركبتيه ، ولكنه تعلق بالصخر بيديه القويتين فاستطاع أن يقوم ورد على أراميس قائلا : « ها أنذا ·· ! »

وفى هذه اللحظة دوى فى الكهف صوت انفجار جديد عنيف فاهتزت الارض تحت أقدام الفارسين القديمين الصديقين ، وتهدم جانب كبير من القبو الصخرى من قوة الانفجار ، وكأنما أعادت هذه الهزة المخيفة الى بورتوس قوته الضائعة ، فقام يجرى بين الصخور التى كانت تنهار حوله ، وأخذ يمد ذراعيه يمينا وشمالا ليبعدها من طريقه · واستطاع أن يرد بيديه القويتين كتلة هائلة من الصخر كادت تسقط عليه ، ولكن كتلة صخرية أخرى سقطت بين كتفيه ، فاستسلمت ذراعاه القويتان لحظة ، ثم استجمع كل قواه وراح يعالج الصخرة التى كادت تسد فتحة الكهف حتى زحزحها من طريقه ، ولكن الجهد الجبار الذى بذله جعله يفقد توازنه حيال الصخرة التى تثقل كتفيه ، فاضطر مرة أخرى الى أن يجثو على ركبتيه ، وهنا عادت الصخرة التى كان قد زحزحها عن الباب الى وضعها الأول فزادت فى ثقل الصخرة التى فوق كاهله ، واضطر الفارس المارد الى السقوط تحت وطأة هذا الثقل الهائل الذى يكفى لسحق عشرة من الرجال ، لكنه لم يصرخ متألما أو مستغيثا !·· وحينما ناداه أراميس مذعورا : « بورتوس ·· بورتوس ·· أين أنت ؟ » · أجابه وهو تحت الصخور بصوت ضعيف : « ها أنذا ! · صبرا · صبرا يا أراميس ! »

على أن صخورا أخرى انقضت فوقه فحجبته ، وأدرك أراميس الخطر الذى أحاط بصاحبه فسارع الى انقاذه ومعه اثنان من رجاله ، أما الثالث فبقى ليحرس الزورق ، وأخذوا يحاولون ازاحة الصخور التى تراكمت فوقه بمعاولهم باذلين فى ذلك قصارى جهدهم ، ولكن جهودهم كلها ذهبت سدى ، بينما تمتم بورتوس تحت ثقل الصخور قائلا بصوت واهن : « انها ثقيلة ! » · ثم اظلمت عيناه وأغمضتا وشحب وجهه وابيضت يداه ، ولفظ المارد آخر أنفاسه فسقطت بذلك آخر صخرة كان يدفعها عنه بيديه !

وبقى أراميس واقفا بباب الكهف ينظر الى مثوى بورتوس صامتا واجما ، بينما أحاط بأراميس رجاله البريتانيون الثلاثة ثم حملوه الى الزورق حيث وضعوه على مقعد بجانب الدفة وأخذوا يجذفون خارجين بالزورق الى عرض البحر حتى لم يعد يبدو من كهف لوكماريا القديم سوى تل من الانقاض ، ولم يحول أراميس بصره عنه وهو يبتعد عن الشاطىء ، وقد خيل اليه أن ذلك التل من الصخور يقف ممدود القامة مرتفع الرأس مبتسم الثغر كشأن بورتوس ، فأخذ يحدث نفسه قائلا : « يا لبورتوس المخلص الأمين ! لقد

قطر على أن يساعد غيره وعلى أن يضحى نفسه فى سبيل الضعيف ، وكأنما وهبه الله قوته الهائلة لهذا الغرض وحده · ولقد مات وهو يحسب نفسه ينفذ شروط اتفاق بينه وبينى فى حين أنه لم يعرف من مشروعى الا نتائجه الوخيمة ! »

▭

بقى أراميس ينظر الى ذلك القبر الصخرى الذى ضم رفات صاحبه حتى آخر شعاع من ضوء النهار ، وحتى بهت شاطىء الجزيرة فى الأفق على مرمى البصر · ولم ينبس طول الوقت ببنت شفة ، ولم تخرج من صدره آهة ولا زفرة · وكان زملاؤه البريتانيون الثلاثة ينظرون اليه مرتاعين ، وقد نشروا الشراع فمضى الزورق مسرعا فى خليج جسكونيا قاصدا الى اسبانيا · وبعد حوالى نصف ساعة من نشر الشراع لاحت لهم من خلفهم نقطة بيضاء كأنها جامدة فى مكانها لا تتحرك · غير أنهم لم يروا أن يخبروا أراميس بأمرها اذ خيل اليهم أنه استغرق فى النوم من الحزن والأسى !

وبعد ساعة أخرى ، كان ضوء النهار قد اختفى ، ولكن المسافة قصرت بينهم وبين تلك النقطة البيضاء التى لاحت لهم ، فتمتم (جين) قائلا : « انه زورق !·· اننا مطاردون ! »

ورأى ايف من الحيطة أن ينزل الشراع حتى لا يراه الذين يطاردونهم ، ولكن السفينة التى يستقلها هؤلاء نشرت شراعين آخرين لتزيد فى سرعتها · وكانت الليلة صافية السماء مقمرة ، فهتف ايف بأراميس قائلا : « ياصاحب الفخامة · انهم يوشكون أن يدركونا ! »

ومد أراميس يده المتخاذلة فأخرج بها تلسكوبا من بين متاعه ، ثم أعطاه لايف قائلا : « انظر ! »

فرفع ايف التلسكوب الى عينه وما ان نظر فيه حتى صاح صيحة رعب فقد حسب أن السفينة التى تطاردهم قد قطعت المسافة كلها بغتة ، لكنه اطمأن حين أبعد التلسكوب عن عينه فرأى السفينة لا تزال بعيدة ·· ثم تمتم قائلا : « انهم على هذا يروننا كما نراهم ·· انهم خمسة وعشرون رجلا على الأقل · وأرى القبطان فى المقدمة ممسكا بمنظار كهذا الذى معى · انه يلتفت جانبا ويصدر أمرا · آه · انهم يدفعون مدفعا الى الامام · انهم يعبئونه ··· ويصوبونه ! رباه · انهم يطلقونه علينا ! »

وأطلق المدفع على أثر ذلك فبدت سحابة من الدخان تحت الأشرعة ، وسقطت قذيفته على مسافة ميل من الزورق فأحدثت فجوة فى البحر جعلت الامواج تضطرب بشدة · فسأل ايف : « ما العمل يا صاحب الفخامة ؟ »

وركع الملاحان الآخران أمام الأسقف قائلين بتوسل : « امنحنا المغفرة ! » فنظر اليهما أراميس وقال فى وقار : « انكم تنسون أن أعداءنا يرونكم !

ولا ريب أننا اذا حاولنا الفرار فسيغرقون زورقنا ، ثم ان الظلام نفسه لا يجدينا نفعا فلابد ان عندهم نارا اغريقية يمكنها أن تضيء لهم الطريق !»

وفى اللحظة نفسها ارتفعت سحابة أخرى من الدخان نحو السماء وظهر وسط تلك السحابة سهم من اللهب ما لبث حتى سقط فى البحر وظل مشتعلا وهو يضيء دائرة قطرها ربع فرسخ · ونظر البريتانيون الثلاثة بعضهم الى بعض فى ذعر شديد ، فقال لهم أراميس : « ها أنتم أولاء ترون أن لابد لنا من الانتظار ! »

وعندئذ ترك المجذفون مجاذيفهم فوقف الزورق فوق صفحة الماء متأرجحا بينما أخذت السفينة تقترب ولعلها ضاعفت سرعتها بحلول الليل · وكانت ترسل سهام النار الاغريقية بين الفينة والفينة · وكان جميع رجالها فوق سطحها وفى أيديهم بنادقهم ، بينما ربض رجال المدفعية خلف المدافع ، وكأنهم مقبلون على معركة بحرية كبيرة لا يقل أعداؤهم فيها عنهم عددا وعدة !

وصاح قائد السفينة فى نفير : « انى أدعوكم الى التسليم ! »

فنظر الملاحون الثلاثة الى أراميس متسائلين فأومأ لهم برأسه يائسا ، وعندئذ رفع ايف قطعة قماش أبيض ، فزادت السفينة اقترابا من الزورق وبعثت سهما ناريا آخر سقط على بعد عشرين خطوة من الزورق ، وانبعث منه ضوء كضوء النهار أو أشد · ثم صاح قائد السفينة برجاله قائلا : « اذا بدت أية دلالة على المقاومة فأطلقوا النيران ! »

ثم التفت الى البريتانيين الثلاثة وقال لهم : « انى أؤمنكم على حياتكم أيها الاصدقاء ما عدا الفارس دربلاى ! »

فارتاع أراميس لحظة ونظر الى أعماق المحيط وقد أضاءه السهم النارى ، ثم سأله رجاله الثلاثة : « أسامع أنت يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال لهم فى هدوء : « اقبلوا ما قيل لكم ! » · ثم مال الى جانب الزورق أكثر من قبل وأخذ يعبث بالماء بأصابعه البيضاء ، بينما صاح ايف قائلا لضابط السفينة : « اذا قبلنا فأى ضمان لنا ؟ »

فأجاب الضابط : « كلمة الشرف !·· انى سأبقى على حياتكم جميعا ما عدا المسيو دربلاى · انى ضابط السفينة الحربية بوموناموا سمى لويس كونستان دى بريسينى ! »

فرفع أراميس رأسه وقال لرجاله وهو يبتسم : « أنزلوا السلم أيها السادة ! »

ولبى رجاله الأمر فأنزلوا السلم توا ، وقام هو فأمسك حبل السلم وهبطه دون أن يبدو عليه شيء من الخوف الذى توقعه رجال السفينة ، ثم قصد توا الى القائد فى خطى ثابتة ورأس مرفوع ، فلما بلغ موضعه نظر اليه نظرة قوية، ثم أشار له بيده اشارة امتقع الضابط على أثرها وارتعد ثم

حنى رأسه · ولم ينبس أراميس بكلمة لكنه رفع يده اليسرى وأرى الضابط فص خاتم فى احدى أصابعها ، فانحنى له هذا مرة أخرى أكثر من قبل ، وكأنه حيال ملك أو امبراطور ، ثم أشار الى قمرته ودعاه الى الدخول قبله!

وعجب البريتانيون الثلاثة الذين جاءوا الى سطح السفينة فى أثر الاسقف ، ولم يكن رجال السفينة أقل عجبا من ذلك المنظر حتى لقد عقدت الدهشة ألسنتهم · وبعد خمس دقائق نادى القائد مساعده وأصدر اليه تعليمات بتوجيه السفينة صوب (كورونا) · ثم عاد أراميس الى ظهر السفينة واتخذ له مقعدا وأخذ ينظر الى (بل ــ أيل) لا يحيد عنها ببصره!

وجاء ملاح يسأل القائد : « أى اتجاه نتخذه ؟ » · فأجابه القائد : « الاتجاه الذى يأمر به صاحب الفخامة ! » · وأشار الى أراميس !

ومضى أراميس ليلته بقرب حاجز السفينة · ولما دنا منه ايف فى صباح الغد لحظ أن الخشب الذى أسند الأسقف اليه رأسه مبلل بالماء ، فظن أنه قطر الندى ، ولم يدر انها دموعه سكبها حزنا على زميله الراحل العزيز بورتوس

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي
مع تحيات : MICO MARK
Mico_maher@hotmail.com

عفو ملكى

عاد دارتانيان الى نانت وهو فى غيظ وهياج · وذهب توا الى القصر الذى به الملك وهو يرتعد من الغضب ، وكانت الساعة السابعة صباحا فلما وصل الى الردهة الصغيرة ألفى هناك المسيو دى جيفر ، فوقفه هذا بأدب وطلب اليه ألا يرفع صوته حتى لا يزعج الملك لأنه نائم

فقال دارتانيان : « حسنا !· سأدعه ينام · ولكن فى أية ساعة تحسبه يصحو من نومه ؟ »

فقال دى جيفر : « ربما بعد ساعتين · لقد سهر الملك طول الليل ! »

فانحنى له دارتانيان وعاد الى مسكنه · ثم رجع الى القصر عند منتصف الساعة العاشرة صباحا فقيل له : « ان الملك يتناول طعام الفطور » · فقال : « ان هذا يلائمنى · سأحدث الملك بينما يأكل ! »

وذكره المسيو دى بريين بأن الملك لا يستقبل أحدا أثناء الطعام ، ولكن دارتانيان قال له : « لعلك لا تعلم أن لى امتياز الدخول عند الملك فى أى مكان وفى أية ساعة ؟! »

فتناول بريين يد دارتانيان بعطف وقال له : « ليس ذلك فى نانت يا عزيزى المسيو دارتانيان · ان الملك قد غير كل شىء فى رحلته ! »

فولى بعض الغضب عن دارتانيان وسأل : « متى ينتهى الملك من تناول طعام الفطور ؟ » · فأجاب بريين : « لست أدرى يا سيدى ! »

فقال له دارتانيان : « كيف هذا ؟· ألا تعلم كم من الوقت يتطلبه تناول الملك طعامه ؟· انه فى العادة نحو ساعة · واذا فرضنا أن جو اللوار قد زاد فى شهيته فلنمد الوقت الى ساعة ونصف ساعة · وأحسب ان هذا وقت كاف · وسأنتظر حيث أنا ! »

فقال بريين فى هدوء : « يا عزيزى المسيو دارتانيان·· ان الأمر يقضى بعدم ترك أحد بالردهة · وأنا هنا لتنفيذ ذلك ! »

فتملك الغضب دارتانيان ، وخرج مسرعا حتى لا يزيد الموقف حرجا ، ولما صار وحده جعل يحدث نفسه قائلا : « ان الملك لا يريد أن يستقبلنى· هذا واضح · ان هذا الشاب غاضب ، وهو يخشى ما سأقوله له · أجل ولكن فى خلال ذلك تكون (بل ــ أيل) قد حوصرت وأسر صديقاى أو قتلا ·· ان أراميس لا تعوزه حيلة وأنا مطمئن عليه ، أما بورتوس الجبار

فانه ساذج لا حيلة له ، ولكنهما سيجدان ولا شك مخرجا لهما بعد أن يعطيا درسا قاسيا لجنود الملك · ان لديهما مدافع وذخيرة وحامية ···· ومع هذا لعل الخير فى منع ذلك القتال ···· لو كان الأمر خاصا بى ما كنت لأتحمل نظرات غضب ولا غدر من جانب الملك · ولكنى يجب من أجل صديقى أن أتحمل كل شىء ·· سأذهب الى المسيو كولبير ··· انه الآن هو الذى يجب أن أخيفه ! »

وقصد توا الى المسيو كولبير ، فقيل له : «انه عند الملك فى قصر نانت !»· فصاح قائلا : « لقد عاد الوقت الذى كنت أنتقل فيه من المسيو دى تريفيل الى الكاردينال ، ومن الكاردينال الى الملكة ، ومن الملكة الى لويس الثالث عشر ·· حقا ان الرجال اذا كبروا عادوا أطفالا ! »

ولما رجع دارتانيان الى القصر،وجد المسيو دى ليون خارجا ، وصافحه هذا بكلتا يديه قائلا : « ان الملك كان مشغولا طول الليلة الماضية وقد أمر بعدم ادخال أى أحد ! »

فسأله : « حتى ولا قائد الفرسان الذى يتلقى أوامره وكان يدخل دائما فى أى وقت ؟!·ان هذا لا معنى له الا أن الملك قد مات ، أو أن قائدالفرسان مغضوب عليه · وعلى هذا أرجو أن تعود الى الملك لتنبئه باستقالتى ! »

فقال دى ليون بعد تردد : « حسنا · سأفعل يا مسيو دارتانيان ! »

ومكث دارتانيان ينتظر وهو يمشى فى الردهة هائج الاعصاب · ثم رجع دى ليون وقال له :

ــ لقد قبل الملك يا سيدى !

فانفجر دارتانيان صائحا : « هل قبل الاستقالة ؟· حسنا !·· اذن أصبحت حرا ولست الآن الا مواطنا بسيطا ·· وداعا يا سيدى وشكرا !»

وقفز دارتانيان الى السلم ثم قصد الى النزل · وبدل أن يرمى سيفه ومعطفه ، أخذ مسدساته ووضع نقوده فى كيس كبير من الجلد وطلب جيادا من اسطبلات القصر ، وأمر بالسفر الى فان ليلا · وقد تم كل شىء طبقا لرغباته · وعند الساعة الثامنةكان يضع قدميه فى الركاب ، واذا بالمسيو دى جيفر قد جاء على رأس اثنى عشر حارسا أمام النزل ، ورأى دارتانيان ذلك بطرف عينه ولكنه تظاهر بعدم رؤيته ، حتى تقدم منه المسيو دىجيفر وناداه باسمه بصوت مرتفع فقال له دارتانيان مدعيا الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو دى جيفر ؟· هل جئت لتقبض على بأمر الملك ؟! »

فقال دى جيفر : « لكى أقبض عليك ؟!· معاذ الله يا سيدى ، اننى انما أقوم بدورتى التفتيشية العادية ، وكل ما هناك أن جلالة الملك يريد أن تقابله الآن ! »

فقال دارتانيان : « لعله يريد أن يرسلنى الى الباستيل لأونس المسيو فوكيه · حسنا !· انه رجل قدير ويسرنى أن أكون معه ! »

فقال الدوق دى جيفر ملاطفا : « بالله كن هادئا يا سيدى ، ان الملك فى سورة غضب ، ومن الخير ألا تزيد فى غضبه وأنت تكلمه ! »

فقال دارتانيان : « انك تطمح الى توحيد حراسك مع فرسانى ، وهذه فرصة سانحة يا سيدى ! »

فقال الدوق : « ثق بأنى سأحرص على ألا أنتهزها ياكابتن ٠٠ على الأقل كى أتفادى القتل بيد فرسانك الذين يقدسونك ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : «لا رأى لى فى ذلك لأن أولئك الرجال يحبوننى حقا ! »

ثم تركه دى جيفر يدخل أولا وذهب به توا الى غرفة الانتظار وكان الملك جالسا ينتظر قائد فرسانه وهو يتحدث بصوت مرتفع مع المسيو كولبير ٠ وكان الفرسان مصطفين أمام الباب الرئيسى للقصر وقد سرت شائعة فى المدينة بأن قائد الفرسان قد قبض عليه ، وعندئذ تحرك أولئك الفرسان الشجعان كما كانوا يفعلون فى الايام المجيدة الماضية على عهد لويس الثالث عشر والمسيو دى تريفيل ٠ وامتلأت بهم الردهات وسمعت همهمة تصعد الى الطوابق العليا ، وبدأ الدوق دى جيفر ينزعج بينما جلس دارتانيان على قاعدة نافذة وصار ينظر بعين النسر الى ما يجرى حوله دون أن يبدو عليه أى تأثر !

على أن السكون ما لبث أن ساد بعد قليل حين ظهر المسيو بريين وصاح قائلا : « اسكتوا أيها السادة ٠ انكم تعكرون صفو الملك ! »

فتنهد دارتانيان أسفا وقال لنفسه : « لقد انتهى كل شىء ٠ ان فرسان العصر الحاضر ليسوا مثل فرسان لويس الثالث عشر ٠ لقد انتهى كل شىء ! »

ثم صـــاح حاجب يقول : « المسيو دارتانيان ٠٠ الى جناح الملك ! » ٠

فنهض دارتانيان متثاقلا ومشى فى خطى ثابتة حتى دخـل الجناح الملكى ، وكان الملك جالسا فى غرفة مكتبه وظهره الى الباب ، وأمامه مرآة يرى بها الداخل ، فلما رأى دارتانيان داخلا تجاهل رؤيته وأخذ يقلب الاوراق التى على مكتبه ٠ فأدرك دارتانيان غرضـه ووقف ساكتا ثم قال الملك : « أهذا أنت يا مسيو دارتانيان ؟٠ ماذا عندك لتقوله لى ؟ »

فقال له : « ليس عندى ما أقوله لك يا مولاى سوى أنك أمرت بالقبض على وها أنذا ٠! »

وهم الملك بأن يذكر أنه لم يأمر بالقبض عليه ولكنه رأى فى ذلك ما يدل على الاعتذار فآثر الصمت ٠ وكذلك سكت دارتانيان فى عناد ، وأخيرا استأنف الملك كلامه قائلا : « ماذا صنعت فى (بل ــ أيل) ؟٠ »

فقال دارتانيان : « لم يكن لى أن أصنع شيئا !٠٠ فمع انى قائد الحملة لم يصدر الى أى أمر معين ، بينما كانت هناك أوامر كثيرة يحملها غيرى من الضباط ! »

فقال الملك : « ان الأوامر قصرت على الموثوق بهم ! »

فقال دارتانيان : «لقد أدهشنى يا مولاى أن ضابطا مثلى يوازى فى الرتبة مارشالا فرنسيا ، يجـد نفسه تحت أوامر خمسة أو ســـتة من الملازمين والبكباشيين الذين قد يصلحون لأن يكونوا جواسيس ولكنهم غير جديرين بقيادة حملات ٠ ولقد جئت الى جلالتك لأطلب ايضـــاحا عن ذلك فاذا بى أجد بابك مغلقا فى وجهى ، وكانت هذه الاهانة الاخيرة التى لحقت بفارس قديم مثلى ، سببا فى أن أترك خدمة جلالتك ! »

فقال الملك : « انك تحسب أنك تعيش فى العصر الماضى ، ولهذا تنسى أن الملك لا يقدم حسابا عن أعماله لأى أحد ! »

فأحس دارتانيان أن كرامتـــه قد جرحت ورد على الفور قائلا : « أنى لا أنسى شيئا مطلقا يا مولاى ٠ على أنى لا أدرى لماذا يهان الرجل الشريف اذا سأل ملكه عما ساءه منه ؟! »

فقال الملك : « لقد أسأت خدمتى بانحيازك الى أعدائى ! الرجال الذين أرسلتك لتحاربهم ! »

فقال دارتانيان : « أرجلان اثنان يخشى منهما على جيش ضخم ؟٠ هذا أمر بعيد ! »

فقال لويس الرابع عشر : « ليس لك الحق فى أن تحكم بصواب رغبتى أو عليها ! »

فقال : « ولكن لى الحق فى أن أقدر أصدقائى يا مولاى ! »

فقال الملك : « ان الذى يخدم أصدقاءه لا يخدم سيده ! »

فأجاب : « لقد أدركت ذلك يا مولاى ولذا قدمت استقالتى ! »

فقال الملك : « وأنا قبلتها ٠ وقد أردت أن أبرهن لك على أنى عند كلمتى ! »

فقال له : « ان جلالتك ذهبت الى أبعد من ذلك ، اذ لم تقبل استقالتى فقط بل أمرت أيضا بالقبض على ! »

فتجاهل الملك هذه السخرية وقال : « لقد كانت رغبتى هى أسر العصاة وتأديبهم ، أفكان واجبا أن أسأل : هل هؤلاء العصاة من أصدقائك أم لا ؟٠٠ ان ارسالك فى هـذه المهمة كان امتحانا لاخـــلاص خدمى المزعومين الذين يتغذون بخبزى ويجب أن يدافعوا عن شخصى ٠ ولقد فشلت فى الامتحان يا مسيو دارتانيان ! »

فقال دارتانيان بمرارة : « أصغ الى يا مولاى ٠٠ انى لست معتادا هذه الخدمة ٠ ان سيفى يعصانى اذا أريد منى عمل سوء ٠ ولقد كان من السوء أن تبعث بى لأقود الى المشنقة صديقين لى توسل اليك منقذك المسيو فوكيه أن تبقى على حياتهما ٠ ثم ان جلالتك أسأت بى الظن قبل أن أفعل شيئا فأحطتنى بالعيون ووصمتنى بالعار أمام الجيش بعد أن خدمته ثلاثين سنة قدمت لك خلالها ألف برهان على اخلاصى وصدق ولائى ؟! »

فقال الملك : « كفى يا مسيو دارتانيان !٠ اننى أعمل على تكوين دولة لن

يكون بها سوى سيد واحد.وانى لأعلم حق العلم أن أى ملك آخر تختاره سيدا لك لن يرضى لنفسه أن تسيره أنت . وكان فى امكانى أن أبعث بك لتكون فى صحبة المسيو فوكيه وغيره بالباستيل ، ولكن لى ذاكرة قوية ، وعندى أن الخدمات التى تؤدى هى مؤهلات للعرفان والحصافة . وسأكتفى بهذا الدرس يا مسيو دارتانيان ليكون عقابا لك على مخالفة النظام ، ولن أقلد أسلافى فى غضبهم كما لم أقلدهم فى رضاهم وحظوتهم . وهنـــاك أسباب أخرى تجعلنى أتلطف بك ، لأنك رجل قدير ذو مواهب ، وستكون خادما صالحا للرجل الذى يقدر أن يسودك ، ثم انك لم يعـد لك باعث على التمرد فان أصدقاءك قد أهلكتهم أو خربت ديارهم ، وهكذا أزلت أولئك الأعوان الذين كنت تعتمد على معونتهم . وفى هذه اللحظة لابد أن جنودى قد أسروا أو قتلوا العصاة فى (بل – أيل) ..! »

فامتقع وجه دارتانيان وقال : « أسروا أو قتـــلوا ؟.. لست أريد أن أصدق هذا لأنى لا أريد أن أنسى ما فى كلماتك من نبل ، ولا أريد أن أعدك ملكا وحشيا وانسانا غير طبيعى ! »

ثم ابتسم واســـتطرد قائلا : « ولكنى لا أنسى أن مولاى ملك شـــاب لا يعرف أى رجلين هما دربلاى ودى فالون ؟! »

وهنا اشتد غضب الملك وقال له : « ان كلامك هذا كلام عاص متمرد . خبرنى : من هو ملك فرنسا ؟. أتعرف ملكا سواى ؟ »

فرد قائد الفرسان فى برود : « مولاى .. انى أذكر جيدا أنك فى صباح يوم وجهت هذا السؤال نفسه الى عدد من النـــاس فى فو فلم يجيبوك ، ولكنى أنا الذى أجبتك . فاذا كنت قد عرفت الملك فى ذلك اليوم ، حين لم يكن الأمر ســـهلا ، فأحسب أن من العبث أن أسأل هذا السؤال الآن ، وجلالتك وحدك معى ! »

فأرخى الملك بصره ، وخيل اليـــه أن ظل فيليب المسكين يمر بينه وبين دارتانيان ليثير ذكرى تلك المغامرة الرهيبة . وفى اللحظة نفسها دخـــل ضابط وسلم الملك رسالة فلما قرأها امتقع وجهه وقال لدارتانيان : « ان ما علمته الآن جدير بك أن تعلمه : لقد دارت معركة فى بل – أيل »

فدق قلب دارتانيان وكاد يقفز من بين جنبيه ، ثم قال متصنعا الهدوء : « ماذا كانت النتيجة يا مولاى ؟ »

فقال الملك : « لقد فقدت مائة وعشرة من جنودى ! »

فبان بريق الفرح فى عينى دارتانيان وقال : « والعصاة ؟ »

فأجابه الملك : « لقد فروا ..! غير أن أسطولى يحاصر الآن بل – أيل ، ولا يمكن لأى زورق أن يفر ! »

فقال دارتانيان : « وعلى ذلك اذا قبض عن ذينك السيدين ؟.. »

فأتم الملك عبارته قائلا : « سيشنقان ! »

فقال دارتانيان : « اذن يا مولاى لن يؤخذا أسيرين ، انى موقن بأنهما سيؤثران ميتة أنبل ! »

ثم مسح دارتانيان العرق الذى كان يتصبب من جبينـــه ، بينما قال له الملك : « لقد ذكرت لك أنى سأصـــبح يوما ما سيدا كريما ودودا وفيا . وأنت وحدك الآن كل من بقى من رجال الايام الخالية ، وسأهبك من غضبى أو صداقتى بحسب مسلكك . فهل تحب يا مسيو دارتانيان أن تخدم ملكا له فى مملكته مائة ملك أنداد له ؟.. وهل ترى أنى بذلك الضعف أستطيع أن أحقق الاهداف العليا التى رسمتها لى ؟. هل رأيت فنـــانا يبدع آيات فنية بأداة عصية ؟.. انثنى سيد بلادى يا مسيو دارتانيان وســـيكون لى خدم قد يقلون عنك فى الذكاء ولكنهم سيصلون بالولاء والطاعة الى مرتبة البطولة ! »

وبقى دارتانيان صامتا يصغى الى الملك ، بينما واصل هذا كلامه فقال : « لنعقد بيننا تلك الصفقة التى وعدتك بها يوما حين كنت طفلا صغيرا فى (بلوا) ... ان الرؤوس العالية قد انحنت كلها يا مسيو دارتانيان ، فاما أن تحنى رأسك أنت أيضا ، واما أن تختار المنفى الذى تؤثره . ولعلك حين تفكر فى الأمر ترانى ملكا سمحا كريما !.. انك رجل شجاع ولكنك تحكم على قبل الأوان ! »

وأحس دارتانيان لأول مرة فى حياته أنه لا يقدر أن يبت برأى !..لقد وجد الآن خصما جديرا به . فليس ما يبديه الملك مكرا ولكنه حســـاب بقدر ، وليس عنفا ولكنه قوة ، وليس عاطفة هوجاء ولكنه ارادة وعزيمة . ثم مضى الملك فقال : « ماذا تنتويه ؟. لقد قدمت استقالتك . أفأرفضها ؟ انى أقر بأن من الصعب على فارس شيخ مثلك أن يستعيد صفو مزاجه ! »

فقال دارتانيان وفى صوته رنة أسف : «انى متردد فى سحب استقالتى لأنى شيخ كبير حقا ، ولأنى اعتدت عادات من الصعب تركها . ومنذ الآن ستحتاج الى رجال بلاط يسلونك ، والى مجانين يندفعون نحو الموت لكى ينفذوا لك ما تســـميه بالفعال العظيمة . انهم قد يصيرون عظماء ولكنى لا أحسبهم كذلك !.. لقد شهدت الحرب يا مولاى وشهدت السلم ، وخدمت ريشيليو ومازارين ، ولفحتنى النار مع أبيك فى حريق روشـــيل ، وفى جسمى ثقوب من الطعان حتى صار كالمصفاة ، وقد جددت جلدى عشر مرات كما تفعل الثعابين . وبعد أن أسيء الى وصبرت على ضروب من الظلم صارت لى قيادة كانت من قبل شيئا مذكورا اذ كانت تبيح لصاحبها أن يخـاطب الملك كما يشاء . ولكن قائد فرسانك سيكون بعد الآن ضـابطا يحرس الابواب الدنيا . حقا يا مولاى اذا كانت الوظيفة ستصبح هكذا فأرجو أن تنتهز فرصة هذه العلاقة الطيبة بيننا لتأخذها منى . ولا تظن أنى أحمل من أجل ذلك ضغنا وان تكن قد صـغرت من شأنى . انك اذ حنيت رأسى قد أقنعتنى بضعفى . ولا شك فى أنك تأسف مثلى لو أنك علمت كم يسرنى

أن أرفع رأسى وكيف يؤلمنى أن أنحنى حتى أشم رائحة سجادتك !· ان أولئك السادة الوقحين الذين كانوا فى الماضى رجال البلاط ، كانوا كذلك أبطالا فى الحروب !· وكانوا يلعقون اليد التى تطعمهم ، ويعضون اليد التى تضربهم ، فاذا وضعت بعض الذهب على معاطفهم ، وزادت وقفتهم اعتدالا، ووخط شعرهم الشيب ، رأيت أمامك دوقات فرنسا ومارشالاتها ! ولكن لماذا أقول لك ذلك كله ؟ ان الملك هو سيدى · وهو يريد منى أن أقرض أشعارا ، وأن أمسح الفسيفساء فى غرفه بقطع من الجلد·ولكن هذا أصعب من كل صعب تغلبت عليه ، ولست أدرى ماذا يدعونى الى أن أقبل كل هذا ؟·· ألأنى أحب المال ؟· كلا فعندى منه ما يكفى !· أم لأنى طموح؟· كلا فهذه حياتى قد ختمت · أم لأنى أحب البلاط ؟· كلا !· وانما أبقى فى الخدمة لأنى اعتدت خلال ثلاثين سنة أن أتلقى أوامر الملك وأن أسمعه يقول لى : (عم مساء يا دارتانيان) بابتسامة لا أستجديه اياها · أما الآن فانى سأستجدى تلك الابتسامة · أفيرضيك هذا يا مولاى ؟! »

وحنى دارتانيان رأسه الفضى ، فقال له الملك وهو يبتسم بكبرياء : « شكرا يا خادمى القديم ، يا صديقى الأمين · اننى لم يبق لى عدو فى فرنسا بعد اليوم ، ولهذا سأرسلك الى ميدان قتال خارجى لتكسب لنفسك فيه عصا المارشالية·والى أن يحين ذلك كل من أحسن طعامى ونم مطمئنا !»

فقال دارتانيان فى تأثر شديد : « هذا كله عطف جميل من جلالتك ولكن ماذا عن الرجلين اللذين فى (بل ــ أيل) ··؟ »

فسأله الملك : « أما زلت مصرا على طلب العفو عنهما ؟ »

فقال : « وأنا راكع على ركبتى يا مولاى ! »

فقال : « حسنا !·· اذن اذهب اليهما به اذا كان فى الوقت متسع · على أن تضمتهما بعد ذلك · وسأسافر غدا الى باريس فعد الى متى انتهيت من مهمتهما لأنى لا أحب أن تبتعد عنى فى المستقبل ! »

فقبل دارتانيان يد الملك وقال : « كن واثقا من ذلك يا مولاى »

وخرج من القصر وقد غمر الفرح قلبه وأسرع قاصدا الى (بل ــ أيل)

أصدقاء فوكيه

قضى دارتانيان أربعا وعشرين ساعة فى (بل ــ أيل) يبحث بكل وسيلة مستطاعة عن أراميس وبورتوس ليبلغهما عفو الملك عنهما ، وقد علم بما قام به صديقاه البطلان من الدفاع ضد جيش كامل ، كما علم بأن زورقا رئى بعد ذلك فى عرض البحر وخلفه سفينة حربية بقيت تطارده حتى أسرت من فيه . وعبثا حاول دارتانيان أن يقف على أية معلومات أخرى فغادر الجزيرة يائسا من لقاء صديقيه وان كان كبير الأمل فى نجاتهما ، وما لبث أن عاد الى باريس فى معية الملك حيث أخبره بما كان

وكان لويس الرابع عشر قد اطمأن الى نجاحه فى توطيد سلطانه ، فبدا أكثر ابتهاجا ولطفا ، وأكثر من الخروج على جواده حيث يسير بجانب نافذة العربة التى تقل الآنسة دى لافاليير ، وكان الجميع فى مقابل ذلك يبذلون قصارى جهدهم لتسلية الملكتين زوجته ووالدته

وبعد أيام ما كاد الملك يتناول الفطور حتى جاءه دارتانيان شاحب الوجه بادى الحزن وقال له : « لقد دهمتنى كارثة شديدة يا مولاى . ان المسيو دى فالون قتل تحت الصخور فى « بل ــ أيل ! »

فقال الملك فى هدوء : « كنت أعرف ذلك ، ولكنى أشفقت عليك من وقع النبأ فلم أخبرك به ، كما أنى أعلم أن المسيو دربلاى أخذ احدى سفنى مع من فيها وأجبرهم على الذهاب به الى بايون »

فسأله دارتانيان : « لكن يا مولاى كيف علمت بهذه الأنباء ؟ »

فابتسم وسأله : « وكيف علمت بها أنت يا دارتانيان ؟ »

فأجاب : « علمتها من هذا الخطاب الذى أرسله الى المسيو دربلاى من بايون بعد أن أصبح حرا بعيدا عن الخطر »

وأخرج الملك من درج مكتبه ورقة قدمها له قائلا : « هذه صورة من الخطاب الذى أرسله اليك المسيو دربلاى ، سلمها الى المسيو كولبير قبل أسبوع من وصول الخطاب اليك . ان لى خدما مخلصين كما ترى ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : « أجل يا مولاى . انك الرجل الوحيد الذى قدر لحظه أن يعلو حظ صديقى ، وقدر لسلطانه أن يغلب قواهما . ولقد استخدمت قوتك يا مولاى ، ولكنك لن تسىء استخدامها ! »

فابتسم الملك برفق وقال له : « يا دارتانيان : لقد كان فى استطاعتى أن آتى بالمسيو دربلاى من أسبانيا حيا لتوقيع العقوبة

العادلة عليه . ولكن كن واثقا بأنى لن أستسلم حتى لهذا الحافز الطبيعى . وسأدعه حرا كما هو الآن ! »

فقال دارتانيان : « شكرا يا مولاى . وأرجو أن يبقى لنا دائما هذا النبل وهذه السماحة اللذان أظهرتهما نحوى ونحو المسيو دربلاى . فلا يؤثر فيهما المستشارون الجدد لجلالتك ! »

فقال الملك : « كلا يا دارتانيان . انت مخطىء فى هذا الظن . ان مستشارى لا ينصحون لى بالعنف . بل الواقع أن فكرة الابقاء على المسيو دربلاى لم تكن الا فكرة المسيو كولبير ! »

فأبدى دارتانيان دهشته ثم استطرد الملك قائلا بلطف غير معتاد منه : « أما أنت فان عندى أنباء سارة لك ، ولكنك ستعلمها حين تنتظم ماليتى . لقد وعدتك بأن أحقق لك حظك وقريبا يتم ذلك ! »

فقال دارتانيان : « الف شكر يا مولاى . انى أقدر أن أنتظر . ولكنى أتوسل اليك يا مولاى أن تتنازل جلالتك وتنظر بعين العطف والرحمة الى اناس بائسين ظلوا فى غرفة الانتظار وقتا طويلا ، ومعهم مظلمة يريدون رفعها الى جلالتك »

فرفع الملك رأسه وسأله : « من تعنى ؟ »

فقال : « هم جماعة أصدقاء المسيو فوكيه ، أو ثلاثة منهم هم : المسيو جورفيل والمسيو بليسون الشاعر والمسيو جان دى لافونتين »

ففكر الملك هنيهة ثم سأله : « ماذا يريدون ؟ »

فأجاب : « لست أدرى يا مولاى ، انهم لا يقولون شيئا ولكنهم يبكون ! »

فقال : « دعهم يدخلوا الآن ! »

ووقف الرجال الثلاثة بالباب بعد أن انسحب رجال البلاط كأنما يخشون أن تصيبهم عدوى النكبة والخراب ، بينما سارع دارتانيان فأخذ بأيديهم وهم يرتجفون وقادهم حتى صاروا أمام الكرسى الذى يجلس عليه الملك . وتقدمهم بليسون وقد كفكف دمعه حتى يستطيع أن يخاطب الملك . فقال له الملك دون أن يبدو عليه أى تأثر : « تكلم ! »

فانحنى بليسون ، وركع لافونتين كما يركع الناس فى الكنائس ، وظل الجميع صامتين ، فقال الملك بلهجة جافة : « يا مسيو بليسون ، ويا مسيو جورفيل ، وأنت يا مسيو ... ان سكوتكم مناف للاحترام الواجب نحو الرغبة التى أبديتها لكم الآن ! »

وهنا تكلم بليسون فقال : « مولاى .. اننا لم نأت الا لنعبر لجلالتك عن أعمق الاحترام وأصدق الولاء الواجب على الرعية نحو الملك . ان عدل جلالتك هائل جبار يخضع له الجميع ، ونحن ننحنى أمامه باحترام . ومعاذ الله أن ندافع عن ذلك الذى كان من سوء حظه أن كسب غضب جلالتك . انه قد يكون صديقا لنا ولكنه الآن عدو للدولة . ونحن نتركه لصرامة عدلك والدمع فى أعيننا ! »

فقال الملك : « ان البرلمان سيبت فى الأمر . انى لا أضرب الا بعد أن أزن الجريمة . ان عدالتى لا تستخدم السيف الا بعد أن تستخدم الميزان ! »

فقال بليسون : « لذلك نحن واثقون بعدل الملك ، ونأمل أن تسمع أصواتنا الضعيفة ، باذن جلالتك ــ حين تحين ساعة الدفاع عن المتهم »

فقال الملك : « ماذا جئتم تطلبون الآن ؟ »

فاستطرد بليسون قائلا : « ان المتهم قد خلف وراءه زوجة وأسرة . والأملاك القليلة التى كانت له لم تكد تكفى للوفاء بديونه ، ومدام فوكيه قد تخلى عنها الناس جميعا منذ قبض على زوجها . ان يد جلالتك تضرب كيد الله . واذا قضى الله بلعنة البرص أو الطاعون على أسرة فان كل انسان يفر منها ، وأحيانا قليلة يجرؤ طبيب على أن يلج بابها معرضا حياته للخطر ، ويكون هو الملاذ الأخير للمريض . اننا نبتهل اليك أن ترحم مدام فوكيه ، فلم يبق لها صديق ولا معين . انها تبكى فى بيتها المهجور ، وقد تركها كل من كانوا يزدحمون ببابها وقت الرخاء . أن المخلوق البائس الذى حلت به نقمتك ، يتناول على الأقل خبزه كل يوم فيأكله مبللا بدموعه . أما مدام فوكيه فلا تقل عن زوجها حزنا وعوزا ، وهى التى حازت شرف استقبال جلالتك على مائدتها ، قد أصبحت الآن لا تجد الخبز ! »

وساد الغرفة صمت رهيب لا يقطعه سوى نشيج بليسون وزميليه ، وكان الملك يحرص على ألا يظهر تأثرا لما سمع ولكن الدم صعد الى خديه ، وقال بصوت يغلبه التأثر : « وماذا تريدون ؟ »

فأجاب بليسون : « لقد جئنا فى خضوع لكى نرجو من جلالتك أن تسمح لنا بأن نعطى أرملة فوكيه ألفى بستول جمعناها من أصدقاء زوجها القدماء »

وامتقع وجه الملك اذ سمع كلمة (الأرملة) تطلق على زوجة فوكيه وهو على قيد الحياة ، ونظر بعطف الى الرجال الثلاثة الذين كانوا راكعين ينشجون عند قدميه وقال لهم : « معاذ الله أن آخذ البرىء بجريرة المذنب . ان الذى يرتاب فى رحمتى بالضعفاء لا يعرفنى حق المعرفة . انى لا أنزل ضرباتى الا بالمتعالى المتعجرف . افعلوا أيها السادة كل ما تحدثكم به قلوبكم لتخفيف ويلات مدام فوكيه ! »

فنهض الرجال الثلاثة صامتين وقد جف الدمع فى مآقيهم وغلبهم التأثر فلم يدروا كيف يشكرون للملك عطفه . ولما خرجوا قال دارتانيان للملك : « لكأن شعارك يا مولاى هو (رفيق بالضعفاء ، عنيف مع الأقوياء) .. ». فابتسم لويس الرابع عشر وذهب الى جناحه الآخر !

مصرع راءول

بعد أن فرقت الظروف بين الفرسان الأربعة الذين كانوا من قبل مرتبطين معا وكانهم شخص واحد ، بقى آتوس وحده بعد سفر ولده راءول ، وقد عاد الى بيته فى بلوا ، ولم يبق له حتى جريمو خادمه الأمين ليؤنس وحدته. وكان يقاوم الشيخوخة بقرب ولده منه ، اما الآن فقد بدأ الكبر يتغلب عليه بما يعتوره من ضعف والم بعد أن بقى شابا حتى الثانية والستين من عمره ، واحتفظ بقوته وسلامة تفكيره وصفاء روحه برغم مختلف المتاعب والأخطار

اجل ان آتوس بلغ من الكبر عتيا فى أسبوع واحد انقضى منذ سفر ولده الى شمال أفريقا . فقد ترك كل التمارين الرياضية التى كان يمارسها ، وصار يأوى الى فراشه وبيده كتاب غير أنه لم يكن يقرأ ولا ينام . وكان خدمه قد اعتادوا أن يروه يخرج مع الفجر فدهشوا اذ وجدوه يلازم سريره حتى الضحى ، وكان كثيرا ما يروعهم منظره وهو جالس منهمك فى أحلام اليقظة ، يظنونه نائما وما هو بنائم ، وكانت الساعات تمر به وهو لا يدرى بمرورها ، حتى لقد كان ينسى وقت وجبات الطعام . وقد تنقضى أيام متوالية دون أن يخاطب أحدا أو ينطق ببنت شفة ، وكان يرفض استقبال الزائرين الذين يجيئون لزيارته ، وفى خلال الليل كان يقضى الساعات وهو يكتب الى جانب مصباح !

وقد كتب خطابا الى أراميس فى فان ، وآخر الى دارتانيان فى فونتينبلو . ولكن الأول كان قد غادر فرنسا بينما الثانى كان مسافرا من نانت الى باريس !

وكان الطبيب يزور آتوس ويفحصه مرة بعد أخرى مجاولا أن يسبر غور المرض الذى يقعده ويسرع به الى الاضمحلال . اما آتوس فلم يكن يعترف بأنه مريض ولا يبالى أن يعالج !

وفى احدى الليالى رأى فى منامه ولده راءول يرتدى ملابسه فى خيمة ليذهب مع حملة يقودها المسيو دى بوفور بنفسه ، وكان الشاب بادى الحزن وقد تمنطق بسيفه ببطء فسأله والده : (ماذا بك ؟) . فأجاب : (يحزننى موت بورتوس . لقد كان صديقا مخلصا . وأنا أتألم هنا للحزن الذى سيغمرك)

وما لبث الكونت آتوس قليلا حتى تلقى فى صباح اليوم التالى خطابا

واردا من أسبانيا أدرك أنه بخط أراميس لأول وهلة ، وما ان قرأ الأسطر الأولى حتى صاح قائلا : « لقد مات بورتوس ! شكرا لك يا راءول !. لقد وفيت بوعدك أن تخطرنى بكل شىء ! »

ثم تصبب منه العرق وأغمى عليه وهو فى سريره . ولما أفاق من اغمائه أصر على أن يذهب الى بلوا ليستطيع منها أن يراسل ابنه ودارتانيان وأراميس

وكان خطاب أراميس قد أنبأه بفشل مغامرة (بل ــ أيل) وبموت بورتوس ، فأراد أن يزور المثوى الأخير لهذا الصديق العزيز ، وأن يكون ذهابه الى بل ــ أيل بصحبة دارتانيان . ولكنه لم يكد يرتدى ملابسه ، ولم يكد جواده يعد للرحلة ، حتى أحس اعياء شديدا ، فأمر خدمه بأن يحملوه الى العشب ليرقد تحت أشعة الشمس ، ولما استراح قليلا أيقن أنه عاجز عن الرحيل فحمله خدمه الى البيت ، وما لبث أن استغرق فى تفكير عميق ، فان البريد لم يأت اليه بخطاب من ولده برغم طول الانتظار ، وكان يعرف أن البريد يأتى مرة كل أسبوع ، فعليه أن ينتظر أسبوعا آخر وهو فى قلق شديد !

وجاء الطبيب ففحصه وأمر له ببعض الأدوية ثم عاد الى بلوا . وعندئذ غلبه النوم وهو يفكر فى راءول ، وما لبث حتى رأى فى المنام حقول أفريقا حول جيجيلى حيث رابط دى بوفور بجيشه ، وكانت هناك صخور جرداء ، ورأى دخانا يتصاعد وراء تلك الصخور ، وسمع أصوات حركة تدل على الرعب والاضطراب ، ثم شهد بغتة لهبا يصعد من ذلك الدخان فيزحف على البيوت ثم يشمل المدينة كلها وترتفع صيحات الرعب وصرخات الفزع الى عنان السماء . وسمع صوت بيوت تهدم وسيوف تحطم وأحجار تتساقط وأشجار تحرق . ومن عجب أن آتوس لم ير فى هذا المنظر الغريب أى انسان . وكانت المدافع تعصف من بعيد ، والبنادق تطقطق والسيوف تقعقع والبحر يزأر وقطعان الغنم تفر فوق السفح الأخضر ، ولكن آتوس لم ير أى جندى يطلق المدفع أو ملاحا يشترك فى حركات الأسطول أو راعيا وراء قطيع الغنم . وانما دمرت البلدة تدميرا كأنه تم بسحر ساحر دون اشتراك أحد من البشر فيه !.. ثم انطفأت النار وهبط الدخان وأرخى الليل سدوله فوق الميدان ، فساد سكون رهيب . وأرسل القمر أشعته الباهتة فوق ميدان المعركة فتبين آتوس فيه جثثا مبعثرة ، وعرف من ملابس أصحابها أنهم جنود فرنسيون سقطوا فى القتال ، فتولاه رعب شديد ، وأخذ يفحص جثة بعد أخرى خشية أن يكون راءول بينها . واشتد عجبه حين لم يجد جنديا حيا يقوده الى خيمة بوفور . ونظر حوله فوجد شبحا يرتدى بذلة ضابط وفى يده سيف مثلوم ، وتقدم هذا الشبح صوبه ببطء ، وآتوس ينظر اليه دون أن يتكلم وفتح ذراعيه ليتلقاه اذ تبين فيه ولده راءول ، ولكن الشيخ أشار اليه بالصمت ، وحاول آتوس

أن يصرخ ولكن الصرخة كتمت فى حنجرته ورأى الشبح يتراجع دون أن يبصر له قدمين ، فتبعه وهو يرتعد فرقا وأخذ يعبر الصخور والأحراش والبرك ، والشبح أمامه لا يبدو عليه أنه يمشى على أرض . وما لبث الكونت أن تعب من المشى فوقف منهك القوى ، بينما الشبح الذى شبه راءول يشير اليه ليتبعه ، فاستمد الأب من حبه الأبوى قوة وتبعه فوق التل مسحورا باشارته وابتسامته . وأخيرا وصل الشبح الى قمة التل فمد كل منهما يده للآخر ، ولكن قوة خفية جذبت راءول ورآه آتوس يترك الارض وأبصر السماء الزرقاء بين قدمى ولده وبين الغبراء ، وارتفع راءول الى السماء وهو لا يزال يبتسم لوالده ويشير اليه ليتبعه ، فصاح آتوس صيحة حنان ورعب معا ، ونظر الى تحت فرأى معسكرا قد ضرب ، وأبصر جثث الموتى مبعثرة على الارض ، ثم رفع بصره الى السماء فرأى ابنه لا يزال يشير اليه ليصعد مثله !

واستيقظ آتوس من نومه بعد هذا الحلم المروع على صوت ضجة عند الباب الخارجى للدار ، ثم سمع صوت جواد يدخل الفناء ، وبعدئذ صوت وقع قدمين على الدرج ، فحسب أن البريد قد جاءه ، لكنه فوجىء بأن خادمه جريمو هو القادم ، وكانت ملابسه يعلوها غبار السفر ، وقد وقف بالباب يرتعد فما ان رآه آتوس هكذا حتى قال له : « لقد مات راءول .. أليس كذلك ؟ » .

وكان الخدم واقفين وراء جريمو وقد كتموا أنفاسهم . فأجاب جريمو وهو يتنهد : « أجل يا سيدى ! »

ثم ارتفع عويل الخدم بينما كان الأب الثاكل يردد بصره فى الغرفة ليرى صورة ابنه . ولم تصدر عنه زفرة ولم تنحدر من عينه دمعة بل كان مستسلما صابرا كالشهداء ، ورفع بصره نحو السماء وكأنه يبحث عن ولده الذى رآه فى الرؤيا يصعد اليها فوق التل .. وضم يديه معا فوق صدره والتفت نحو النافذة وصار ينظر الى عالم مجهول وظل على هذه الحالة وقتا ثم قال : «هأنذا !» . ولم يدر أحد أقالها مخاطبا ابنه أم ربه ! وعندئذ سقطت يداه الى جانبه برفق وكأنه وضعهما هكذا الى جانب السرير !

لقد كان الموت رفيقا بهذا الانسان النبيل فوقاه ألم الاحتضار ولم يعش بعد ولده . وظن خدمه أنه نائم لما يبدو عليه من هدوء ، وظل جريمو برغم تعبه من الرحلة جالسا على عتبة الباب لا يريد أن يترك سيده وكأنه ديدبان يؤدى واجبه . وكان السكون يعم الدار وما لبث جريمو أن لحظ أن سيده لا يسمع له تنفس فقام اليه وسرعان ما استوثق من وفاته !

وفى تلك اللحظة سمع وقع حوافر جواد قادم ، ثم سمع صوت دارتانيان وهو يصيح بعد أن ترجل عند الباب : « آتوس أيها الصديق ! » . فتمتم جريمو قائلا : « المسيو دارتانيان ! » . ثم نهض فاستقبله وأمسك ذراعه بأصابعه اليابسة وأشار الى السرير ، وما نظر دارتانيان الى آتوس حتى أدرك أنه

قد فارقته الحياة ، لكنه وضع أذنه على صدره ليتحقق الامر . ثم جاء جريمو فغطى جثمان سيده وجلس عند قدميه يبكى بكاء مرا . وأحس دارتانيان ألما يفتت كبده ووقف برهة أمام جثمان زميله الميت يتأمله ويودعه ، ثم جلس على حافة السرير يستعيد ذكرياته مع هذا الفارس الذى نعم بعطفه ومودته خمسا وثلاثين سنة . وأخيرا لم يستطع أن يكتم شعوره فقام والعبرات تخنقه حزنا على آتوس وراءول وبورتوس فى آن واحد !

ثم قال لجريمو : « لقد رأيت الأب يموت . حدثنى كيف مات الابن ؟ ! »

فأخرج جريمو من صدره خطابا كبيرا كتب على ظرفه عنوان آتوس ، فعرف دارتانيان لتوه خط دوق بوفور وفض الخطاب وشرع يقرؤه على ضوء الفجر الذى كان قد انبثق وهو يمشى بين أشجار الليمون ، ولا تزال بالطريق آثار قدمى الكونت الذى مات !

« عزيزى الكونت .. لقد نزلت بنا كارثة شديدة ، وسط انتصارنا العظيم ، فقد فقد الملك جنديا من أبسل جنوده ، وفقدت أنا صديقا عزيزا . لقد مات راءول ميتة مجد وفخار ، ولكنى لا أجد فى نفسى القدرة على أن أبكيه كما أود . فتقبل عزائى مع جم الثناء على ولدك العزيز . ان الله يمتحننا بالمصائب على قدر ايماننا . وهذه مصيبة كبيرة ولكنها لا تجل على صبرك وشجاعتك .. صديقك المخلص دوق بوفور »

وكان مع الخطاب رسالة كتبها أحد سكرتيرى الدوق ، وقد حوت وصفا دقيقا للحادث الأليم الذى ذهب براءول . وجاء فى تلك الرسالة ما يلى :

« هجم الجيش صباحا بقيادة سمو الدوق . وبدأت المدفعية باطلاق نيرانها . وتقدمت الفرق فى عزم صادق ، وتتبع الأمير حركات الجنود ، لكى يعد لهم احتياطيا قويا . وكان مع سموه كبار الضباط وأركان حربه . وتلقى المسيو دى براجلون أمرا بألا يترك صاحب السمو . وفى خلال ذلك كان العدو قد نظم تصويب نيران مدافعه وبنادقه ، فقتل عدد من الرجال الذين كانوا بقرب الأمير . وبدا شىء من التردد من جانب رجالنا اذ كانت المدفعية لا تؤيدهم التأييد الكافى . والواقع أن البطاريات التى اتخذت مواقعها فى الليلة السابقة كانت لا تحكم التصويب لسوء تلك المواقع . فأمر صاحب السمو بانتقالها الى الطريق ، وتطوع راءول فورا لتنفيذ هذا الأمر ، ولكن الأمير رفض رجاءه اذ كان يحبه ويريد أن يبقى على حياته . وكان الأمير على حق لأن الجاويش الذى كلف حمل الرسالة لم يكد يصل الى شاطىء البحر حتى جندلته رصاصتان من بنادق العدو . وعندئذ التفت الدوق الى راءول وقال له : (أرأيت ؟ لقد أنقذت حياتك . لا تنس أن تخبر بذلك والدك يوما ما ليقدم الى شكره) . فابتسم الفيكونت راءول دى براجلون ابتسامة حزينة وقال : (هذا صحيح يا صاحب السمو ، فلولا عطفك لقتلت حيث سقط الجاويش المسكين ولكنت وجدت الراحة) . فدهش الدوق وقال : (رباه ! أن من يسمعك تقول هذا يخيل اليه أنك تتمنى الموت)

« وهنا احمر وجه الفيكونت وقال له : (عفوا يا صاحب السمو .. لقد بحثت دائما عن فرص للمجد . وانه لما يدعو الى السرور أن نمتاز فى عينى قائدنا)

« فارتاح سمو الأمير لهذا الجواب . وأخذ يصدر أوامره . واقترب رماة القنابل من البرك ليرموا قنابلهم . ولكن كان تأثيرها ضعيفا . وفى الوقت نفسه كان المسيو دستريه قائد الأسطول قد لحظ ذلك الجاويش يحاول أن يبلغ السفن ، فأدرك أنه لا بد له أن يعمل ولو لم يتلق أوامر ، وأخذ يطلق المدافع . ورأى الأعداء شدة الاصابات التى حلت بهم من نيران الاسطول ، فصاحوا صيحات فزع ، وهبط فرسانهم من فوق الجبل وهجموا هجمة واحدة على فرق المشاة ، فشبك هؤلاء حرابهم ووقفوا هذا الهجوم ، وعند ئذ تدفق الاعداء فى عنف شديد نحو رجال أركان الحرب ولم يكن هؤلاء على حذر فى تلك اللحظة . وكان الخطر شديدا فاستل الدوق سيفه ، وفعل الرجال الذين حوله مثله ، واشتبكوا مع الأعداء فى قتال عنيف . وحانت لراءول فرصة لتحقيق رغبته فقاتل كما كان يقاتل الرومان القدماء . ولحظ الدوق حماسته البالغة وهو يبتعد نحو الخنادق فأمره بالوقوف ولكنه لم يطع الأمر ، فأدهش عصيانه الجميع وصاح به الدوق : (قف !. الى أين أنت ذاهب ؟ قف . آمرك بالوقوف !)

« ولكن راءول لم يطع وظل يتقدم بجواده ، وعاد الدوق يصيح به أن يقف وأخيرا قال له : (آمرك بالوقوف ... باسم أبيك) . وعندئذ التفت خلفه والحزن باد على ملامحه . ولكنه لم يقف . فحسبنا أن جواده قد جمح به ، فأمر الدوق باطلاق الرصاص على ذلك الجواد ولكن خاف الجميع أن يفعلوا فيصيبوا الفارس كذلك . وأخيرا تقدم جندى بارع فى الرماية يدعى لوزرن فسدد بندقيته ورمى الجواد فأصابه ولكنه بدل أن يقع زاد هياجا واستمر مندفعا الى الأمام براكبه ، وأدركنا جميعا أن الفارس سيلقى حتفه وصحنا جميعا نقول : (اقذف بنفسك من فوق الجواد يا فيكونت) . وكان راءول ضابطا محبوبا من الجميع . ولكنه كان قد وصل الى مرمى بنادق العدو . فانهال الرصاص حوله وأخفاه الدخان عن أبصارنا ، ثم تبدد الدخان فرأيناه واقفا على قدميه وقد مات جواده !

« ودعاه الأعداء الى التسليم ولكنه أشار لهم برأسه اشارة الرفض ، واستمر يتقدم نحو سياجهم . وكان هذا طيشا منه ولكن جيشنا كله سره منه أنه لم يتقهقر . ومشى بضع خطوات فصفقنا له جميعا . وعندئذ عاد العدو فأطلق عليه الرصاص وأختفى ثانية فى الدخان ، ولما تبدد الدخان لم نره واقفا هذه المرة بل كان منبطحا على الارض . وتقدم الاعداء يريدون أن يسحبوا جثته ولكن الدوق صاح برجاله قائلا : (أتدعونهم يأخذون ذلك الجسم النبيل ؟) . ولوح بسيفه واندفع بجواده تجاه العدو فتقدمت الفرق معه وهى تصيح صيحات مرعبة ، وابتدأ القتال عند جثة راءول ، وكان

حامى الوطيس ، وفقد فيه الأعداء مائة وستين قتيلا وفقدنا نحو خمسين من رجالنا . وحمل ملازم من اقليم نورماندى جثة الفيكونت على كتفه وعاد بها الى خطوطنا . ثم تابع جيشنا هجومه وقد انضمت اليه القوات الاحتياطية فحطمت استحكامات العدو وسكتت نيرانه عند الساعة الثالثة . ثم استمر التلاحم بالسيوف ساعتين ولم تواف الساعة الخامسة حتى تم لنا النصر فى جميع النقط . وأمر سمو الدوق برفع العلم فوق قمة الجبل وعندئذ فقط بدأنا نفكر فى راءول ، وقد وجدنا بجسمه ثمانية جروح كبيرة نزف منها دمه كله تقريبا . ولكنه مع هذا كان لا يزال يتنفس وقد فرح الدوق بذلك فرحا شديدا وأصر على أن يكون حاضرا حين يفحصه الجراحون ، وقد صرح اثنان منهم بأنه سيعيش ، فعانقهما الدوق ووعد كلا منهما بمكافأة اذا أمكنهما انقاذ حياته !

« وسمع الفيكونت ذلك فدلت ملامحه على غير الارتياح . أما الجراح الثالث فقد ربط الجروح ولكنه لم يقل شيئا . ولما سأله الدوق صرح بأن بجسم الفيكونت ثلاثة جروح قتالة ، ولكن نظرا الى قوة الشباب فان الامل وطيد فى شفائه ، ثم قال : (وأهم شىء ألا يتحرك أدنى حركة فان ذلك يقتله لا محالة) . وعندئذ تركنا الخيمة وقد ضعف فينا الأمل . وخيل الى أحد السكرتيرين أنه رأى الجريح يبتسم حين سمع تلك النصيحة من الجراح . ودخل الدوق عنده فقال له : (سننقذك من الموت يا فيكونت . سننقذك)

« وفى المساء بعد أن اعتقدنا أن الجريح قد ارتاح دخل أحد المساعدين خيمته ولكنه ما لبث حتى خرج وهو يصرخ صرخة مفزعة ، فدخلنا جميعا ومعنا الدوق واذا براءول ملقى بجانب سريره غارقا فى بقية دمه . واتضح أنه قد تحرك أو تشنج فسقط من فوق السرير . وقد عجلت هذه السقطة بنهايته كما قال ذلك الجراح . ولما رفعناه وجدناه جثة هامدة ، وكان يمسك بخصلة شعر جميل فى يده ويضع هذه اليد فوق قلبه »

ثم تلا ذلك وصف أعمال الحملة ، ولكن المسيو دارتانيان وقف عند موت راءول وقال : « يا للفتى المسكين . لقد انتحر ! »

ثم التفت صوب الغرفة التى سجى بها جثمان الكونت دى لافير وقال : « لقد وفى كل منهما بوعده للآخر . الآن أحسبهما سعيدين ، وقد عاد كل منهما الى صاحبه ! »

ثم مشى بخطى وئيدة كاسف البال حزينا ، وكانت القرية كلها قد علمت بالكارثة المزدوجة فاشتد بها الأسى وأخذت تستعد للجنازة !

الوداع الاخير

فى اليوم التالى لموت الكونت آتوس ، جاء جميع النبلاء الذين وصل نعيه الى أقاليمهم ، ليشتركوا فى الجنازة · وكان دارتانيان قد حبس نفسه فى الدار اذ كان لا يريد أن يكلم أحدا ، فقدكان صعبا عليه أن يفقد آتوس وراءول بعد أيام معدودة من فقده بورتوس · وكان لا يدخل غرفته أحد من الخدم سوى جريمو · وقد كتب الى الملك راجيا مد اجازته · وكان جريمو قد جلس على كرسى بقرب الباب وهو يفكر تفكيرا عميقا ، ثم نهض وأشار الى دارتانيان ليتبعه ، وهبط معه الدرج الى غرفة نوم الكونت وأشار الى السرير الذى خلا من سيده ونظر الى السماء ، فقال له دارتانيان : « أجل يا جريمو · لقد ذهب مع ابنه المحبوب ! »

ثم غادر جريمو الغرفة وقاد دارتانيان الى القاعة حيث تقضى تقاليد الريف بعرض جثمان الميت على الانظار قبل دفنه · وقد عجب دارتانيان اذ رأى هناك تابوتين مفتوحين ولما اقترب منهما بناء على اشارة جريمو رأى فى أحدهما جثمان آتوس وفى التابوت الآخر جثمان راءول · وارتجف دارتانيان لرؤية الأب والابن ميتين ، وتمتم قائلا : « راءول هنا ؟· لماذا لم تخبرنى بذلك يا جريمو ؟ »

فهز جريمو رأسه ولم يجب،وانما قاد دارتانيان الى تابوت راءول وأراه مواقع الجروح وقد اسودت ، فأدار الكابتن وجهه من الألم ، وتذكر أن سكرتير الدوق قد كتب أكثر مما طاق هو أن يقرأه · ثم أخرج الورقة من جيبه وقرأ فيها ما يلى : « وقد أمر سمو الدوق بتحنيط جثمان الفيكونت على أن ينقله خادم أمين الى دار الكونت دى لافير »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « وهكذا يا بنى العزيز سأشيع جنازتك، أنا الرجل الشيخ الذى لم تعد له قيمة فى الحياة ، وسأهيل التراب على جبينك الذى قبلته منذ شهرين اثنين · لقد أردت لنفسك هذه النهاية ، فليس لى الحق حتى فى البكاء · لقد اخترت لنفسك الموت بعد اذ آثرته على الحياة »

وأخيرا حان وقت تشييع الجنازة ، ومضى عدد كبير من الضباط والمدنيين الى المقبرة المجاورة لكنيسة صغيرة ، وكان الطريق مملوءا بالفرسان والمارة وكلهم فى ثياب الحداد · وكان آتوس قد بنى لنفسه قبرا فى نطاق تلك الكنيسة عند حدود مزرعته

ولما تمت المراسم ودفن الأب والابن ، بقى دارتانيان وحده ، وكانت الشمس قد غربت ولكنه نسى مرور الوقت وهو يفكر · ثم قام من فوق مقعده بالكنيسة وأراد أن يذهب الى القبر ليودع صديقيه الوداع الأخير ، واذا به يرى امرأة راكعة هناك على الارض ، فوقف بباب الكنيسة يتأملها وكانت مخفية وجهها فى راحتيها البيضاوين كالشمع ، وكان خارج السياج عدد من الجياد يركبها خدم ، وعربة تنتظر · وظلت السيدة تصلى عند القبر وهى بين حين وآخر تمسح عينيها بمنديل · ورآها دارتانيان تضرب صدرها بيدها وهى تقول : « ألا مغفرة ! » · وأخيرا تقدم دارتانيان نحوها فما أن سمعت وقع خطاه حتى رفعت رأسها فبان وجهها وقد بلله الدمع · فعرف أنها الآنسة دى لافالير ! وتمتمت قائلة : « المسيو دارتانيان ؟! »

فرد قائلا بلهجة صارمة : « أنت هنا ؟· وددت لو رأيتك مسجاة فى دار الكونت دى لافير !· انك أنت التى قتلت هذين الرجلين بلا رحمة ! »

فقالت له : « سيدى ·· أشفق على ! »

فقال : « معاذ الله يا سيدتى أن أهين سيدة·غير أنى أصارحك القول بأن مكان القاتل ليس هو قبر فريسته ! »

فأرادت أن تقول شيئا ولكنه واصل كلامه قائلا : « ان هذا الذى قلته لك الآن قد قلته للملك من قبل ! »

فضمت يديها وقالت : «انى أعرف !·لقدكنت السبب فى موت راءول!· لقد وصل النبأ الى البلاط أمس · فسافرت خلال الليل مسافة أربعين فرسخا لكى آتى وأطلب المغفرة من الكونت دى لافير اذ حسبته لا يزال على قيد الحياة ، ولكى أسأل الله على قبر راءول أن يقدر لى كل الكوارث التى أستحقها ، ثم علمت أن موت الابن قد عجل بنهاية الأب ، فأدركت أنى ارتكبت جريمتين لا جريمة واحدة·والآن أترقب عقوبتين ينزلهما الله بى !»

فقال لها دارتانيان : « سأعيد على سمعك ما قاله عنك راءول حين كان يتوقع لنفسه الموت · لقد قال يومئذ : (لو كانت فتاة طامحة لعوبا وحادت عن الطريق السوى فانى أغفر لها مع ازدرائى اياها · ولو كان الحب هو الذى جعلها تخطىء نحوى فانى أغفر لها وأقسم لها أنه لم يحبها أحد كما أحببتها !) ··· »

فقالت لويز : « أنت تعلم أنى فى سبيل الحب كدت أضحى نفسى ، وأنت تعلم أنى كنت أتألم حين قابلتنى وأنا ضائعة مهجورة · انى لم أقاس فى حياتى كما أقاسى الآن · فقد كنت وقتئذ ذات أمل ورغبة · أما الآن فليس لى شىء منهما ، لأن موت راءول وأبيه قد قبر معهما كل مسرة لى ، ولا أستطيع الآن أن أحب دون أن أعانى وخز الضمير · وانى لأشعر بأن ذلك الذى أحبه سيجزينى بالعذاب الذى سببته لغيرى ! »

فلم يجب دارتانيان اذ كان موقنا بأنها صادقة ، وواصلت هى كلامها

فقالت : « والآن يا مسيو دارتانيان لا تقس على !.. اننى كفرع انتزع من شـــجرة . فأنا لا أعتمد على شيء وانما يجرفنى تيـــار لا أدرى الى أين . اننى أحب بجنون ، أنى أحب الى حد أنى أخبرك بحبى فوق هذا القبر . وأنا لا أخجل من هذا الحب ولا يؤنبنى ضميرى عليه.ان هذا الحب هو دينى ولكن لما كنت ستراني فى المستقبل منسية منبوذة ، وسـينزل بى العقاب المقدر لى ، فأرجو أن ترحمنى فى سعادتى الموقوتة وأن تتركها لى بضعةأيام أو بضع لحظات . ولعلها فى هذه اللحظة التى أكلمك فيها قد انتهت ! »

وبينما كانت تقول ذلك سمع صوت جياد تقترب ، وجاء المســيو دى سان اينيان قاصدا الى لافاليير فقال لها : « لقد كان الملك فريســة الغيرة والقلق ! »

ولم يكن قد رأى المسيو دارتانيان اذ أخفاه عن نظره جذع شجرة تظل القبر . فشـــكرت لويز المسيو سان اينيان وصرفتـــه ، وعندئذ قال لها دارتانيان : « أرأيت يا سيدتى ؟ ان سعادتك لا تزال قائمة ! »

فرفعت الفتاة رأسها برزانة وقالت : « سيأتى يوم تندم فيه على ســوء ظنك بى . وفى ذلك اليوم سأسأل الله أن يغفر لك ظلمك اياى . وفضلا عن ذلك سأشـــقى أنا الى حد يجعلك تتألم لشقائى . فلا تلمنى على هـذه السعادة فقد كلفتنى ثمنا غاليا ولم أسدد دينى بعد ! »

ثم عادت فركعت الى جانب القبر وقالت : « سامحنى يا راءول . لآخر مرة أطلب اليك الغفران يا خطيبى العـــزيز . لقد خنت عهدك ، ولـكنى سأموت مثلك من الحزن . واذا كنت أنت قد سبقت الى الرحيل فلا تخش شيئا فسأتبعك عما قريب.ولعلك الآن تدرك أنى لست دنيئة والا ما جئت الآن لأودعك الوداع الاخير . والله وحده يعلم أنى ما كنت لأتردد فى أن أفتديك بروحى . ولكنى لم أستطع أن أمنحك حبى . مرة أخرى أرجـــو الصفح والمغفرة يا راءول ! »

ثم تناولت غصنا وغرسته فى الأرض ، وبعدئذ مسحت الدمع منعينيها وانصرفت بعد أن انحنت تحية لدارتانيان !

ونظر دارتانيان الى الجياد والعربة الذاهبة ، ثم قال لنفسه : « متى يأتى دورى فى الرحيل ؟. ماذا بقى لرجل بعد الشباب والحب والمجد والصداقة والقوة والثروة ؟.. لم يبق سوى صخرة يرقد تحتها بورتوس الذىأتيحت له كل تلك النعم . ولم يبق سوى هـــذا القبر الذى يرقد تحته آتوس وراءول وكان لهما أكثر مما كان لبورتوس ! »

ووقف لحظة مترددا ثم قال لنفسه : « الى الأمام ! حين تدق ســـاعتى سينبئنى الله بها كما أنبأ هؤلاء ! »

ثم لمس الارض وقد بللها ندى المساء ، وغادر المقبرة وركب جواده عائدا وحده الى باريس !

لقاء ووداع

مضى على موت بورتوس وآتوس وولده أربع سنوات ، وفى ذات يوم ، كان اثنان من الفرسان يعبران غابة بلوا فى باكورة الصـباح ليرتبا رحلة صيد للملك ، وكان أحدهما حافظ كلاب الملك والآخر حافظ صقوره . فوجدا فى مكان هناك فرسان الملك وخلفهم قائدهم دارتانيان ، وقد عرفاه بجواده الأصيل وبذلتهالمزركشة وشعره الأشيب ، فقال أحدهما للآخر: « ان المسيو دارتانيان لا يبدو عليه كبر . انه أكبر منا سنا بعشرين سنة ومع هذا يجلس فوق جواده جلسة فارس شاب ! »

فقال الفارس حافظ الصقور : « انى لم ألحظ عليه أى تغيرخلال العشرين سنة الاخيرة ! »

غير أن هذا الضابط كان مخطئا ، فان دارتانيانكان قد حطمتهالسنوات الاربع الاخيرة . ثم اقترب هو منهما وحياهما ثم قال لهما : « ان الملك فى هذه الايام يستخدم فرسانه أكثر مما يستخدم كلابه وصقوره ! »

فقال حافظ الكلاب : « نعم يا سيدى ، ما أجمل تلك الايام الماضية حين كان الملك السابق يطير العقعق (طائر ملون) فى الكروم التى وراء بوجنس، وكنا جميعا فى مبعة الشباب »

وكان دارتانيان قد منح لقب كونت منذ أربع سنوات . ثم سأله حافظ الصقور : « ألم تتعب من الرحلة التى قمت بها ؟ »

فقال : « لقد قطعت أكثر من خمسمائة فرسخ فى الذهاب والاياب ! »

فسأله فى صوت هامس : « أهو بخير..أعنى المسيو فوكيه المسكين ؟»

فأجاب دارتانيان : « كلا !. انه دائم الشكوى ولا يقدر أن يفهم كيف يكون السجن منة . ويرى أن البرلمان قد حكم بنفيـه ، وان النفى معنـاه الحرية . انه لا يتصور أنهم كانوا يريدون اعدامه ، وانه جدير به أن يحمد الله الذى نجاه من مخالب البرلمان ! »

فقال الفارس : « حقا ان ذلك الرجل المسكين كان قد دنا من المشنقة . لقد أشيع أن المسيو كولبير كان قد أصدر أمرا الى الباستيل للاســتعداد لاعدامه ! »

فقال دارتانيان : « كفى ! ولنترك هـــذا الحوار » . وعندئذ دنا منهما الفارس حافظ الكلاب وكان قد ابتعد قليلا وقال : « ان المسيو فوكيه قد

استحق ذلك اذ سلب الملك مالا كثيرا . ومن حسن حظه انك أنت الذى ذهبت به الى هناك ! »

فنظر دارتانيان اليه نظرة قاسية وقال له : « لو أن أحدا أنبأنى بأنك أكلت لحم كلابك لما اكتفيت بتكذيبه بل كنت أشفق عليك اذا حكم عليك بالسجن من جراء هذه التهمة ، وكنت لا أطيق أن أسمع أحدا يذكرك بسوء . وأنا أؤكد لك أن المسيو فوكيه لا يقل براءة عنك ! »

وتراجع حارس الكلاب بعد هذا الدرس القاسى ، بينما عاد زميله حافظ الصقور فقال لدارتانيان : « انه راض عن نفسه لان كلاب الصيد رائجة الآن . ولو كان من حملة الصقور لما قال ما قاله ! »

فابتسم دارتانيان ، وعاد بذهنه الى المسيو فوكيه وما كان فيه من عز وبذخ ، وما ينتظره من ميتة محزنة . ثم سأل حارس الصقور : « هل الملك سيأتى قريبا ؟ »

فأجاب : « عند الساعة السابعة أطلق الصقور ! »

فسأله : « من سيأتى مع الملك ؟. وكيف حال الاميرة هنريتا ؟ وكيف حال الملكة ؟ »

فقال : « ان الملكة أحسن حالا من قبل ، وقد تحسنت صحتها بعد أن ساءت منذ حزنها الأخير ! »

فتساءل دارتانيان متعجبا : « أى حزن ؟. ان هذا النبأ جديد على لأنى لم أعد الا أخيرا ! »

فقال الفارس : « لقد ساءها اهمال الملك اياها بعد موت الملكة الوالدة ، وزاد فى حزنها أنها شكت اليه فأجابها بقوله : (حسبك أنى أنام عندك كل ليلة !) .. »

فقال دارتانيان : « يا لها من امرأة مسكينة . لابد أنها تكره الآنسة دى لافاليير من أعماق قلبها ! »

فقال الفارس : « ان منافستها الآن ليست الآنسة دى لافاليير ! »

وفى تلك اللحظة سمع صوت نفير يدعو الكلاب والصقور ، فمضى الضابطان توا دون أن يتم ذلك الحوار ، وظهر الملك قادما تحيط به السيدات والفرسان . وتقدم الجميع فى نظام ، وتبين دارتانيان وراء ذلك الجمع ثلاث عربات ، كانت الاولى للملكة ولكنها كانت خالية . ورأى دارتانيان الآنسة دى لافاليير فى العربة الثانية وكانت وحدها مع اثنتين من الوصيفات . وكان الى يسار الملك سيدة بارعة الجمال ، والملك يبتسم لها وهى تبتسم له ، وكان يضحك لكل كلمة تقولها !

فقال دارتانيان لنفسه : « يجب أن أعرف من هذه المرأة » . ثم انطلق فلحق بحافظ الصقور ليسأله ، ولكن الملك لمحه فناداه قائلا : « لقد عدت يا كونت . لماذا لم أرك اذن ؟ »

فقال له : « ان جلالتك كنت نائما حين وصلت ، ولم تكن قد استيقظت بعد حين تسلمت عملى صباح اليوم ! »

فقال له الملك : « انك أنت لا تتغير . خذ نصيبك من الراحة يا كونت . انى آمرك بذلك . وستتناول طعام الغداء معى اليوم ! »

فأحاطت بدارتانيان همهمة اعجاب من معية الملك ، وكان كل فرد تواقا لان يحييه . فان تناول الغداء مع الملك صار شرفا لا يسخو به لويس الرابع عشر كثيرا . ثم تقدم الملك بضع خطوات فوجد دارتانيان نفسه بين جماعة أخرى كان المسيو كولبير هو البارز فيها . وقال له هذا الوزير بأدب ومودة: « عم صباحا يا كونت دارتانيان . هل كانت رحلتك ممتعة ؟ »

فانحنى دارتانيان على رأس جواده وأجاب : « أجل يا سيدى ! »

فقال الوزير : « لقد سمعت الملك يدعوك الى مائدته ، وستقابل هناك صديقا قديما لك هو دوق الميدا »

وهنا فتح باب عربة فظهر منها شيخ وقور أشيب وقال : « ها أنذا يا كونت ! »

فصاح دارتانيان فى دهشة بالغة : « أراميس ! »

وعانق صديقه القديم ، ثم تركهما كولبير ومضى بجواده . فقال دارتانيان لأراميس : « ما هذا ؟. كيف عدت الى فرنسا ثانية أنت الثائر المنفى ؟! »

فابتسم أراميس وأجاب : « وسأتناول معك الغداء على مائدة الملك . أجل . ألا تسأل نفسك : ما جدوى الاخلاص فى هذا العالم ؟! ولكن لتقف عربتنا لحظة كى ندع عربة دى لافاليير المسكينة تمر . أنظر ما أشد قلقها واضطرابها . وكيف تتبع الملك وهو على جواده ، بعينين دامعتين ! »

فسأله دارتانيان : « ومن تلك التى مع الملك ؟ »

فأجاب أراميس : « انها (كلير ـ شارنت) وقد أصبحت الآن مدام دى مونتسبان !.. أما لافاليير فالملك لم يهجرها تماما ولكنه لا يلبث قليلا حتى ينبذها ! »

وجعل الصديقان يتحدثان وهما يتبعان حملة الصيد . وما لبث الملك قليلا حتى ترجل عن جواده فاقتدت به مدام دى مونتسبان . وكانا أمام كنيسة صغيرة مهجورة تحيط بها أشجار كثيفة ، وكان خلف الكنيسة سياج يتوسطه باب ، وكان البازى قد أسقط فريسته وراء ذلك السياج فأراد الملك أن يدخل ليأخذ من الطير المصيد أول ريشة كما جرت العادة . وأحاطت المعية بالكنيسة ولم تقدر أن تدخل السياج لصغر المساحة وكثرة عددهم . وأمسك دارتانيان ذراع أراميس وقال له : « أتدرى يا أراميس الى أين قادتنا المصادفة ؟ »

فأجاب دوق أليدا : « كلا ! »

فقال دارتانيان فى حزن : « هنا أناس كنا نعرفهم . هنا آتوس وراءول! »

فدخل أراميس بخطى مرتعشة من باب صغير فتحه له دارتانيان ، ومضيا الى القبر الذى تظلله شجرة السرو . ولكن الملك كان قادما من تلك الناحية اذ كان الطائر المصيد قد وقع هناك . فوقف أراميس واختفى فى الظل . وعندئذ رأى الاثنان ـ دون أن يريا ـ وجه دى لافالير الشاحب وقد تركت فى عربتها ، فنظرت أولا ثم دفعتها الغيرة الى النزول من العربة ودخلت الكنيسة واستندت الى عمود فيها وأخذت تتأمل الملك وهو يبتسم لمدام دى مونتسبان ويشير اليها لتقترب منه وانه ليس ثمة ما تخشاه ، فأطاعت مدام دى مونتسبان ، وتناولت يد الملك التى مدها اليها ، ثم جذب ريشة من الطائر الذى خنقه البازى ووضعها فى قبعتها ، فابتسمت له وقبلت يده بحنو ، وعندئذ احمر وجهه من السرور ونظر اليها نظرة حب وولّه ، وقال لها : « ماذا تعطيننى فى مقابل هذه الريشة ؟ »

فاقتطعت غصنا صغيرا من شجرة السرو الصغيرة وأعطته الى الملك . وهنا قال أراميس لدارتانيان : « انها هدية حزينة لانها مقطوعة من شجرة تظلل قبرا ! »

وسمعا خلفهما أنينا ، ونظرا فرأيا امرأة تسقط على الارض مغمى عليها . وكانت هى دى لافالير وقد رأت كل شىء وسمعت كل شىء !

فتمتم دارتانيان وهو يساعد بعض رجال المعية على حملها الى عربتها : « يا لها من امرأة مسكينة ! »

وفى مساء ذلك اليوم كان دارتانيان جالسا الى مائدة الملك على مقربة من المسيو كولبير ودوق أليدا ، وكان الملك بادى السرور ، وقد خاطب دوق أليدا مرتين أو ثلاثا بلقب (سعادة السفير) ، فزاد ذلك فى دهشة صديقه دارتانيان !

ولما قام الملك من المائدة مد يده للملكة ، وأشار الى المسيو كولبير ، فأخذ هذا دارتانيان وأراميس جانبا ، ثم أخذ الملك يتحدث مع زوجة أخيه الأميرة هنريتا ، بينما كان زوجها الأمير يتحدث مع الملكة وهو لا يحيد ببصره عن زوجته . ودار الحديث بين أراميس ودارتانيان وكولبير حول شؤون شتى ، فتحدثوا مثلا عن الوزراء السابقين ، وذكر كولبير أعمال مازارين وسأل عن أعمال ريشيليو . وقد عجب دارتانيان اذ وجد هذا الرجل سليم الحكم على الأمور

وكان واضحا من ملامح الأمير أن تحدث الملك مع زوجته يزعجه ، وكانت عينا الأميرة قد احمرتا تقريبا ، أتراها ستشكو وتثير فضيحة فى البلاط ؟ وأخذها الملك جانبا وقال لها بلطف ذكرها بالوقت الذى كانت فيه محبوبة له : « أختاه .. لماذا أرى الدمع فى عينيك الجميلتين ؟ . ان زوجك يشعر بالغيرة . أليس كذلك ؟ »

فنظرت صوب زوجها وكان هذا برهانا على أن الحديث يدور حوله ثم قالت : « نعم ! »

فقال لها الملك : « اصغى الى .. اذا كان أصدقاؤك يسيئون الى سمعتك فليست هذه غلطة الأمير ! »

وقد نطق هذه الكلمات برقة جعلتها توشك أن تفضى اليه بأشجانها ، ثم قال لها : « هيا بثينى شكواك . انى كصهر سأشفق عليها . وكملك سأزيل أسبابها ! »

فرفعت عينيها النجلاوين وقالت برنة حزن : « ان أصدقائى لا يسيئون الى سمعتى ، فانهم اما غائبون واما مختفون . لقد حل بهم غضب جلالتك برغم اخلاصهم وولائهم ! »

فقال لها : « أنت تقصدين دى جيش الذى نفيته الى الخارج بناء على رغبة أخى الأمير ؟ »

فقالت : « قد حاول كل يوم أن يلقى حتفه ! »

فقال لها : « أتحسبين ذلك ظلما منى يا أختاه ؟ »

فقالت : « انه لظلم عظيم ، ولولا انى أكن لك الاحترام ممزوجا بالمودة للجأت فى ذلك الى أخى تشارلس الذى يمكننى دائما أن أعتمد عليه ! »

فقال لها الملك : « ماذا كنت تطلبين اليه ؟ »

فأجابت : « كنت أطلب اليه أن يبين لك أن زوجى الامير وصديقه الفارس دى لورين لا ينبغى لهما أن يكونا جلادى شرفى وسعادتى ! »

فسألها : « أتعنين الفارس دى لورين ، ذا الوجه الذى يقبض الصدر؟ »

فقالت : « أجل !. انه عدوى الألد طالما بقى فى قصرى يقربه الامير منه ويخوله سلطته ، ليجعلنى أتعس امرأة فى المملكة ! »

فقال الملك بتؤدة : « وهكذا تحسبين أخاك ملك انجلترا صديقا أخلص لك منى ؟ »

فقالت : « ان الاعمال هى التى تتحدث يا مولاى ! »

فقال : « وأنت تؤثرين أن تطلبى المعونة هناك ؟ »

فقالت بكبرياء : « انها بلادى . أجل يا مولاى ! »

فقال الملك : « انك حفيدة هنرى الرابع كما أنا حفيده ، فأنا ابن عمك وأخو زوجك فى آن واحد ! »

فقالت : « اذن اعمل ما يحقق صالحى ! »

فقال : « هيا بنا نعقد محالفة .. أنت تقولين انى نفيت دى جيش ظلما ، وأذن يعود فى أقرب وقت ! »

فقالت : « حسنا » . ومضى هو فقال : « وتقولين ان وجود الفارس دى لورين فى معية أخى الأمير يسىء اليك ، واذن لن يزعجك بعد اليوم ! »

فقالت الأميرة : « هذه يا مولاى مقدمة حسنة لمحالفة بيننا . وأنا أقبلها راضية . ولكن اذا كان هذا نصيبك منها فما هو نصيبى ؟ »

فقال لها : « بدل أن توقعى بينى وبين أخيك تشارلس ، اجعليه أكثر مودة لى ! »

فقالت : « هذا أمر يسير يا مولاى »

فقال : « كلا !. انه ليس يسيرا كما تتصورين ، لأن الصداقة العادية بين الناس يكفى فيها العناق أو الكرم أما الصداقة السياسية ... »

فقالت الأميرة : « أهى صداقة سياسية اذن ؟! »

فقال الملك : « أجل يا أختاه !.. وفيها لا يوجد عناق ولا مآدب ،ولكن جنود وذخيرة وعتاد ، يخدم بها الصديق صديقه ... وسفن تقدم بما فيها من مدافع ومؤونة.ان خزائننا لم تكن دائما مستعدة لتوطيد صداقات من هذا القبيل ! »

فقالت الأميرة : « أنت على حق . ان خزائن ملك انجلترا ظلت طنانة رنانة وقتا غير قصير ! »

فاستطرد الملك قائلا : « أنت يا أختاه لك نفوذ على أخيك ملك انجلترا وتقدرين أن تحصلى منه على أكثر مما يحصل عليه أى سفير ! »

فقالت : « هذا يتطلب أن أسافر الى انجلترا ، أليس كذلك يا أخى العزيز ؟ »

فقال لويس الرابع عشر : « أحسب ذلك ، وأرى أن مثل هذه الرحلة تصلح من حالتك النفسية »

فقالت الاميرة : « ولكن ربما أفشل فى مهمتى هذه . فان ملك انجلترا له مستشارون يحسب حسابهم فى المحالفات ولاسيما اذا كانت محالفة حربية تكلف أموالا ورجالا وسفنا . وليس يخفى على جلالتك أن مستشارى ملك انجلترا سبعة هم ــ أو بالأحرى ــ هن الآنسات : ستيوارت وويلز وجوين وأورشى وزونجا وديفيز والكونتس المتكبرة كاستلمين ! »

فقال الملك : « أتخشين فى مثل هذه الحالة أن تفشل مفاوضاتك ؟ »

فقالت الاميرة : « ان أولئك السيدات يسببن فشل كل مفاوضة لا يقمن بها بأنفسهن ! »

فقال : « لقد خطرت لى فكرة هى أن تأخذى معك مستشارة لها من الفصاحة ما يسكت مستشارات أخيك ! »

فقالت : « هذه فكرة صائبة يا مولاى ، وسأبحث عن مستشارة من هذا القبيل »

فقال الملك : « ويجب أن تكون تلك المستشارة جميلة . فان الوجه الحسن خير من الوجه القبيح ! أليس كذلك ؟ »

فقالت : « نعم ، وأن تكون ذات جرأة وحيوية.وأن تكون نبيلة وتعرف اللغة الانجليزية بحيث تخاطب الملك دون أدنى ارتباك ! »

فأومأ الملك لويس الرابع عشر موافقا ، بينما واصلت الاميرة كلامها

فقالت : « ان كل هذه الصفات تنطبق على الآنسة دى كيروال ! »

فقال الملك : « لقد أحسنت الاختيار يا أختاه . وأنا أتصورك الآن فى طريقك الى انجلترا ! »

فقالت : « سأذهب حالما أعرف مهمتى التى سأتفاوض بشأنها ! »

فقال الملك : « ان الهولنديين كما تعلمين يهينوننى كل يوم فى صحفهم ، وهذا عدا أن نظامهم جمهورى وأنا لا أحب الجمهوريات ! »

فقالت الاميرة : « هذا أمر يسهل فهمه يا مولاى » . ومضى الملك فقال : « انى أرى مع الالم أن ملوك البحر هؤلاء ــ كما يسمون أنفسهم ــ يسدون على فرنسا طريق الاتجار مع الهند ، وسفنهم لا تلبث حتى تحتل كل موانىء أوربا . ان مثل هذه القوة البحرية صارت قريبة منا أكثر مما يجب ! »

فقالت الاميرة : « لكنهم مع هذا حلفاؤك ! »

فقال : « هذا يدل على مدى خطئهم اذ صنعوا وساما يمثل هولندا وهى تصد الشمس . ان هذا لا يدل على محالفة واخاء . أليس كذلك ؟ ! »

فقالت : « كنت أحسب أنك نسيت هذا الحادث ! »

فقال لها : « انى لا أنسى شيئا يا أختاه !. واذا كان أصدقائى المخلصون ، كأخيك تشارلس مثلا ، يؤيدوننى ... »

وسكتت الاميرة ولم تتكلم ، فاستطرد لويس الرابع عشر قائلا : « ان مملكة البحار مقسمة ، وانجلترا خاضعة لهذا التقسيم ، فلماذا لا أمثل أنا الشطر الثانى بدلا من الهولنديين ؟ »

فقالت الاميرة : « ان الآنسة دى كيروال ستعالج هذا الموضوع »

وهنا سألها الملك : « الا تشترطين شيئا آخر للموافقة على السفر ؟ »

فقالت : « لا شىء الا موافقة الامير زوجى » . فقال الملك : « انى أضمن موافقته » . ثم أشار الى كولبير فقطع هذا حديثه مع أراميس ودارتانيان ، والتفت الى أولهما قائلا : « يا سعادة السفير . أنتحدث عن الاعمال ؟ »

فانسحب دارتانيان بأدب ، ومضى الى المدفأة بحيث يسمع الحديث الذى سيدور بين الملك وأخيه الامير ، وكان هذا ظاهر القلق بينما الاهتمام يبدو فى وجه الملك بعد أن تخلص من كل معارضة فى فرنسا ، وأوشك أن يقضى على كل مناواة فى أوربا ، ثم قال لاخيه الامير : « انى غير راض عن الفارس دى لورين ، وأنت الذى تشرفه بحمايتك ، فينبغى لك أن تنصح له بالسفر بضعة أشهر ! »

فانقضت هذه الكلمات على الامير كالصاعقة اذ كان يحب دى لورين ويثق به . وسأل الملك قائلا : « وكيف استطاع الفارس دى لورين أن يثير غضب جلالتك ؟ »

فأجاب الملك : « سأقول لك ذلك بعد أن يرحل ... وأيضا بعد أن تكون الاميرة زوجتك قد سافرت الى انجلترا »

فتمتم الامير مندهشا : « الى انجلترا ؟ ! » . بينما واصل الملك كلامه قائلا : « أجل يا أخي العزيز ، وسنذهب نحن كلانا الى حيث أخبرك فيما بعد ! »

واستدار الملك على عقبيه وهو يبتسم لأخيه ليخفف من مرارة الجرعة التي جرعه اياها . وفي خلال ذلك كان كولبير يتحدث مع دوق الميدا ويقول له : « لقد حان الوقت لكي نصل الى تفاهم . لقد أصلحت بينك وبين الملك وكان هذا واجبا على نحو رجل في مثل مقدرتك . ولكن لما كنت قد عبرت مرارا عن صداقتك لي فقد سنحت فرصة للبرهان عليها . على أنك فرنسي أكثر منك اسبانيا . فأرجو أن تجاوبني بصراحة : أتضمن حياد أسبانيا اذا باشرنا حربا ضد هولندا ؟ »

فقال له أراميس : « يا سيدي ان مصلحة أسبانيا واضحة ، وترمي سياستنا الى بذر بذور الخلاف بين أوربا وبين هولندا ، غير أن هذه الدولة هي حليفة ملك فرنسا . وأنت تعلم أن مثل تلك الحرب ستكون حربا بحرية ، وان فرنسا لا تمكنها ظروفها الحالية من الاستفادة من مثل هذه الحرب ! »

فالتفت كولبير الى دارتانيان وناداه ، وقال لأراميس : « يمكننا أن نشرك المسيو دارتانيان في حديثنا ، أليس كذلك ؟ »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « بكل تأكيد ! » . ثم قال كولبير لقائد الفرسان : « لقد كنت أتحدث مع دوق الميدا في شأن الحرب مع هولندا ، ومن رأينا أنها ستكون حربا بحرية »

فقال دارتانيان : « هذا أمر واضح ! »

فسأله كولبير : « ما رأيك في مثل هذه الحرب يا مسيو دارتانيان ؟ »

فأجاب : « أعتقد أنه للنجاح في مثل هذه الحرب يجب أن يكون لنا جيش بري ضخم ! »

فظن كولبير أن دارتانيان لم يفهم قصده وعاد يسأله : « ماذا تقول ؟ . »

وسأله أراميس بدوره : « وما الحاجة الى جيش بري ضخم ؟ »

فأجاب قائلا : « لأن قوات الملك ستهزم في البحر اذا لم تكن انجلترا حليفة لنا . واذا هزمنا بحريا غزيت بلادنا دون ابطاء ، من جانب الهولنديين بحرا ومن جانب الأسبانيين برا ! »

فسأله أراميس : « واذا بقيت أسبانيا على الحياد ؟ »

فأجاب دارتانيان : « ان أسبانيا ستبقى محايدة طالما كانت كفة فرنسا هي الراجحة »

فأعجب كولبير بفطنة دارتانيان وبعد نظره . وابتسم أراميس اذ كان يعرف أن دارتانيان لا يفوقه أحد في الشؤون الدبلوماسية . ثم استأنف الكلام وسأل دارتانيان : « من الذي أنبأك أن الملك لا يملك أسطولا بحريا ؟ »

فقال دارتانيان : « اني لم أعبأ بالتفاصيل ، وليست لي خبرة بحرية . بل أنا ككل رجل عصبي أكره البحر . غير أني أعتقد أنه اذا أصبحت فرنسا تملك سفنا كافية فانها ستجد رجال البحرية الكافين »

فأخرج كولبير من جيبه كراسة صغيرة قسمت صفحاتها الى عمودين ، وفي ناحية منها أسماء السفن ، وفي الناحية الاخرى عدد المدافع والرجال المطلوبين لها . وقال لدارتانيان : « انه احصاء بالسفن الحربية التي نملكها . . والمدافع التي بها . . انها خمس وثلاثون سفينة وبها حوالي الفي مدفع . وهكذا يمكن أن يكون لنا ثلاث مجموعات بحرية . ولكن يجب أن يكون عندنا خمس مجموعات »

فصاح أراميس : « خمس مجموعات ؟ ! »

واستطرد كولبير قائلا : « انها ستنزل الى البحر قبل نهاية هذه السنة . وسوف يكون لدى الملك خمسون سفينة . وعندئذ يمكننا أن ننازلهم . أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان : « ان تشييد السفن صعب ولكنه ممكن . أما تزويدها بالسلاح فما الذي يمكن عمله ؟ . ان فرنسا لا تملك مصانع ذخيرة ولا أحواض سفن ! »

فقال الوزير : « لقد أنجزت كل ذلك خلال الشهور الثمانية عشرة الاخيرة . ألم تعلم ذلك ؟ ألا تعرف المسيو ايمفريل ؟ »

فقال دارتانيان : « ايمفريل ؟ كلا لست أعرفه ! »

فقال الوزير : « رجل اكتشفته . رجل عبقري يعرف كيف يغري الرجال بالعمل . وهو الذي صنع المدافع وقطع أشجار الغابات في بورجوني . ثم ان عندي فكرة أفضي بها اليك يا سعادة السفير وربما لا تصدقها »

فقال أراميس : « اني دائما أصدقك يا سيدي ! »

فقال كولبير : « لقد قلت لنفسي : ان الهولنديين تجار وهم اصدقاء الملك ، فيسرهم بلا ريب أن يبيعوه ما يصنعونه لانفسهم . وهكذا زدنا ما نشتريه منهم . . . ان عندنا فوران . أتعرف فوران يا دارتانيان ؟ »

وابتسم دارتانيان إذ ناداه الوزير هكذا دون لقب كما يناديه الملك ، ورد عليه قائلا : « لا يا سيدي لست أعرفه ! »

فعاد الوزير يقول : « انه رجل آخر اكتشفته وهو نابغة في الشراء . ان فوران هذا قد اشترى لي ثلاثمائة وخمسين ألف رطل من الحديد ومائتي ألف رطل من البارود ، كما عقد لي اثنتي عشرة صفقة من خشب البلدان الشمالية ، وهذا كله عدا صفقات الكبريت والقنابل والقار وغيرها ، وقد اشتراها لنا أرخص بمقدار سبعة في المائة من تكاليف صنع مثلها في فرنسا ! »

فقال دارتانيان : « انها لفكرة حسنة أن تصنع الذخيرة بأيدي الهولنديين

لتعود اليهم بعد ذلك طلقات تستقر فى صدورهم ! »

فقال الوزير : « ليس هذا فقط بل بخسارة لهم كذلك ! » . ثم ضحك وواصل كلامه فقال : « ان الهولنديين ايضا يبنون للملك الآن ست سفن على طراز أحسن سفنهم الحربية . ويتضح من ذلك كله أن ملك فرنسا اذا أراد أن يحارب الهولنديين فسيكون له أسطول قوى . أما الجيش البرى فانت أدرى به من كل انسان »

فتبادل دارتانيان وأراميس نظرة بدت فيها دهشتهما مما انجزه كولبير فى وقت وجيز

وسر كولبير من هذا المديح الصامت . ثم قال له دارتانيان : « اذا كنا ونحن فى فرنسا نجهل كل ذلك فلا شك أن غيرنا أجهل به ! »

وعندئذ قال أراميس : « اذا ساعدتكم انجلترا فانى أضمن لكم حياد أسبانيا »

فسارع كولبير الى القول : « انى أسجل عليك وعدك هذا . وعلى ذكر أسبانيا أراك لا تحمل وسام الفروة الذهبية . ولقد سمعت الملك منذ أيام يقول انه يود أن يراك متقلدا وشاح الوسام الاكبر لسان ميشيل ! »

فانحنى أراميس شاكرا ، وقال دارتانيان لنفسه : « لو كان بورتوس حيا لسعد بعدد من هذه الاوسمة ! رحمة الله على بورتوس ! »

ثم قال كولبير : « يا مسيو دارتانيان . . انى أراهن انك تتمنى لو تغزو هولندا بفرسانك ، أتتقن السباحة ؟ »

وضحك كولبير ثانية لنكتته هذه ، فقال له دارتانيان : « انى أسبح كالسمك ! » . فقال كولبير : «ولكن فى هولندا عددا من القنوات والمستنقعات وقد يغرق فيها أحسن السباحين ؟! »

فقال دارتانيان : « ان مهنتى هى أن أموت فى خدمة صاحب الجلالة . ولكن فى الحروب يقابل الماء الكثير بنيران كثيرة ، وسأبذل قصارى جهدى لاختيار النيران . انى أوغل فى الكبر . والماء يبرد أطراف جسمى . أما النار فتدفئنى ! »

وبدا كأنه عاد الى شبابه وهو يقول هذه الكلمات بحماسة وعزم ، فلم يسع كولبير الا أن يعجب به . وتذكر أن أحسن التجار هو الذى يفرض ثمنا غاليا لسلعته فاستعد لدفع هذا الثمن سلفا . وقال له : « وعلى ذلك تذهب الى هولندا ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل : ولكن . . . »

فسأله كولبير : « ولكن ماذا ؟ »

فأتم كلامه قائلا : « فى كل أمر يوجد أيضا الصالح الشخصى . . . ان لقب قائد الفرسان لقب جميل . ولكن لدينا الآن حرس الملك ، وقوة القصور . فقائد الفرسان يجب أن يراس جميع هذه القوات ، وعندئذ ينبغى أن يكون

راتبه مائة ألف ليفر فى السنة لنفقات التمثيل والمآدب وغيرها ! »

فقال له كولبير : « أتظن أن الملك سيساومك ؟ »

فقال له : « انك يا سيدى لا تفهم قصدى . انى أقول اننى بوصفى قائدا للفرسان ، وبوصفى ضابطا أقدم من مارشالات فرنسا ، وجدت نفسى ذات يوم مساويا لقائد الحرس وقائد الحرس السويسرى . فانا لن أصبر على ذلك . ان لى عاداتى القديمة وسأصر عليها ! »

فقال له كولبير : « لقد فكرت فى كل ذلك . ألم أحدثك منذ لحظة عن القنوات والبرك فى هولندا وعن خوفى أن تغرق ؟. حسنا ! انك اذا غرقت فذلك لانك ينقصك زورق أو لوح من الخشب . . . أو . . . عصا . . . »

فقال دارتانيان : « بل عصا مهما قصرت ! »

وأومأ الوزير موافقا وقال : « لذلك لم أسمع قط بأن مارشالا فرنسيا غرق ! »

فشحب وجه دارتانيان وقال بصوت يغلبه التأثر : « ان الناس فى فرنسا سيفخرون بى اذا صرت مارشالا . ولكن لابد أن يقود الضابط حملة رئيسية لينال تلك الرتبة ! »

فقال له كولبير : « هنا فى هذه الكراسة خطة لحملة ستتولى أنت قيادتها فى الربيع القادم »

فتناول دارتانيان الكراسة بيد مرتعشة وقال لكولبير : « أرجو أن تخبر الملك بأنه فى أول فرصة تسنح سينال نصرا عظيما أو يرانى جثة هامدة ! »

فقال كولبير : « اذن سأعد لك عصا المارشالية توا ! »

وفى صباح الغد جاء أراميس ليودع دارتانيان فى فندقه قبل أن يعود الى أسبانيا ليقنع ملكها بالحياد ، فقال له دارتانيان : « ليحب أحدنا الآخر حبا يكفى أربعة ، فقد صرنا اثنين فقط ! »

فقال له أراميس : « لعلك يا عزيزى دارتانيان لن ترانى ثانية !. . آه لو عرفت قدر حبى لك ! اننى الآن شيخ فى الهالكين ! »

فقال له دارتانيان : « يا صديقى ، انك ستعيش بعدى . ان السياسة تتطلب منك أن تعيش . أما أنا فان الشرف يتطلب منى أن أموت ! »

فقال له أراميس : « ان الرجال أمثالنا ، يا فخامة المارشال ، لا يموتون الا بعد أن يشبعوا فرحا ومجدا ! »

فابتسم دارتانيان ابتسامة حزينة وقال : « أؤكد لك يا سيدى الدوق انى صرت لا أشتهى هذا ولا ذاك ؟ »

ثم تعانقا مرة أخرى ، وافترقا !

نهاية الفرسان الأربعة

وفى الملك لويس الرابع عشر بعهده. فاستقدم المسيو دى جيش من منفاه، ونفى الفارس دى لورين من خدمة الامير شقيقه ، وعلى هذا سافرت الاميرة هنريتا الى لندن حيث بذلت جهدها لتغرى أخاها تشارلس الثانى بأن يصغى الى نصائح الآنسة دى كيروال ، وهكذا عقدت محالفة بين انجلترا وفرنسا ، وعاونت بضعة ملايين من الذهب الفرنسى سفن انجلترا على القيام بحملة ذريعة ضد أسطول هولندا . وكافأ تشارلس الثانى الآنسة دى كيروال على نصائحها الطيبة فجعلها دوقة بورتسموث. وكان كولبير قد وعد ملك فرنسا بالسفن والذخائر والانتصارات ، وقد وفى بوعده كما هو معروف . وكذلك أراميس الذى كان أكثر الاعتماد على المفاوضات التى قام بها فى مدريد

وفى الربيع التالى بدأ الجيش البرى حملته ، وكان دارتانيان يقود اثنى عشر ألفا من الفرسان والمشـــاة ، وعهد اليه فى الاستحـــواذ على النقط الاستراتيجية الهامة . وكان الضباط يعرفون بسالة قائدهم وبراعته ، وانه لن يضحى رجلا واحدا ولن ينزل عن شبر أرض الا عنـد الضرورة . وقد استولى خلال شهر على اثنى عشر موقعا صغيرا . ثم شرع يحاصر الموقع الثالث عشر ومكث فى ذلك خمسة أيام أمر فيها بحفر الخنادق دون أن تبدو من جانب العدو نية التسليم !

وبعث دارتانيان رسولا الى الملك ليخبره بما تم ، فسر الملك بالانبـاء وزاد ميلا لمداعبة السيدات اللاتى حوله، وقد زادته الانتصارات جلالا حتى صارت مدام دى مونتسبان لا تسميه الا باسم « لويس المظفر » . وفقدت الآنسـة دى لافاليير كثيرا من حظوتها لديه وصارت عيناها دائمتى الاحمرار من البكاء، وهو أمر لا يلائم ملكا منتصرا يبتسم له العالم ... وبينما أفل نجم لافاليير وسط السحب والدموع ، سطع نجم مدام دى مونتسبان التى تضـــاعف مرحها مع انتصارات الملك . وكان لويس الرابع عشر يعرف أن الفضل فى ذلك يرجع الى دارتانيان ، فكتب الى المسيو كولبير ما يلى :

« يا مسيو كولبير .. ان علينا وعدا للمسيو دارتانيان يجب أن نوفى به ، وقد حان الوقت لذلك .. لويس »

وعلى أثر هذا أرسل كولبير الى دارتانيان خطابا ، وصندوقا من الآبنوس المرصع بالذهب ، حملهما اليه رسول خاص زود بحرس مؤلف من خمسـة رجال . وقد وصلوا قبيل الفجر الى الموقع الذى يحاصره دارتانيـــان ، وكان محافظ تلك البلدة قد استطاع أن يهجم مع بعض المحاصرين بحيـــلة

بارعة فقتلوا من جنـــود دارتانيان سبعة وسبعين رجلا وحطمـــوا بعض منشآتهم ، وقد أزعج ذلك دارتانيان وخرج مع عدد من قاذفى القنـــابل ليصلحوا ما تهدم !

وكان رسول المسيو كولبير قد أمر بأن يقابل المسيو دارتانيان حيث يكون، لذا اتجه صوب الخنادق ووراءه الحرس الذى يصحبه وكلهم على ظهـور الجياد . وقد رأوا دارتانيان فى السهل المنبسط وعرفوه بقبعته ذات المخرم الذهبى وعصاه الطويلة وكان يعض على طرف شاربه ويزيح عن ملابسه التراب الذى يثيره الرصاص الذى يصيب الارض على مقربة منه . ورأوا كذلك جنودا وضباطا يصلحون الخنادق . وبعد ثلاث ساعات تمت هذه المهمة وبدا على دارتانيان الارتياح والهدوء . ولم يكد رسول كولبير يحدث دارتانيان حتى أصابته رصاصة فى احدى قدميه فذهبت بها وسقط بين يدى القائد، فرفعه هذا وحمله الى الخندق بين هتاف رجال فرقتين من الجيش ، ومن تلك اللحظة صار القتال أقرب الى الجنون ، وتقدمت الفرقتان الى المواقع الامامية فدكتها دكا واندفع رفاقهم وراءهم فى هجوم عنيف

وبينما كان دارتانيان يهنىء نفسه بهذا الانتصار، سمع وراءه صوتا يناديه فالتفت وراءه وتناول خطاب كولبير وقرأ فيه ما يلى :

« عزيزى المسيو دارتانيان .. ان الملك قد أمرنى بأن أخبرك بأنه قد عينك مارشالا لفرنسا جزاء لك على خدماتك الجليلة وعلى المجد الذى كسبته لجيوشه . والملك شديد السرور بالانتصارات التى حزتها . والصنـــدوق المرافق هو هديتى الخاصة ، وأنتم يا رجال الحرب بينما تشهرون سيوفكم للدفاع عن البلاد ، أعنى أنا بحث رجال السفن على ايداع الهدايا التى تستحقونها . وانى فخور بصداقتك يا سيدى المارشال ... كولبير »

فتملك دارتانيان الفرح ، وأشار الى الرسول فاقترب بالصندوق، ومد دارتانيان يده ليفتح الصندوق واذا برصاصة من قبل البلدة قد حطمت الصندوق بين يدى الضابط وأصابت دارتانيان فى صدره فوقع على الارض لتوه ، وسقطت عصا المارشالية من الصندوق المحطم تحت يد المارشال . وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع ، وظن رجاله أنه لم يجرح ولكن اذا به قد لون الدم ثيابه بلون أحمر قان ، وشحب وجهه شحوب الموت !

وصاح ضباط دارتانيان فزعا . ثم اتكأ على أذرعتهم التى امتدت له من كل جانب ، فاستطاع أن يلقى نظرة أخيرة على المكان وأن يرى علم ملك فرنسا مرفوعا على الحصن الرئيسى ، وسمع بأذنيه اللتين بدأتا تصمان عن سماع أصوات الحياة ، صوتا ضعيفا لطبول تعلن النصر . ثم أمسك بيده الواهنة عصا المارشالية ونظر اليها، وبعدئذ تراجع الى الوراء وهو يتمتم هذه الكلمات التى لم يفهمها ضباطه : « يا آتوس ، يا بورتوس ، الى اللقاء . يا أراميس وداعا الى الأبد ! »

وهكذا لم يبق من الفرسان الأربعة سوى جسم واحد ، أما الارواح فقد قبضها الله اليه !